

للأطفال

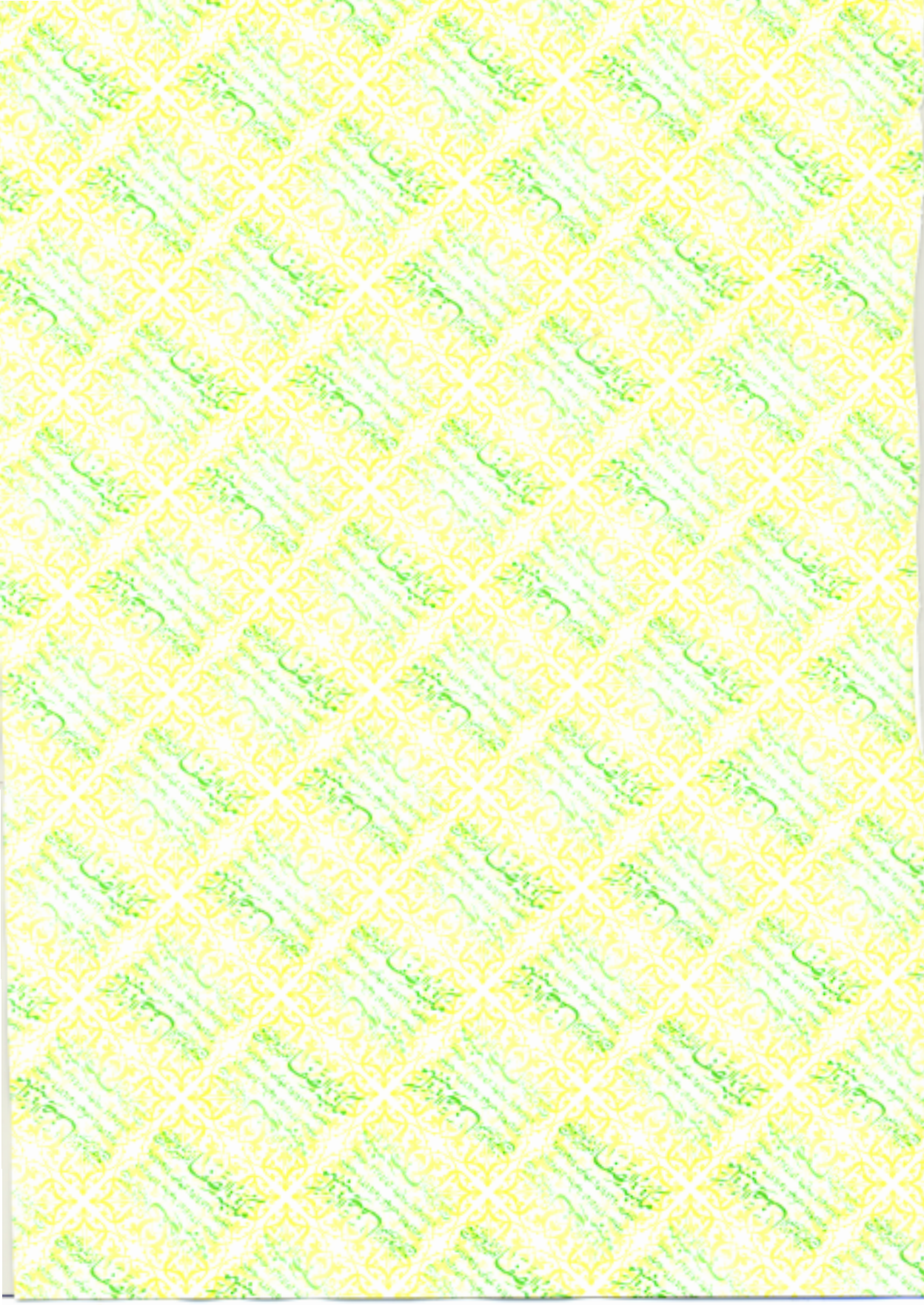
قصص الأنبياء



الشيخ

محمد بن أبي عمارة

مكتبة الصف



مكتبة دار الفکر



مكتبة دار الفکر
للتأليف والنشر

١٩٧٩ - ١٩٨٠

٢٠٧٧٢١٨٠٠٢

مكتبة دار الفکر

قصص الأنبياء للأطفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٣٧٠٣



مَكْتَبَةُ الصَّفَا

١٢٧ ميدان الزعفران، القاهرة ت: ٢٥١٤٧٣٢٠

أدربيا لأتراك، خلف الجامع الأزهر ت: ٢٥١٤٧٩٧٤ / ١٠١٤٣١١١٤

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

المصري، محمود

قصص الأنبياء للأطفال / محمود

المصري - ط ١ - القاهرة: مكتبة الصفا

{٢٠٠٨}،

٧٠٤ ص ٢٤١ سم

١- قصص الأنبياء

٢- قصص الأطفال

١- العنوان

٢٢٩,٥

قصص الأنبياء

للأطفال

الشيخ

مكي بن أبي طالب

أبو عمار

مكتبة الصف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالإسلام هو دين الهدى والنور، الذي لا سعادة للبشرية ولا أمن لها، ولا سعادة في الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدى بهداه، وتستضيء بنوره، مخلصه في عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له. فالأولاد أمانة في أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير في تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والبيت هو اللبنة التي يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفي

الأسرة الكريمة الراشدة التي تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى - ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها. **بشأننا أمة ملقة**

والولد قبل أن تربيته المدرسة والمجتمع - يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم.

ومكتبة الصفا تقوم بدورها في توعية المجتمع بواجباته الدينية والاجتماعية كما تعودت دائماً، فبعد أن وفقها الله لطباعة ونشر القرآن الكريم، ونشر كتب التفسير والحديث. ونشر كتب الداعية الكبير فضيلة الشيخ «محمود المصرى». **فهمه حيث هو** **وهو الذي مرّ بنا هذا الكتاب**

نقدم اليوم درة تضاف إلى مطبوعاتنا وهو كتاب **«قصص الأنبياء للأطفال»** لفضيلة الداعية محمود

المصرى. **الكتاب في سلسلة** **«قصص الأنبياء للأطفال»** **الكتاب في سلسلة** استطاع فيه - حفظه الله - أن يتحدث مع الأطفال بلغة عصرية جميلة. **والله في ذلك خبير**

يعلمهم فيه أصول دينهم، عن طريق القصص
والحكايات.

وسترى أخى القارئ الكريم مدى السلاسة والسهولة
التي تميزت بها عبارات هذا الكتاب حتى يناسب عقول
رجال المستقبل.

ونعندكم أخى القارئ الكريم بمزيد من المطبوعات فى
كافة المجالات، التى نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا
قبولاً حسناً وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.
إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارة لخدمة العلم والدين

قصص الأنبياء للأطفال

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيات: (٧٠، ٧١).

أما بعد: **الطفة الأولى: الأمانة**

فإن من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان (نعمة الأولاد) فهم منحة إلهية وهبة ربانية فهم زينة الحياة وزهرتها وهم أمانة في نفس الوقت - يجب أن نحافظ عليها - فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١).

وقال ﷺ - كما في الصحيحين -: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فالإحسان إلى الأولاد وتربيتهم أداء للأمانة. . .

وإهمالهم والتقصير في حقوقهم غش وخيانة. . .

* ومن المعلوم أن من أكثر الوسائل تأثيراً في الطفل

المسلم: القصة - ولذا نجد كثيراً من المعلمين كانوا يلجأون

في الماضي والحاضر للأسلوب القصصي في توصيل

المعلومة للطفل المسلم. . . ولكن بكل أسف كان أكثرهم

يختارون القصص الغربية التي تدمر الأخلاق والفضيلة في

(١) سورة التحريم: الآية: (٦).

نفس الطفل المسلم . ونسى هؤلاء أن تاريخنا الإسلامى المجيد غنى بأحسن القصص الذى يعلم أطفالنا الأخلاق الحميدة والسلوكيات القويمة . . . وعلى رأس هذا القصص قصص الأنبياء والمرسلين ثم قصص الصحابة الأطهار ثم قصص التابعين الأخيار .

*** ولو سأل سائل: لماذا ندرس قصص الأنبياء؟**

أقول: نحن ندرس قصص الأنبياء لأسباب جليلة أهمها:

(١) لأن الله أمرنا أن نقتدى بهم ونتأسى بهديهم .

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ (١)

والأمر له ﷺ أمر لأمته... وذلك لقوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢)

(٢) لأن حياة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) هي

(١) سورة الانعام: الآية: (٩٠) .

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٢١) .

الحياة المعصومة من الزيف والخطأ خصوصاً فيما يتعلق بأمر العقيدة.

(٣) لأن في دراسة حياة الأنبياء أكبر العظات والعبر للدعاة إلى الله (عز وجل). فهم أسوة في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم وصبرهم على البلاء فإذا ابتلى الداعية يعلم يقيناً بأنه قد ابتلى من هم خير منه.

(٤) أن دراسة حياتهم تنفعنا في كل زمان وبخاصة في زمن الغربة الذي نعيشه الآن حتى نجد قدوة نسير على هديها لنفوز بنصر الله وتمكينه لنا كما نصرهم الله ومكن لهم.

(٥) أن في قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيت للأفئدة، وتعميق لعقيدة أن العاقبة للمتقين، وأن النصر للمؤمنين: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

(٦) أن في دراسة قصص الأنبياء معرفة طبيعة الصراع بين الحق والباطل وأن الله يجعل النصر في نهاية الطريق لأهل الحق الذين آمنوا بالله واتبعوا رسول الله ﷺ.

(١) سورة هود: الآية: (١٢٠).

(٧) أن دراسة قصص الأنبياء ومعرفة أخبارهم تجعلنا نزداد حباً لهم ورغبة في أن نكون في صحبتهم باتباعنا لهم، وحبنا إياهم، وإن قصرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيراً كثيراً.

* فعن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحيت».

قال أنس: «فما فرحنا بعد الإسلام بشيء مثل فرحنا بهذا الحديث فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم» (٢)(١).

* فتعالوا بنا لتعايش بقلوبنا مع قصص الأنبياء ولنسعد بسيرتهم العطرة عسى الله أن يجمعنا بهم في جنته يوم القيامة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عضو الرحيم الغفار

محمود المصري

(أبو عمار)

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) فبهدهم اقتده / عبد العزيز بن ناصر الجليل (ص: ١٣ - ٢٠) بتصرف.

قصة آدم (عليه السلام)

في بداية هذا الكون كان الله وحده ولا شيء مع الله . . فهو الأول الذي ليس قبله شيء .

قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره»^(١).

* ثم أراد الله (جل وعلا) بحكمته وعظمته وفضله ورحمته أن يخلق هذا الكون الفسيح الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله (جل وعلا).

* فخلق الله الأرض في يومين وجعل فيها الجبال الرواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها . . وزين السماء بالنجوم لتزيئها وتزينها وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مُسمى .

ثم خلق الملائكة من النور . . فهم الذين يسبحون بحمده ويقصدونه ويخلصون في عبادته . . لا يعصون الله

(١) صحيح: رواه البخاري (٣١٩٢).

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. . .
 وخلق الجن من النار. . . فكان منهم الطيب ومنهم الفاسد.
 * ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وكماله
 «سبحانه وتعالى».

خلق آدم (عليه السلام)

ثم شاء الله (عز وجل) أن يخلق آدم، وذريته، ليسكنوا
 الأرض، ويعمروها، فأبأ ملائكته أنه سيُنشئ خلقاً آخر،
 يسعون في الأرض، ويمشون في مناكبها^(١)، ويتنشر نسلهم
 في أرجائها، فيأكلون من نبتها، ويستخرجون الخيرات من
 باطنها، ويخلف بعضهم بعضاً فيها.

* فلما أخبرهم الله (عز وجل) أنه سيخلق خلقاً غيرهم
 خافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفة كانت
 من أحدهم فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف
 تخلق غيرنا، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك، وتقديس
 اسمك؟! على أن هؤلاء الذين تستخلفهم في الأرض لا بد

(١) مناكبها: جوانبها ونواحيها.

أن يختلفوا على ما فيها من منافع، ويتجاذبوا ما بها من خيرات، فيفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء. **لقد قال الملائكة:** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (١).

لأنهم رأوا ما فعله الجن - قبل أن يُخلق آدم - من الإفساد وسفك الدماء.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كانت الجن قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جنوداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور.

* ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصدّيقون والشهداء والصالحون (٣).

خلق آدم (عليه السلام) من تراب

وكان بداية خلق آدم (عليه السلام) من التراب... ولقد أخبرنا الله (جل وعلا) بهذه الحقيقة فى كتابه فقال: ﴿إِنْ مَثَلٌ

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

(٣) قصص الأنبياء / الحافظ ابن كثير (ص: ٢٥).

عيسى عند الله كمثّل آدم خلّقه من تراب ثم قال له كُن فيكون ﴿١﴾ .
وقال عليه السلام: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع
 الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر
 والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك» ﴿٢﴾ .
 * أما عن تفاصيل خلق آدم (عليه السلام) من تراب
 فلقد أمر الله جبريل أن ينزل إلى الأرض ليأتيه من ترابها
 فلما نزل قالت له الأرض: أعوذ بالله منك أن تأخذ مني
 شيئاً فتركها وعاد إلى ربه فقال: يا رب إنها عادت بك
 فأعذتها . فأرسل الله ميكائيل ليأتيه من تراب الأرض فلما
 نزل قالت له الأرض: أعوذ بالله منك أن تأخذ مني شيئاً
 فتركها وعاد إلى ربه فقال: يا رب إنها عادت بك فأعذتها .
 فأرسل الله ملك الموت ليأتيه من ترابها فقالت له الأرض:
 أعوذ بالله منك أن تأخذ مني شيئاً فقال لها ملك الموت: وأنا
 أعوذ بالله أن أرجع دون أن أنفذ أمر الله (جل وعلا) .
 فأخذ ملك الموت من تراب الأرض كلها ولم يأخذ من مكان

﴿١﴾ سورة آل عمران: الآية: (٥٩).

﴿٢﴾ صحيح: رواه الترمذی (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣)، وصححه العلامة

الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٦٣٠).

واحد بل أخذ من تربه حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج الناس مختلفين فى ألوانهم وطبائعهم وأخلاقهم ومشاعرهم وذلك لاختلاف طبيعة الأرض التى خلقت منها كل إنسان.

فقال الله لملك الموت: أما رحمت الأرض حين

تضرعت إليك؟

فقال ملك الموت: لقد رأيت أن تنفيذ أمرك أوجب من

قولها.

فقال الله له: أنت تصلح لقبض أرواح بنى آدم.

ثم عُجِنَت هذه القبضة من التراب بالماء فصارت طيناً،

ثم جف وبيس حتى صار كالفخار، وكان آدم عليه السلام

فى هذه المراحل جسداً، مجرد جسد بلا روح ولا حياة

فبعد أن خلقه الله من الطين، صورّه وسوّاه وجعله تمثلاً

كجسمه على صورة إنسان، وتركه فى الجنة مدة من الزمن

لا يعلمها إلا الله، . . . قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى

عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾^(١).



(١) سورة الإنسان: الآية: (١).

إبليس يطيف بآدم (عليه السلام)

* قال عليه السلام: «لما خلق الله آدم تركه ما شاء الله أن يدعه،

فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك» (١).

ذلك لنعلم أن عداوة إبليس لنا قديمة ولن تنتهي حتى قيام الساعة فمنذ أول لحظة يولد فيها الإنسان وإذا بالشیطان يعلن عداوته له كما أخبر بذلك الصادق عليه السلام حيث قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» (٢).

- بل ويظل في حربه السافرة لبني آدم حتى الموت .
ويوم القيامة يخطب خطبته الشهيرة في النار ليملاً قلوب العصاة والكافرين حسرة فيزدادوا عذاباً فوق العذاب كما أخبر بذلك العزيز الوهاب: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦١١).

ومعنى: لا يتمالك، لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، - والمراد: كل بني آدم -.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٦).

أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ
إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١)

خلق آدم (عليه السلام) في يوم الجمعة

* وكان خلق آدم (عليه السلام) في يوم الجمعة كما
أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام حيث قال: «خير يوم
طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدْخِلَ الجنة،
وفيه أُخْرِجَ منها»^(٢).

* وعن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي
فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم
الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء،
وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس،
وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر
ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»^(٣).

(١) سورة إبراهيم الآية: (٢٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٩).

صفة آدم (عليه السلام)

وأما عن صفة آدم (عليه السلام) فلقد أخبر عنها النبي ﷺ فقال: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك به فإنها تحييتك، ونحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، قال: فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم عليه السلام، وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»^(١).

✽ وقال بعض العلماء في قول النبي ﷺ عندما كان في رحلة المعراج: «فمررت بيوسف عليه السلام فإذا هو قد أعطى شطر الحسن»^(٢). . قالوا: معناه أن يوسف (عليه السلام) كان على النصف من جمال آدم (عليه السلام) وذلك لأن الله هو الذي خلق آدم بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فكان أجمل مخلوق في الكون.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٢).

إبليس يرفض السجود لآدم (عليه السلام)

لما خلق الله آدم (عليه السلام) ونفخ فيه الروح عطس وتحرك جسده ودبت فيه الحياة وأصبح إنساناً يتنفس ويرى ويسمع. ففتح آدم (عليه السلام) عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له سجود تحية وليس سجود عبادة. . . . ماعدا واحداً يقف بعيداً ويرفض السجود لآدم (عليه السلام). . . وهو إبليس اللعين.

* لقد حكى الله عز وجل قصة رفض إبليس السجود لآدم في أكثر من سورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَعُودُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ (١٦).

وقال في سورة (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ

(١) سورة الأعراف: الآيات: (١٢ - ١٦).

(٢) «الصاغرين»: الأذلاء المهانين، «أنظرنى»: أخرنى وأمهلىنى فى الحياة.

«أغويتنى»: أضللتنى، «لأقعدن لهم»: لأترصدنهم ولأجلسن لهم.

خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ . . . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢﴾ .
 * وهكذا امتنع إبليس عن السجود، فطرده الله سبحانه، وأبعده، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .
قال علي بن أبي طالب عليه السلام : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » (٣) .

لأقعدن لهم صراطك المستقيم

ولما طُرد إبليس من رحمة الله (جل وعلا) ولعنه الله إلى يوم الدين قام إبليس وأعلن عداؤه لبني آدم وطلب من الله (عز وجل) الإنظار - التأجيل - : ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَئْتُونَ ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤﴾ .
 * ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١٦) ثُمَّ

(١) سورة ص : الآيتان : (٧٥ ، ٧٦) .

(٢) سورة ص : الآيتان : (٧٧ ، ٧٨) .

(٣) صحيح : رواه مسلم (٨١) .

(٤) سورة الاعراف : الآيتان : (١٤ ، ١٥) .

لَا تَبْتَهِمُ مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١﴾
 يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس، أخذ في المعاندة والتمرد فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
 أى: أقسم بإغوائك لى، لأقعدن لهم صراطك المستقيم، والصراط المستقيم هو كل طرق الخير التى تؤدى إلى رضا تعالى، من إسلام وهجرة وجهاد وجميع الطاعات التى يرضى عنها سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾
 أى: يأتهم من كل وجه وجهة، ليزل أقدامهم عن طرق الطاعات، ويعدد لهم الغوايات أشكالا وألوانا، حتى يوقعهم فى المعاصى.

*** قال عليه السلام:** «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الرب: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» (٢).

*** وكشف الشيطان عن حقه على آدم (عليه السلام)**

(١) سورة الأعراف: الآيةان: (١٦، ١٧).

(٢) حسن: رواه أحمد (١٠٨٥١)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠).

وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ** (١).

فهو يقسم بعزة الله على إغواء كل بنى آدم ما عدا عباد الله المخلصين فقال تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٤) **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** (٢).
 * إنها معركة قديمة ولن تنتهى أبداً بين الشيطان وبين بنى آدم ولذلك يجب علينا أن نعتصم بالله وأن نعبده حق العبادة حتى يعصمنا جميعاً من كيد الشيطان.

وقفة لطيفة

ظن كثير من الناس أن إبليس كان من الملائكة لأنه كان يعيش معهم . . وهذا خطأ كبير لأنه يخالف النص القرآني .
قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٣).

(١) سورة ص: الآيتان: (٨٢ ، ٨٣).

(٢) سورة ص: الآيتان: (٨٤ ، ٨٥).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٥٠).

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط .

* ومن المعلوم أن إبليس خلق من النار وأن الملائكة خلقت من النور كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» (١).

وعلم آدم الأسماء كلها

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

* لقد علم الله (سبحانه وتعالى) آدم (عليه السلام) الأسماء كلها فعرّفه أسماء كل الكائنات التي خلقت والتي لم تُخلق بعد .

ثم عرض تلك المخلوقات والكائنات على الملائكة .
﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أنبئوني بأسماء من عرضتكم عليكم من المخلوقات... وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقاً إلا ويكونون هم أعلم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣١).

منهم،... فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقى الذى منهم آدم، فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم^(١).
- ولما عجز الملائكة عن ذكر هذه الأسماء قالوا فى أدب جم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٢). أى: العليم بكل شئ الحكيم فى خلقك وأمرك، وفى تعليمك ما تشاء، ومنعك ما تشاء لك الحكمة فى ذلك والعدل التام.

يا آدم أنبئهم بأسمائهم

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه، واقتبس من نور علمه، أمره الله أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته، بيانا لفضله، وإظهارا لحكمة استخلافه، فأخبرهم بما عجزوا عنه، فناداهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٣).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/٤١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٣).

حينئذ تبينوا فضله، وأدركوا سر خلقه، وظهرت لهم
حكمة استخلافه. وبذلك فاز آدم (عليه السلام) بتلك التشريفات والمناقب:
- خلقه الله (جل وعلا) بيده الشريفة.
- نفخ فيه من روحه (سبحانه وتعالى).
- أمر الملائكة بالسجود له.
- علّمه أسماء كل شيء.
* وهكذا علم الملائكة قدر آدم (عليه السلام) وعظم
شأنه في أعينهم وعلموا أنه يعلم ما لا يعلمون.

كيف خلقت حواء؟

لما خلق الله آدم (عليه السلام) وأسكنه الجنة كان يمشى
فيها وحيداً ليس فيها من يجالسه أو يكلمه فأحس بالوحدة
والوحشة فأكرمه الله (عز وجل) فخلق له حواء من ضلع
من أضلاعه لتكون جزءاً منه لا يستغنى عنها. وكانت
من ضلعه الأيسر لتكون أقرب إلى قلبه وأحب إلى نفسه.

لكن كيف خلقت؟

لقد نام آدم (عليه السلام) نومة ثم استيقظ فوجد امرأة عند رأسه خلقها الله لتسكن إليها نفسه تُسمى حواء... وسُميت بهذا الاسم لأنها خلقت من حى وهو آدم (عليه السلام).

اسكن أنت وزوجك الجنة

وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا).
﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (١).
فسعد آدم (عليه السلام) بأن زوجته سترافقه فى الجنة.
ومما زاد من سعادته أن الله (عز وجل) أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة وأن ينعموا بكل نعيم فى الجنة فقال تعالى: ﴿إِنْ لَكُمْ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنْتُمْ لَا تَطْمَأِنُّ فِيهَا وَلَا تَضْحَكُ﴾ (٢).
لكن الله (عز وجل) نهى آدم وحواء عن أن يأكلا من شجرة واحدة حددها لهما (سبحانه وتعالى) وحذرهما من الأكل منها أشد التحذير فقال تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

(١)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه: الآيتان: (١١٨، ١١٩).

* سكن آدم وزوجه الجنة وصار يتمتع بكل ما فيها من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر... وكانت زوجته حواء تشاركه كل هذا النعيم.

فوسوس إليه الشيطان

وفي ظل هذا النعيم العظيم الذي كان يتمتع به آدم وزوجه حواء جاء التحذير من الله (عز وجل) لآدم... فحذره من كيد هذا العدو اللدود الذي جهر بعدائه لآدم... ألا وهو إبليس.

وعلى الرغم من أن الله (عز وجل) قد حذر آدم وحواء من عداوة إبليس إلا أنه استطاع أن يحتال عليهما ويوقعهما في المعصية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩)﴾ هكذا جاء التحذير ولكن إبليس كان يتربص بآدم وحواء، فبسبب آدم طُرد من رحمة الله عز وجل، إذ عصى الله ولم يسجد لآدم

(١) سورة طه: الآيات: (١١٧ - ١١٩).

كما أمره... علم إبليس بخبثه أن العصيان سبب طرده، فأخذ يفكر كيف يُطرد آدم وزوجه من ذلك النعيم المقيم الذي جعلهما الله فيه.

* راح إبليس يوسوس إلى آدم على جهة الإغواء والحسد والمكر، لم يقبل منه آدم ذلك.

كرر إبليس وسوسته يوماً بعد يوم، كما ذكر الله سبحانه في محكم التنزيل: ﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَلْفُ﴾ (١).

* فكر إبليس في طريقه أخرى، لعل آدم وزوجه حواء يسمعان إلى نصيحته المزعومة، لجأ إلى طريق الحيلة، أوهمهما أنه صادق الود لهما، وأنه لا يقصد ضررهما (٢).

واستطاع إبليس بمكره وخبثه أن يخدع آدم وحواء وأقسم لهما بالله على أنه يريد الخير لهما: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٣) أي: حلف لهما بالله.

* ثم قال لآدم (عليه السلام): ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٢٩ - ٣٠) باختصار.

(٣) سورة الاعراف: الآية: (٢١).

الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَمُوتُ ﴿١﴾ .

وقال أيضاً لهما: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ

تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

❖ وهنا نسي آدم (عليه السلام) أن الله (عز وجل)

حذره من الاقتراب من هذه الشجرة . . بل نسي أن إبليس

هو عدوه وعدو ذريته إلى يوم القيامة فأكل آدم وحواء من

هذه الشجرة ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ﴿٣﴾ .

❖ ولم يكد آدم ينتهي من الأكل من هذه الشجرة حتى

أحس بالحزن والألم والخجل . .

وهنا بدت له عورته لأول

مرة وكان الله قد سترها

عنه فلم يرها قبل ذلك .

وبدأ هو وحواء

يقطعان من أوراق الشجر

حتى يغطي كل واحد منهما عورته .



(١) سورة طه: الآية: (١٢٠) .

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٠) .

(٣) سورة طه: الآية: (١٢١) .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (١).

* أكل آدم - عليه السلام - ناسياً، وعوتب على نسيانه الوصية، قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (٢).

* خرج آدم وزوجه حواء عن أمر ربهما بمشيئة الله سبحانه، وناداهما ربهما مذكراً لهما وقائلاً: ﴿ أَلَمْ أَنُهَاكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٣).

* سمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة، وأمام النداء العلوي، تذكر آدم وحواء الوصية، فأتابا إلى الله عز وجل، وندما على فعلتهما، وطلبا العون من الله والمغفرة، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤).

* نهض آدم من عشرته، وأدركته رحمة الله تعالى،

(١) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).

(٢) سورة طه: الآية: (١١٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

وتاب عليه، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ﴾ (٢)(١).

الهبوط إلى الأرض

لما عصى آدم ربه وأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة ثم
تاب وندم على ما فعل وتاب الله عليه... وهنا جاء الأمر من
الله (جل وعلا) بهبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض التي
أعدها الله وهياها ليعيش فيها آدم وذريته إلى يوم القيامة...
فقد كانت فترة وجوده في الجنة كأنها فترة إعداد وتعليم وتربية
وتدريب على طاعة الأمر واجتناب النهي ومقاومة الشهوات.
﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣).

* لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض... آدم وزوجه...
وإبليس وقبيله... هبطوا ليصارح بعضهم بعضاً... وليعادي
بعضهم بعضاً... وكُتب على آدم وذريته أن يستقروا في

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).

(٢) نساء الانبياء: (ص: ٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٦).

الأرض، ويمكنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين.
 * كتب عليهم ربهم أن يحيوا فيها ويموتوا. ثم
 يخرجوا منها فيُعشوا، ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو
 ناره، في نهاية الرحلة الكبرى، رحلة الحياة الدنيا ^(١).
 * عن أبي موسى الأشعري، قال: إن الله حين أهبط
 آدم من الجنة إلى الأرض علّمه صنعة كل شيء وزوّده من
 ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه
 تتغير وتلك لا تتغير ^(٢).

* وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير
 يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أُدخل
 الجنة، وفيه أُخرج منها» ^(٣).

يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان

وها هو التحذير يأتينا من اللطيف الخبير (جل وعلا)
 لنحذر من مكائد الشيطان الذي زين لأبينا آدم أن يأكل من

(١) نساء الأنبياء (ص: ٣٦).

(٢) رواه الحاكم (٥٤٣/٢) وصححه وأقره الذهبي.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤).

تلك الشجرة التي نهاه الله عن أن يأكل منها. **قال تعالى:** ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).
- فياليتنا نتعظ بتلك القصة ونسلك طريق الطاعة والإيمان ونحذر من خطوات الشيطان لنفوز بالجنة والرضوان.

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) أن الله على كل شيء قدير.. فقد خلق السماوات والأرض والجبال والملائكة والجن وآدم وحواء.. وخلق كل شيء من العدم.
- (٢) أن خير الأيام يوم الجمعة فهو عيد لنا في الدنيا وعيد في الآخرة وذلك لأن يوم المزيّد في الجنة سيكون يوم الجمعة.. وهو اليوم الذي نسعد فيه برؤية وجه الله (جل وعلا).
- (٣) أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
- (٤) أن العلم شرف لكل إنسان.. فقد رأينا كيف فضّل الله آدم (عليه السلام) على الملائكة بالعلم.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٢٧).

(٥) أن الكبر سبب هلاك الإنسان.. وقد رأينا أن إبليس لما استكبر عن السجود لآدم (عليه السلام) طُرد من الجنة وباء بلعنة الله إلى يوم الدين.

(٦) أن الخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان... فلقد أخطأ آدم (عليه السلام) ونسى وأكل من الشجرة... ولكنه تاب بعد ذلك فتاب الله عليه وأنت إذا أخطأت فأسرع إلى التوبة ليتوب الله عليك.

(٧) احذر من مكائد إبليس فلقد أقسم بالله على أنه سيسعى في كل لحظة لإغوائك ولإيقاعك في معصية الله (جل وعلا).

(٨) أن الحسد من أخطر الأمراض التي توقع صاحبها في المعاصي والسيئات.. فلا تحسد أحداً ولكن سل الله من فضله.

(٩) أن المرأة سكنٌ لزوجها.. ولقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان يشعر بالوحشة والغربة حتى خلق الله له حواء من ضلعه فملأت عليه حياته وكانت سكناً له.

(١٠) أن الاعتراف بالذنوب والندم على ما فات والمصارعة إلى التوبة من سمات الصالحين... فقد رأينا كيف أن آدم

(عليه السلام) لما عصى ربه (جل وعلا) أسرع إلى التوبة هو وزوجته حواء واعترفا بذنبيهما فتاب الله عليهما.

(١١) لابد أن تعلم أن الخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان، والمخرج في التوبة والاستغفار.

(١٢) كانت فترة وجود آدم عليه السلام في الجنة للتدريب على الأمر والنهي: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١). وللتعليم بالتحذير والإنذار: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢)، ولأن الإنسان من طبعه النسيان فقد جعل الله سبحانه وتعالى مثل ذلك كل سنة فترة تدريب للإنسان؛ كي لا ينسى القضية التي خلق من أجلها، ولا يوالى عدوه في معصية مولاه، وهي فترة صيام شهر رمضان، يحرم عليه الحلال نهاراً ويباح له ليلاً؛ لتقوية عزمته، وشحذ همته، وتذكيره بقضيته؛ ... فافهم^(٣).



(١) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه: الآية: (١١٧).

(٣) ابن الإسلام/ للشيخ محمد حسين يعقوب (ص: ٤١).

وبدأ الصراع على ظهر الأرض

لما أهبط آدم (عليه السلام) وزوجته حواء من الجنة إلى الأرض كان عليه أن يصبر على هذا الصراع الرهيب الذي يملأ الأرض. فما ينتهي صراع إلا ويبدأ غيره... فقد كان عليه أن يبذل كل جهده من أجل أن يأكل ويشرب... ثم يأتي صراع آخر مع الوحوش والحيوانات التي تملأ الأرض والتي تمثل خطراً كبيراً عليه وعلى زوجته وأولاده. بل ولا ننسى منبع الشر الذي كان سبباً في هبوط آدم وحواء من الجنة... إنه إبليس اللعين الذي يوسوس لآدم وزوجته وذريته لكي يدخلهم النار معه يوم القيامة. هكذا كان الصراع يحيط به من كل جانب لكن الله كان يحفظه بطاعته وقربه من الله (جل وعلا).

قصة ابنى آدم

❖ لما استقر آدم وزوجته حواء فى الأرض بدأت الحياة الزوجية تكتمل فكان لابد من وجود ذرية لتعمر الأرض وليستمر نسل آدم (عليه السلام) إلى يوم القيامة .

❖ لقد بدأت حواء تحمل وتلد لآدم أولاداً كثيرين . . .

فكانت تلد فى البطن الواحدة ولدًا وبنتًا .

وكبر أولاد آدم (عليه السلام) وتزوجوا وامتألت الأرض بذريته . . . وكان دائماً يدعوهم إلى الله ويحضهم على طاعته ويحذرهم من معصيته .

❖ وفى يوم من الأيام ولدت حواء ذكراً وأنثى وبعد فترة وضعت ذكراً وأنثى فسمى آدم أحدهما قابيل والآخر هابيل .

وكان فى شرع آدم (عليه السلام) لا يجوز للابن أن يتزوج أخته التى وُلدت معه فى بطن واحدة ولكن يجوز له أن يتزوج من أخته التى وُلدت قبله أو بعده . . المهم ألا تكون معه فى بطن واحدة .

* وفى يوم من الأيام جاء هابيل يريد أن يتزوج من أخت قابيل وكانت أجمل من أخت هابيل فوافق آدم (عليه السلام)؛ ولكن قابيل رفض بكل شدة وأراد أن يتزوج من توأمه لأنها كانت أجمل من توأم هابيل .

وأخذ إبليس يزرع الحقد والحسد فى نفس قابيل على أخيه هابيل .

* فقام آدم (عليه السلام) وأمرهما أن يقدموا قرباناً إلى الله (جل وعلا) فمن تقبل الله قربانه يتزوج أخت قابيل .

* فخرج قابيل إلى زرعه وأخرج بعض الأعواد من أسوأ وأردأ أنواع الزروع وقدمها قرباناً لله (جل وعلا) .

* وأما هابيل فإنه أسرع إلى غنمه واختار كبشاً سمياً من خيار ماشيته وقدمه قرباناً لله (جل وعلا) .

ووقف الاثنان ينتظران ماذا يحدث فى شوق ولهفة .

فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش ولم تأكل قربان قابيل فلقد تقبل الله قربان هابيل .

* هنا غضب قابيل غضباً شديداً وذلك لأن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانه . . وامتلات نفسه بالحقد والحسد

وقرر في لحظة - من نزغات الشيطان - أن يقتل أخاه هابيل .
 * وكان هابيل قوياً شديداً يستطيع أن يدافع عن نفسه
 بل ويقتل قابيل ولكنه كان يخاف من الله ويعلم يقيناً أنه
 لو قتل أخاه فإن الله سيغضب عليه غضباً شديداً .
قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ
 مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
 لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١)﴾ .

وأراد هابيل أن ينبه أخاه إلى أن جزاء من يقتل أخاه
 النار، فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ
 أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢)﴾ .

* وفي هذا الكلام الذي قاله هابيل أكبر دليل على أن
 آدم (عليه السلام) كان يدعو أولاده إلى الله ويُعلمهم الحلال
 والحرام ويُعرفهم بالجنة والنار والجزاء والحساب ويحذرهم
 من الوقوع في الظلم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة .
 * ذكر أهل العلم أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان

(١) سورة المائدة: الآيتان: (٢٧، ٢٨) .

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢٩) .

والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى ، . . . وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى ، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذ هو به ، فقال له : تقبل منك ولم يتقبل منى .

فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين .

فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله .



وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته .

وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع ، فمات . . والله أعلم ^(١) .

قابيل يتعلم الدفن من الغراب

ولما قتل قابيل أخاه هابيل جلس أمامه عاجزاً لا يدري ماذا يصنع ولا يدري ماذا يقول لأبيه آدم (عليه السلام) . .

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ٥١ ، ٥٢) .

ولو أنكر أنه هو الذى قتل هابيل فأين يوارى جثته؟ وكانت هذه أول جريمة قتل تُرتكب على وجه الأرض. . ولم يكن أحدٌ على وجه الأرض يعلم شيئاً عن دفن الموتى لأن هذا كان أول ميت على الأرض. * حمل قابيل جثة هابيل وأخذ يمشى بها فى الأرض لا يدرى أين يذهب، وفجأةً أحس بالتعب فجلس يستريح قليلاً. . وبينما هو جالس إذ أرسل الله غرابين يقتتلان فقتل أحدهما الآخر ثم قام الغراب القاتل وأخذ يحفر فى الأرض حفرة كبيرة ثم وضع فيها الغراب المقتول ودفنه وغطاه بالتراب فعلم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل وكان فى تلك اللحظة نادماً أشد الندم على قتل أخيه هابيل. فحفر حفرة فى الأرض ودفن أخاه هابيل وهو يبكى حزناً عليه.



(١) سورة المائدة: الآية: (٣١).

قصة وفاة آدم (عليه السلام)

وظل آدم (عليه السلام) يعمل ويجتهد لإعمار الأرض ..
وظل يُعلم أولاده وأحفاده ويدعوهم إلى الله (جل وعلا).
وعندما حضرته الوفاة، استدعى سيدنا آدم عليه السلام
ابنه شيث، ولقنه العلوم والعبادات التي عرفها، حتى
يواصل شيث رسالة آدم التي بدأها.
نام آدم (عليه السلام) على فراش الموت لتفيض روحه
إلى بارئها (جل وعلا) بعدما ترك لذريته دروساً لا تُنسى
أبدًا وفوائد لا تبلى مع مرور الأيام والأعوام.
وها هي قصة موته (عليه السلام).

* **فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال:** (إن آدم عليه السلام،
لما حضره الموت، قال لبنيه: أي بني، إني أشتهى من ثمار
الجنة، فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم
أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي، والمكاتل ..
فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما
تريدون؟ وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، فاشتهدى من
ثمار الجنة، قالوا لهم ارجعوا فقد قُضى قضاء أبيكم.

فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك إليك عني، فإني إنما أتيت من قبلك، خلّني بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى، فقبضوه، وغسلوه، وكفّنوه، وحنطوه، وحفروا له، وألحدوا له، وصلّوا عليه، ثم دخلوا قبره، فوضعوه في قبره، ووضعوا عليه اللّبن، ثم خرجوا من القبر، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا: يا بني آدم هذه ستكم^(١).

* يقص علينا هذا الحديث خبر أبينا آدم عليه السلام، عندما حضرته الوفاة، أنه اشتهى من ثمار الجنة، وهذا يدل على مدى حب آدم للجنة، وشوقه للعودة إليها. وما له لا يشتاق إليها وهو قد عاش فيها، ورأى نعيمها، واستمتع به فترة من الزمن.

ولعله إذ انتهى ذلك منها قد أحس بدنو أجله، وقد دلت بعض الأحاديث أنه كان يعلم عدد سنوات عمره، وكان يحسب ما مضى منها، فيبدو أنه علم أن سنوات عمره قد انقضت، وأن انتقاله إلى الدار الآخرة قد اقترب، ولا شك أن آدم عليه السلام كان يعلم أن بنيّه لا

(١) روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند: (١٣٦/٥). قال ابن كثير بعد سيقاه للحديث: «إسناد صحيح إليه». أي: إلى أبي بن كعب، البداية والنهاية (٩٨/١).

طاقة لهم بتلبية طلبه، فأنى لهم الوصول إلى الجنة، وقطف ثمارها، وهم كانوا يعلمون ذلك، ولكن برهم بأبيهم جعلهم ينطلقون للبحث عن مراده.

وما كادوا يستعدون عن مقام أبيهم حتى قابلهم جمع من الملائكة متمثلين في صورة رجال، ومعهم كل ما يحتاج إليه لتجهيز الميت ودفنه، وهم يمثلون ما عليه المسلمون اليوم عندما يموت لهم ميت، فقد كانوا يحملون معهم أكفاناً وحنوطاً، ويحملون معهم الفؤوس والمساحى والمكاتل اللازمة لحفر القبر.

ولما أخبرهم أبناء آدم بمقصدهم وطلبهم، طلبوا منهم العودة إلى أبيهم، فإن أباهم قضى عمره، وانتهى أجله.

ولما جاءت ملائكة الموت آدم عرفتهم حواء، فلاذت بآدم، ويبدو أنها كانت تريد إغراءه بأن يختار الدنيا، فالرسل لا يُقبضون حتى يُخبروا، كما أعلمنا رسولنا ﷺ. فلم يلتفت إليها آدم عليه السلام، وزجرها قائلاً لها: إليك عني، فإنى إنما أتيت من قبلك، وهو يشير بذلك إلى ما كان منها في إغوائه لياكل من الشجرة.

قبض الملائكة روح آدم عليه السلام، وتولوا تجهيزه، ودفنه،

وأبناءؤه ينظرون، فقد غسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له قبره، وأحدوا له فيه لحداً، وصلوا عليه، ودخلوا فى قبره، ووضعوه فيه، ووضعوا عليه اللّبن، ثم خرجوا من القبر، وحثوا عليه التراب، وقالوا لأبنائه معلمين لهم: يا بنى آدم هذه سُنَّتكم، أى: طريقَتكم التى اختارها الله لكم فى موتاكم. وبذلك تكون هذه الطريقة شريعة عامة لكل الرسل والجميع المؤمنين فى الأرض على مدار العصور والأزمان، وكل طريقة تخالفها فهى مخالفة لهدى الله بمقدار ما فيها من المخالفة. ومن يعرف هدى المسلمين فى موتاهم الذى علمهم إياه رسولهم ﷺ يجده موافقاً لما فعلته الملائكة بآدم عليه السلام. وقد خالف هذا الهدى كثير من البشر على مدار التاريخ، فمنهم الذين يحرقون موتاهم، ومنهم الذين يبنون لهم البنايات الفخمة كالأهرامات ويدفنونهم فيها، بعد أن يضعوا عندهم الطعام والشراب والحلى والجواهر، ومنهم الذين يضعونهم فى توابيت من الحجر أو الخشب، وكل ذلك يكلف تكاليف باهظة الثمن، ويضع جهودهم فى غير موضعها، وهو قبل ذلك وبعده مخالف للهدى

الذي شرعه الله للموتى من بنى آدم^(١).
 * فلما مات آدم (عليه السلام) قام ولده شيث (عليه السلام) بأعباء الدعوة من بعده وكان نبياً . . . ومرت الأيام والسنون وتتابع الأحداث الكثيرة بعد ذلك حتى بعث الله (جل وعلا) نبيه إدريس (عليه السلام) . . . فيا ترى ما الذي حدث في عهده؟ هذا ما سنعرفه في القصة القادمة.

النبي ﷺ يلتقى بآدم (عليه السلام) في ليلة المعراج

ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ٢٦ : ٢٨) د. عمر الأشقر. ليلة آدم (١)

أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنينه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى..^(١)

أهل الجنة يدخلونها على صورة آدم (عليه السلام)

وإكراماً لآدم (عليه السلام) فإن أهل الجنة يدخلونها على صورة أبيهم آدم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام حيث قال: -كما في الصحيحين-: «أول زُمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر. ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة: لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة - عود الطيب - أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٩)، واللفظ له، ومسلم (١٦٣).

وفى رواية للبخارى ومسلم: «آتيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض: قلوبهم قلب رجل واحد، يُسبحون الله بكرة وعشياً».

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) أن الحياة كلها تعب وكبد ومشقة ولا بد أن يعلم المسلم أنه لا راحة إلا فى جنة الرحمن (جل وعلا).
- (٢) أن الحسد والأناية تحمل الإنسان على إيذاء إخوانه والكيد لهم، وقد رأينا ماذا صنع الحسد الذى كان فى قلب قابيل تجاه أخيه . . لقد حمّله على أن قتل أخاه . فالواجب على المسلم أن يرضى بقضاء الله ولا يحسد أحداً على حطام الدنيا الفانية بل يجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .
- (٣) أن الحكمة ضالة المؤمن . . فقد يتعلم الإنسان من إنسان آخر أقل منه فى العلم والفهم . . وقد رأينا كيف تعلم قابيل دفن أخيه من الغراب الذى دفن الغراب المقتول .
- (٤) كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . فقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان حريصاً على دعوة أولاده وأحفاده حتى آخر لحظة فى حياته .

قصة إدريس (عليه السلام)

حبائبي الحلوين... ما رأيكم في أن أقص عليكم قصة نبي الله إدريس (عليه السلام).
* هيا بنا نرجع إلى الوراء قليلاً.

فإنه لما اقترب أجل أبينا آدم (عليه السلام) وأوشك على الموت جاء بابنه (شيث) وعلمه علماً كثيراً ثم مات آدم (عليه السلام).

* وأنزل الله (عز وجل) بعد ذلك على شيث خمسين صحيفة فيها تعاليم الله إلى أهل الأرض يدعوهم فيها لعبادته وحده لا شريك له ويحذرهم من الوقوع في الشرك والكفر.
وعاش (شيث) وسط أولاده يعلمهم الإيمان، فلما أوشك على الموت، واقترب موعد وفاته، أوصى إلى ولده (أنوش) فقام بدعوة قومه كما كان يفعل أبوه.

ثم علم ولده (قين) من بعده كيف يدعو الناس إلى الله.
وجاء الولد الرابع وهو (مهلايل) فكان ملكاً مؤمناً،
حارب أهل الشرك من أبناء قابيل، ثم علم ولده (يرد)

الذى صار يدعو الناس للإيمان والعمل الصالح .
 وحضرت الوفاة (يرد) فأحضر ولده (إدريس) وكان
 صالحاً، عابداً، زاهداً، عالماً، ففهم من أبيه ما أراد .
 * وكان إدريس يقرأ كل يوم فى الصحف التى أنزلها
 الله على شيث حتى لا ينساها . . وكان عابداً لله لا
 ينقطع أبداً عن عبادته وشكره لله (جل وعلا) .
 ولذلك أكرمه الله بالنبوة بعد آدم وشيث (عليهما
 السلام) فهو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله (عز
 وجل) عنهم فى كتابه العزيز . . . قال تعالى : ﴿وَأذْكُرْ فِي
 الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾ .
 فقد كان صديقاً نبياً وكان من الصابرين . . وهو أبو جد
 نوح (عليه السلام) أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة فكان يدعو
 الناس إلى وحدانية الله فأمن معه ألف إنسان . . ولقد أدرك
 إدريس من حياة آدم (عليه السلام) ثلاثمائة وثمان سنوات
 لأن آدم (عليه السلام) عاش طويلاً ما يقرب من ألف سنة .
 * ولد إدريس (عليه السلام) بابل ولما تعلم العلم وكان

(١) سورة مريم : الأيتان : (٥٦ ، ٥٧) .

فى بداية أمره يعلم الناس تلك الصحف التى أنزلت على
 شيث (عليه السلام) فلما آتاه الله النبوة وأنزل عليه ثلاثين
 صحيفة كان يدعو بها إلى وحدانية الله (جل وعلا).
 وخرج يطوف البلدان ليدعو الناس جميعاً إلى توحيد
 الله (جل وعلا) حتى وصل إلى أرض مصر وأقام هناك
 بمصر هو ومن معه من المؤمنين وظل يدعو الناس إلى
 التوحيد وإلى مكارم الأخلاق. **قال هذا حديث**
 * وكان (إدريس) عالماً، فكان أول من كتب بالقلم، وهو
 أول من خيَّط الثياب وحاكها، وأول من تعلم مواقع النجوم
 وعلمها للناس، كما تعلم الفلك والحساب، والحكمة.
 وكان (إدريس) يطوف الأرض، ويدخل فى البلاد كلها،
 يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويُعلمهم العلوم
 النافعة التى تعلمها، كالفلك، والحساب، والخياطة، والكتابة.
 * وكان إدريس (عليه السلام) لا يغرز إبرة إلا قال:
 سبحان الله، فكان يُمسى حين يُمسى وليس فى الأرض
 أحدٌ أفضل منه عملاً. **قال (عيسى عليه السلام)**
 وكان إذا نسى ذكر الله أثناء خياطته للثوب، يعود مرة

أخرى فيقطع ما قد خيَّطه ويُعيد خياطته مرة أخرى،
ويذكر الله تعالى من جديد.
ولما كان (إدريس) على هذه الدرجة العالية من العلم
والعبادة فقد أحبه الناس في كل البلاد، وحاول كل شعب
من الشعوب أن ينسبه إلى دولته.
فالمصريون يُسمون (إدريس) هُرمس الهرامسة،
ويقولون: إنه ولد (بمنف) عاصمة مصر الفرعونية، ويقولون
أيضاً: إنه طاف البلاد ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.
واليهود يُسمون إدريس (أخنوخ) ويقولون أنه نبي من
الأنبياء كان كثير العبادة، وكان الله تعالى يحبه، ولذلك
رفعه إلى السماء.
وأهل اليونان يُسمون إدريس (أورين
الثالث) ويجعلونه حكيماً من الحكماء
عندهم وهذا دليل على أن
(إدريس) عليه السلام كان
رجلاً محبوباً من كل الناس
في الأرض، لأنه علمهم العلوم



النافعة، كما علّمهم كيف يعبدون الله، ويُصلون له. والمسلمون يُحبون إدريس عليه السلام، لأن الله تعالى أخبرنا أنه كان صديقًا نبيًا، وقد رآه النبي ﷺ في السماء الرابعة في رحلة الإسراء والمعراج. وقد كانت الملائكة تُحب (إدريس) عليه السلام، فقد كان كثير القراءة لكلام الله تعالى الذي أنزله في صحف (شيث) (١).

* عانى في سبيل دعوته وتحمل الأذى وصبر - كسائر الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم - ولذلك أثنى الله عليه فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾.

* ولهذا كان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين . . فقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٣)﴾.

(١) قصص الأنبياء للأطفال / حامد أحمد (ص: ٧٧ - ٧٩).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٥، ٨٦).

(٣) سورة مريم: الآيات: (٥٦ - ٥٨).

وكان إدريس في مصر مُحبباً إلى أهلها فأطاعه ملك مصر وآمن به، فنظر إدريس في أمور المصريين، فصعد إلى أول منابع النيل، وعلم المصريين كيف يقيسون الأراضي، وعلمهم ما يفعلون أيام زيادة الماء وهو الفيضان، وما يفعلون أيام نقصان الماء، كما علمهم الزراعة الصحيحة، وعلمهم كيفية ري الأرض وسقيها.

وهذا معناه أن إدريس عليه السلام جمع بين الحكم، والنبوة، والحكمة، والعلم.

* وهو أول من رسم قواعد إنشاء المدن فلقد أنشئت في زمانه مائة وثمان وثمانون مدينة.

* وهكذا عاش إدريس (عليه السلام) يطوف البلدان ويعلم الدنيا علوم الدين والدنيا، ويحضهم على عبادة الله ووحدايته.

* وقبل موته أخذ يعلم ابنه الإيمان والتوحيد والعبادة الصحيحة وعلمه كافة العلوم النافعة التي تعلمها من قبل..

ثم مات إدريس (عليه السلام) بعد أن رفعه الله مكاناً علياً.

* فكيف رفعه الله مكاناً علياً.. فتعالوا بنا لنعرف كيف كان ذلك.

* أوحى الله إلى إدريس بأنه يرفع له كل يوم مثل جميع أعمال بنى آدم الذين يعيشون في زمانه .

فجاء إلى إدريس (عليه السلام) خليل له من الملائكة فقال له إدريس : إن الله أوحى إلى بكذا وكذا فأريد أن أعيش طويلاً حتى تكثر أعمالي الصالحة التي تُرفع إلى الله فأخذه الملك وحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء .

فلما كان في السماء الرابعة قابله ملك الموت وكان نازلاً إلى الأرض فكلّم هذا الملك المقرب إلى إدريس ملك الموت في أن إدريس يريد أن يعيش أكثر من ذلك ليزداد عمله الصالح .

فقال له ملك الموت: وأين إدريس؟

فقال الملك: ها هو الآن على ظهري .

فقال ملك الموت: يا للعجب . . لقد أمرني الله الآن

بقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول في نفسي: كيف أقبض روحه الآن في السماء الرابعة وهو الآن في الأرض . . فقام ملك الموت وقبض روح إدريس (عليه السلام) في السماء الرابعة فذاك هو قوله تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ^(١)

(١) سورة مريم : الآية : (٥٧) .

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن الآباء لا بد أن يحرصوا على غرس العقيدة والأخلاق في نفوس أبنائهم فقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان حريصاً على تعليم أبنائه علوم الدين والدنيا... وكذلك فعل أبناؤه بأبنائهم... وهكذا فعل إدريس (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

وقال عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(٢).

(٢) أن المسلم لا ينشغل بعلوم الدين فقط بل عليه أن يكون حريصاً على أن يتعلم علوم الدين والدنيا لينفع المسلمين من حوله... كما فعل إدريس (عليه السلام) فقد كان يطوف البلدان يعلمهم علوم الدين والدنيا.

(٣) أن المسلم لا بد أن يحرص على صحبة أهل العلم ليتعلم منهم الخير كله في دينه ودنياه.

(٤) أن المسلم لا بد أن يحب الخير لكل من حوله

(١) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

فلقد رأينا كيف أن إدريس (عليه السلام) كان حريصاً على تعليم الناس كل ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم ليعيشوا في سعادة في دنياهم وآخرتهم.

(٥) أن المكانة العالية لا تكون إلا لأهل الإيمان والتقوى... فقد رأينا كيف رفع الله إدريس إلى السماء الرابعة ليقبض روحه هناك.

ولذلك فمن أراد المنزلة العليا من الجنة فعليه أن يكون في المنزلة العليا في العبادة والدعوة إلى الله.

(٦) أن الإنسان لا يستطيع أن يفر من الموت ﴿أَيُّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (١).

فقد صعد الملك بإدريس ليكلم ملك الموت في أن إدريس يريد أن يعيش أكثر وإذا بملك الموت يخبره بأن الله قد أمره أن يقبض روحه الآن في السماء الرابعة.

ولذلك فالمسلم لا بد أن يكون على استعداد دائم للقاء الله (جل وعلا) وذلك بأن يكثّر من الأعمال الصالحة ويتبع عن الذنوب والمعاصي... فإذا وقع في أي معصية فعليه أن يسرع إلى التوبة ليتوب الله عليه.

(١) سورة النساء: الآية: (٧٨).

قصة نوح (عليه السلام)

لقد كان بين آدم ونوح (عليهما السلام) عشرة قرون كلها على التوحيد فلم يكن في هذا الوقت على وجه الأرض مشرك واحد ولم يظهر الشرك إلا في قوم نوح (عليه السلام).

فعن ابن عباس أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»^(١).
فكان أول من عبد الأصنام على هذه الأرض قوم نوح، وكان الناس قبلهم على عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار، لا يعرفون وثنية، ولا يعبدون أصناماً.
ويشير إلى صحة هذا قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٢).

(١) رواه الحاكم (٤٣٧/٣)، وقال هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢١٣).

كيف بدأت قصة الشرك

كان هناك خمسة من الرجال الصالحين من أجداد قوم نوح (عليه السلام) وكانوا يعلمون الناس الدين الحق ويدعونهم إلى عبادة الله (جل وعلا) ويساعدون الفقراء ويعطفون على اليتامى حتى أحبهم الناس وكانت لهم مكانة عالية بين قومهم في ذلك الزمان.

وكانت أسماء هؤلاء الرجال الخمسة الصالحين هي:
(ود، سواع، يغوث، يعوق، نسر).

* ومرت الأيام ومات هؤلاء الخمسة الصالحون فحزن الناس عليهم حزناً شديداً وقام بعضهم وأشار على من حوله في أن يصنعوا تماثيل لهؤلاء الخمسة الصالحين على سبيل التكريم والذكرى ولينظروا إليهم فتكون عوناً لهم على طاعة الله.

* ومرت السنوات . . ومات هؤلاء الناس الذين نحتوا تلك التماثيل وجاء أبناؤهم ثم أحفادهم ونسجوا القصص والأساطير والحكايات حول هذه التماثيل وأصحابها وزين لهم الشيطان ذلك وأوهم الناس أن هذه التماثيل آلهة تملك النفع والضرر فبدأ الناس يعبدون تلك التماثيل فكان لابد في هذه الفترة من إرسال رسول كريم يدعو الناس إلى التوحيد

وإلى ترك عبادة الأصنام .. فأرسل الله (عز وجل) إليهم رسولا كريما هو نوح (عليه السلام).

طوق النجاة

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمّ البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فلما بعث الله نوحا عليه السلام، دعاهم إلى إفراذ عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. لقد دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه، وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم

والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم^(١).

قصير جميل

* لقد عانى نوح (عليه السلام) من قومه أشد المعاناة
فبينما هو يدعوهم إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى جنته التي
فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر وإذا بهم يصيبون عليه الإيذاء صَبًّا فلقد كانوا يدخلون
عليه في داره فيخنقونه حتى يُترك قعيداً مُجهداً. . وكان
يُضرب في المجالس ويُطرد. . إلا أن نوحاً كان لا يدع،
على ما يُصنع به، أن يدعوهم ويقول: يا رب اغفر لقومي
فإنهم لا يعلمون، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٢).

* أما قومه فكانت دعوته لا تزيدهم إلا فراراً منه،
حتى إنه يكلم الرجل ويدعوه إلى الله، فيلف رأسه بثوبه،
ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من كلامه،
فذلك قول الله تعالى: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا

(١) قصص الأنبياء (ص: ٩٧، ٩٨).

(٢) فتح الباري (٦/٦٠١).

ثِيَابُهُمْ^(١)؛ ثم يقومون من المجلس، ويسرعون المشى يقولون: امضوا؛ فإنه كذاب... اتركوه فإنه مجنون.

* اشتد البلاء على نوح - عليه السلام - وصبر صبراً جميلاً، كان ينتظر القرن بعد القرن، والجيل بعد الجيل، فلا يأتي إلا وهو أخبث من الأول، وأعتى من سابقه، بل أشد وأسوأ، وأظلم وأطغى.

* كان الرجل منهم يقول: قد كان نوحٌ هذا مع آبائنا، ومع أجدادنا قبل آبائنا، فلم يزل هكذا مجنوناً - بزعمهم - ... ذكر الله تعالى ذلك فقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ^(٢)﴾.

* كان الرجل من قوم نوح إذا دنا أجله وحضرته الوفاة، أوصى أولاده وذويه وقال لهم: احذروا هذا المجنون... فإنه قد حدثني آبائي أن هلاك الناس على يدي هذا.

* كانوا كذلك يتوارثون هذه الوصية الخاوية بينهم، حتى إن الرجل منهم يحمل ولده على عاتقه، ثم يقف به على نوح فيقول: يا بنى، إن عشت ومت أنا فاحذر هذا

(١) سورة نوح: الآية: (٧).

(٢) سورة القمر: الآية: (٩).

الشيخ فإنه مجنون، ويكون هلاك الناس على يديه. * وانضم إلى فريق المعاندين والمكذبين لنوح امرأته، وأخذت تسير في ركب الكافرين، وتدلّى في دلوهم، وتكيل في ميزانهم^(١).

حرصه على هداية قومه

لقد كان نوح حريصاً كل الحرص على هداية قومه وعلى نجاتهم من الهلاك وكان يرجو لهم كل الخير ولا ينتظر على ذلك أجراً ولا ثناءً وإنما كان يبتغي الأجر من الله (جل وعلا).

وتأمل معي كيف كانت شفقته على قومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وفي الآية الأخرى: ﴿... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٣).

فهى دعوة ممزوجة بالرحمة والشفقة.

ولقد حدد لهم غايته وهدفه من أول لحظة وهو أنه يريد أن

(١) نساء الأنبياء (ص ٥٤، ٥٥) بتصرف.

(٢) سورة الاعراف: الآية: (٥٩).

(٣) سورة هود: الآية: (٢٦).

يأخذ بأيديهم إلى عبودية الله ليكونوا عباداً لله (جل وعلا).

إن أجرى إلا على الله

وكان نوح (عليه السلام) يضع الأمور في مواضعها الصحيحة فلا يعدهم بمالٍ أو جاء وإنما يعدهم بالفوز بمغفرة الله ورضوانه.

قال لهم ذلك بكل وضوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

* بل كان يذكرهم دائماً أنه لا يريد شيئاً من حُطام الدنيا الزائل حتى لا يظن واحد منهم أن نوحاً (عليه السلام) يريد الدنيا من وراء دعوته . . فكان يقول لهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢)، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رِيبَهُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٣).

(١) سورة هود: الآية: (٣١).

(٢) سورة يونس: الآية: (٧٢).

(٣) سورة هود: الآية: (٢٩).

دعوة للتأمل

وكان يدعوهم لأن يتأملوا آيات الله في الكون ليؤمنوا بالله بل ويزدادوا إيماناً كلما تأملوا أكثر وأكثر . . قال لهم: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (١).

وفي الحقيقة إن التأمل في آيات الله في الكون وفي الإنسان نفسه تجعل الإنسان يعرف قدر عظمة الله، ويقر له بالوحدانية ويعلم أنه أمام رب عظيم جليل يستحق أن تُفرده بالعبادة وأن نعلم يقيناً أن مقاليد الكون كله في يديه، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو (جل وعلا) فعندها نجد قلوبنا وأجسادنا تنقاد طوعاً لمحبه وعبادته ولسان حال كل واحد منا: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (٢).

(١) سورة نوح: الآيات: (١٣ - ٢٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٤).

لا يأس ولا قنوط

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه، بلا مصلحة له، ولا منفعة؛ ويحتمل في سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إغراض واستكبار واستهزاء... ألف سنة إلا خمسين عاماً.. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإغراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد! ثم عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذي كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل! عاد يصف ما صنع وما لاقى... وربه يعلم. وهو يعرف أن ربه يعلم ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان... إلى الله^(١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾^(٢).

(١) الفلأل (٦/٣٧١٢).

(٢) سورة نوح: الآيات: (٥ - ٩).

ألف سنة إلا خمسين عاماً قضاها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه، وهذا يعني أنه كان يحاسب نفسه، فإذا أعرض قومه عن الدعوة العلنية عاد يبلغهم الدعوة بصورة سرية، وفي جميع الحالات كان رحيماً بهم خائفاً عليهم عذاب يوم أليم.

لقد كان نوح قمة في الصبر، وآية من آيات الله في الحلم والأناة وسعة الصدر، وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجراً أو مكافأة، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب..

فقلت استغفروا ربكم

* أخذ نوح - عليه السلام - بعد هذا كله يدعو قومه ليلاً ونهاراً سراً وعلانية، بدأ معهم طريق الدعوة بالنظر في ملكوت الله، وفي إظهار آيات الله في الكون.. دلهم على طريق النجاة.. وهو طريق سهل واضح ينجو من سلكه من التهلكة، ويفوز مع الفائزين.. هذا الطريق عنوانه وبدايته الاستغفار.. هذا الطريق ثماره دانية القطوف في الدنيا وفي

الآخرة.. فبالاستغفار يُرسل الله بركات من السماء إلى الأرض.. ويمدُّ المستغفرين بالأموال.. بالذرية.. وبالأستغفار يجعل الله لهم الجنات.. ويجعل لهم الأنهار التي تروى تلك الجنات.. وتمدُّ الأرض بالحياة..

قال تعالى حاكياً عن نوح: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) 》

فهو يعدمهم على الإيمان والتوحيد رزقاً حسناً وحياة طيبة وكثرة في المال والولد، وهذا منه ترغيب في التوبة، أى: سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان، وستجدون الله تواباً رحيمًا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً 》 (٢) .

شكا رجلٌ إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكا له آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقلنا

(١) سورة نوح: الآيات: (١٠ - ١٢).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٧).

له في ذلك، فقال: ما قلت من عندي شيئاً إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ الآية (١٢).

موقف الملائكة من قومه

لقد بذل نوح (عليه السلام) كل طاقاته من أجل هداية قومه فلامست دعوته الرحيمة قلوب الفقراء والضعفاء وداوت جراحهم وآلامهم وأحزانهم .. أما الأغنياء والكبراء والأقوياء فقد وقفوا من دعوته موقف عداة غريب بل وبدأوا يعلنون الحرب ضد نوح (عليه السلام) ... ففي البداية اتهموه بأنه بشرٌ مثلهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا (٣)﴾ .

مع أن نوحاً (عليه السلام) لم يقل أنه من الملائكة ..

(١) سورة نوح الآيات: (١٠، ١٢) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٧٨١) باختصار .

(٣) سورة هود: الآية: (٢٧) .

لكنهم يبحثون عن أى حجة حتى لا يستجيبوا لدعوته
وهى حيلة مكررة للهروب من الحق. ﴿وَكَانَ الْمَلَأُ وَالْأَكَابِرُ يَظُنُّونَ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ أَنَّ دَعْوَةَ نُوحٍ (عليه السلام) لَنْ تَسْتَمِرَّ طَوِيلًا بَلْ سَرَعَانَ مَا تَنْطَفِئُ وَيَنْصَرِفُ النَّاسُ عَنْهُ. لَكِنْ كَانَتْ الْمَفَاجِئَةُ الَّتِي أَذْهَلَتْهُمْ أَنَّ دَعْوَةَ نُوحٍ (عليه السلام) جَذَبَتْ الضَّعَفَاءَ وَالْفُقَرَاءَ - وَهُمْ دَائِمًا أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ - فَبَدَأُوا بِالْهَجُومِ عَلَى نُوحٍ (عليه السلام) وَقَالُوا لَهُ: لِمَ يَتَّبِعُكَ إِلَّا الْفُقَرَاءُ وَالضَّعَفَاءُ وَالْأَرَاذِلُ. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (١).

مساومة مرفوضة

هنا ... لجأ الملأ والأكابر إلى مساومة عجيبة فقالوا لنوح (عليه السلام): إن أردت أن نؤمن لك وأن نتبعك فاطرد هؤلاء الفقراء والضعفاء الذين آمنوا معك فإننا لن نقبل أن نكون نحن وهم فى مكانة واحدة ونحن السادة والشرفاء والأكابر.

(١) سورة هود: الآية: (٢٧).

* وعلى الرغم من كل هذا العناد والكبر إلا أن نوحاً (عليه السلام) رد عليهم بكل رحمة وحنان ووضح لهم أنه على الحق وأنه يعرض عليهم هذا الحق بدون إكراه ولا يريد منه مالاً ولا جاهاً . . ولكنه فى نفس الوقت لا يستطيع أن يطرد المؤمنين . . قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (١).

يا قوم إن الذين تقولون أنهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا، وليس لى عند الناس إلا أن يؤمنوا. إننى لا أطلب مالاً على الدعوة، حتى أكون حفيّاً بالاثرياء غير حفى بالفقراء، فالناس كلهم عندى سواء . . ومن يستغنى عن مال الناس يتساوى عنده الفقراء والأغنياء.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ عليه وحده دون سواء (٢).
﴿وَيَا قَوْمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) . .
فهناك الله. رب الفقراء والأغنياء. رب الضعفاء

(١) سورة هود: الآية: (٢٩).

(٢) الفللال (٤/ ١٨٧٣ ، ١٨٧٤) باختصار.

(٣) سورة هود: الآية: (٣٠).

والأقوياء. هناك الله يُقوِّم الناس بقيم أخرى. ويزنهم بميزان واحد. هو الإيمان. فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).
فها هو نوح (عليه السلام) يخبرهم أنه رسول من عند الله تعالى يدعو إلى عبادته سبحانه وحده لا شريك له ولا يسألهم أجراً، وأنه يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب نجا، كما ليس له التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك بل هو بشر مرسل، ولا أقول عمن تحتقرونهم بأنهم لا ثواب لهم على أعمالهم .. الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين وباطنهم كظاهرهم فلهم جزاء الحسنی (٢).

(١) سورة هود: الآية: (٣١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤١).

وها هم يستعجلون العذاب

* وهنا بدأ الملائكة من الأكابر يسأمون من دعوة نوح (عليه السلام): ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١).

* وكأنهم يقولون: يا نوح لقد سئمنا من مناقشتك وكلامك فأرسل علينا العذاب إن كنت من الصادقين. فقال لهم نوح (عليه السلام): أنا لا أستطيع أن أعذبكم إنما أنا وظيفتي ومهمتي أن أدعوكم إلى الله (جل وعلا) فإن أبيتم إلا الكفر فالله وحده هو الذي يستطيع أن يذيقكم عذابه في أي وقت شاء.

اتهموه بالضلال

فلما يشس هؤلاء الأكابر وانتهت حجتهم لجأوا إلى سوء الأدب مع نبي الله نوح (عليه السلام).

(١) سورة هود: الآيات: (٣٢ - ٣٤).

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١).

فرد عليه نوح (عليه السلام) ردًا بليغًا تفوح منه رائحة الأدب العظيم.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

*** قال لهم:** أنا أعلم بمصلحتكم وأعلم بما يكفل لكم السعادة في الدنيا والآخرة وأنا حريص كل الحرص على أن أنفعكم فأطيعوني لتسعدوا في الدنيا والآخرة.

ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح

قد يُبتلى الداعية بقومه وأصدقائه فيعاني منهم ما يعانى، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة وطمأنينة النفس، وهذا الذى كان يلقاه خاتم الأنبياء ﷺ فى كنف خديجة رضي الله عنها.

أما نوح عليه السلام فقد ابتلاه الله بقومه وبأهل بيته. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغَيَّرْهُمَا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (٦١ ، ٦٢).

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴿١١﴾ .
 وكانت خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت تنقل أخباره
 وأسراره لأعدائه، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة
 من قوم نوح به، . . فهي خيانة في الدين، وليس في
 العرض لأن نساء الأنبياء معصومات من الزنى .
 * كان من الطبيعي أن تكون امرأته من فصيلة المؤمنين
 به، ومن الذين يشدون أزره، ويساعدونه على المضي في
 إبلاغ ما أمره الله به، لكنها كفرت وغلبت عليها شقوتها،
 وأغوت ابنها وجعلته يسلك سبيل المجرمين . . ويخالف
 والده نوحاً في النية والعمل والدين .

* بدأت هذه المرأة الشقية رحلة السخرية بزوجه نوح
 الذي اختاره الله عز وجل رسولاً ونبياً للناس، بل هو
 أول رسول أرسل من عند الله سبحانه، وهو كذلك من
 أولى العزم من الرسل، ومع هذا كله كانت تناقش نوحاً
 وتحاوره في أمور دينه بأسلوب يطفح بالاستهزاء والسخرية
 والانتقاص، وذلك أمام قومه الذين انبعثوا يقولون له:
 ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا . .﴾ ﴿٢﴾ .

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).

(٢) سورة هود: الآية: (٣٢).

صور من عصيانها

- * كانت امرأة نوح تقول للناس عن زوجها نوح - عليه السلام - إنه مجنون، لا يعقل، يهذى بكلام لا يفهمه أحد . . ويتكلم عن أشياء غير ممكنة الحدوث وغير متوقعة، ويزعم أن الأصنام لا تضر ولا تنفع.
- * كان إذا آمن أحد من قوم نوح وانضم إلى موكب الإيمان والنور، وسار مع ركب المؤمنين، انطلقت امرأة نوح وأخبرت به الجبابة من قومها، وأصحاب الشر منهم، ليقوموا بتعذيبه وزجره، ثم يفتنونه عن دينه إن استطاعوا . . أو يقومون بغوايته وإضلاله في سبل وطرق متنوعة^(١).

رب لا تذرعلى الأرض من الكافرين دياراً

- * لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله فى كل وقت، يمشى قرن بعد قرن، فلا يستجيبون له، حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك من حاله وحالهم، وتمادوا فى المعصية، وعظمت فى

(١) نساء الأنبياء (ص: ٥٥ ، ٥٦).

الأرض منهم الخطيئة، واشتد على نوح منهم البلاء، فلا يأتي زمنٌ إلا كان أخبث من الذي قبله، وظل نوح - عليه السلام - صابراً يتحمل أذاهم في سبيل الله عز وجل عسى أن يشوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عما هم عليه من العناد والضلال والفساد والإفساد.

✽ وانطلق الكافرون يزدون من عذابهم لنوح . . صاروا يضايقونه أكثر من قبل . . أعرضوا إعراضاً كاملاً . . ضربه وهو يناجي ربه وهو ساجد في يوم من الأيام . . بلذكروا أن نوحاً - عليه السلام - بينما هو ساجد يوماً من الأيام، إذ مر به رجل من كفار قومه وعلى عنقه حفيد له، فقال الجد للحفيد محذراً وموصياً:

يا بني هذا هو الشيخ الكذاب الذي دعانا إلى عبادة رب لا نعرفه، وأوعدنا وعيداً بلا أمد، فاحذر منه حتى لا يضللك. **فقال الحفيد له:** إذا كان على هذه الحالة فلم تركتموه حياً إلى الآن؟

فقال له الجد: وما كنا نصنع به؟

فقال الحفيد: أنزلني حتى ترى ما أصنع به . .

فأنزله جده، فأخذ صخرة وأهوى بها إلى رأس نوح فشجّه^(١).

فلما سمع نوح - عليه السلام - قول الحفيد، وحواره مع جده، ورأى فعلته التي فعل، علم إذ ذاك أن الحفيد أظغى وأخبث من الجد، فدعا فى تلك السجدة، وتوجه إلى الله عز وجل فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾.

وها هو يصنع سفينة النجاة

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣).

لقد حزن نوح على استسلامهم للكفر وانقيادهم للشيطان بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء، وبعد كل هذا التوجيه، والتنوير، والإنذار، والإطماع، والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد هذا كله كان العصيان، وأوحى

(١) تفسير القرطبي (٤٦/٩)، و(٣١٢/١٨) بشيء من التصرف.

(٢) سورة نوح: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٣) سورة هود: الآية: (٣٦).

الله إلى نبيه نوح ما قصه في كتابه: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممنوع، فلم يبق مجال للمضى في دعوة لا تفيد. ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحذ واستهزاء.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم ... دع أمرهم فقد انتهى..

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (٢) برعايتنا وتعليمنا. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٣). فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم. فلا تخاطبني فيهم .. لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم.

* ﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) فسوف تعلمون

(١) سورة هود: الآية: (٣٦).

(٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٣٧).

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١﴾ .

* بدأ نوح - عليه السلام - بتنفيذ أمر ربه في اتخاذ الفلك - السفينة - ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع السفينة، لذا فقد أوحى الله إليه بطريقة صنعها، وعلمه كيف ينبغي أن تكون، . . قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (٢).

* وشرع نوح - عليه السلام - يصنع الفلك تحت أمر الله ووحيه، وأعد العدة لذلك، وأخذ في تنفيذ المهمة الربانية ويبدو أن امرأته كانت تراه وهو ينقل الأخشاب، ومن ثم يبدأ العمل في صناعتها على شكل سفينة . . ولكن ليس قرب البحر، أو قرب نهر كبير، مما أثار دهشة امرأته واستغرابها، وراحت تسأله في تهكم: ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح؟! فقال نوح - عليه السلام -: سفينة أنجو بها ومن معي من المؤمنين إذا جاء أمر الله.

فقالت في سخرية شديدة: وأين الماء الذي تجرى عليه سفينتك؟

* ويشارك ملاً الكفار في السخرية بنوح كلما رأوه ينجز

(١) سورة هود: الآيتان: (٣٨، ٣٩).

(٢) سورة هود: الآية: (٣٧).

قسماً من السفينة، كانوا يقولون له ساخرين متسافهين ضاحكين:
يا نوح، صرت بعد النبوة نجاراً، إن هذا لشيء عجاب!
ثم أسرفوا في استحضار السخرية، وفي التماذى والازدراء
والهزاء فقالوا: يا نوح، لو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك
الذى تصفه لنا وتدعونا إليه يساعدك في هذا العمل، أو يغنيك
عن هذا العمل الشاق، ألا ترى يا نوح أن هذا قمة الجهل؟!
ظل نوح - عليه السلام - يتابع عمله، ولا يعبأ بسخرية
الساخرين، فلما أغرقوا في سخريتهم ورميهم إياه بالجهل قال
لهم مذكراً: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٢٨).
قال: إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص
من العذاب، فإننا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض.
إن تسخروا منا في الدنيا، فإننا نسخر منكم في الدنيا
والآخرة، في الدنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق.
اليوم لكم فرح وغداً ترح، اليوم حبرة وغداً عبرة،
اليوم لطف وغداً أسف، اليوم لقاء وغداً بكاء، يوم
ينكشف المستور عن المحذور!

(١) سورة هود: الآية: (٣٨).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٦٩ ، ٧٠) بتصرف.

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأصبحوا لا يلدون إلا فاجراً كفاراً، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان^(١).

انتهى صنع السفينة، وجلس نوح عليه السلام، ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى، أوحى الله جل جلاله إلى نوح أنه إذا فار التنور فهذه علامة على بدء الطوفان، - التنور: الفرن الذي يُخبز فيه الخبز - . ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾^(٢).

وجاء اليوم الرهيب، فار التنور، وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به، وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض، وأمر الله نوحاً عليه السلام أن يأخذ معه في السفينة ذكراً وأنثى من كل كائن حي: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾^(٣).

فحمل نوح إلى السفينة من كل حيوان وطيور ووحش



(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢).

(٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٤٠).

زوجين اثنين، بقرة وثوراً، فيلاً وفيلة، عصفوراً وعصفورة، نمرًا وغمرة، إلى آخر المخلوقات، لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض، وبدأ صعود السفينة، فوضع نوح في الدور الأسفل من السفينة الحيوانات والوحوش، واستقر هو والمؤمنون في الدور الأوسط، أما الطيور فقد استقرت في الدور الثالث، وكان عدد المؤمنين قليلاً.. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١).

لم تكن زوجة نوح مؤمنة بالله فلم تصعد معه إلى السفينة، وكان أحد أبنائه يُخفى كفره ويُبدي الإيمان أمام أبيه نوح عليه السلام، فلم يصعد هو الآخر، وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هي الأخرى، فلم تصعد، وصعد المؤمنون.. قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمن من قوم نوح ثمانون إنساناً^(٢).

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر

ويصور الله (عز وجل) لنا هذا المشهد المهيّب عندما قام نوح (عليه السلام) يرفع أكف الضراعة إلى الله (عز وجل).

(١) سورة هود: الآية: (٤٠).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٥٦، ٥٧).

* ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ (١).

وكأنه يقول لربه (عز وجل) بلسان الحال: انتهت

طاقتي . . . انتهى جهدي، انتهت قوتي، وغلبت على
أمرى ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ انتصر أنت يا ربى. انتصر
لدعوتك، انتصر لحقك انتصر لمنهجك انتصر أنت فالأمر
أمرك، والدعوة دعوتك، وقد انتهى دورى!

وما تكاد هذه الكلمة تُقال، وما يكاد الرسول يسلم الأمر
للوحد القهار، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة
الكون الهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية المجلجلة:
﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى
الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ (٢) . . والتقى الماء المنهمر بالماء المتفجر
من الأرض . . ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ . . التقيا على أمر مقدر.

ارتفعت المياه من
فتحات الأرض، انهمرت
من السماء أمطار غزيرة



(١) سورة القمر: الآية: (١٠).

(٢) سورة القمر: الآيتان: (١١، ١٢).

بكميات لم تر مثلها الأرض، فالتقت أمطار السماء بمياه الأرض، وصارت ترتفع ساعة بعد ساعة، فقدت البحار هدوءها، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة، وتكتسح الأرض، وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى في المياه.

وكتب الله النجاة للمؤمنين

* نجا المؤمنون جميعهم عندما صعدوا السفينة، ووقاهم الله شر ذلك الطوفان، وجعل لهم ودًا، وغرق الكافرون الساخرون وأهلكهم الله عز وجل.. فإذا الصمت يخيم.. لا حس ولا حركة، ولا صوت للكافرين.

لم يبق إلا صوت هدير الماء، وتوحيد المؤمنين من على السفينة، يُسبحون بحمد ربهم.. فقد انتصر طوفان الإيمان على طغيان الكفر وعلى طوفان الفسق والسخرية.

* ارتفعت السفينة فوق الماء، وعلا الموج، وغطى الأرض، فغدت كرة من الماء، لم تعد كرة أرضية طيلة فترة الطوفان، لقد تجاوز الماء وطغى على كل شيء حتى رؤوس الجبال الشاهقات.

* غرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين في السفينة ظنت أن بيتها يمنعها من الماء ويحميها من هديره، لكن لا عاصم اليوم من أمر الله.

* وأصبحت قصة امرأة نوح مثلاً . . اقرأ معي قول الباري جل وعلا: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴾ (١).

يا بنى اركب معنا

ولا تكن مع الكافرين

وأما نوح (عليه السلام) فإنه لما ركب السفينة وأدخل فيها المؤمنين وأهله - كما أمره الله - وإذا به يرى ابنه (يام) (ويقال له: كنعان) في جهة خارج السفينة فأخذ يناديه لعله يلحق بقافلة المؤمنين.

﴿ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَيْلٍ يَعْتَدِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).

مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١١﴾ .
 ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ : أنهى الموج حوارهما فجأة، نظر
 نوح فلم يجد ابنه، لم يجد غير جبال الموت التي ترتفع
 وترفع معها السفينة، وتفقدوا رؤية كل شيء غير المياه،
 وشاء الله أن يغرق الابن بعيداً عن عين الأب، رحمة منه
 بالأب، واعتقد نوح أن ابنه مؤمن، وتصور ابنه أن الجبل
 سيعصمه من الماء، فغرق ولم يعلم أنه من الكافرين .
 واستمر الطوفان، استمر يحمل سفينة نوح، وبعد
 ساعات من بدايته، كانت كل عين تطرف على الأرض قد
 هلكت غرقاً، لم يعد باقياً من الحياة والأحياء غير هذا
 الجزء الخشبي من سفينة نوح، وهو ينطوي على الخلاصة
 المؤمنة من أهل الأرض، وأنواع الحيوانات والطيور التي
 اختيرت بعناية ﴿١٢﴾ .



(١) سورة هود: الآيتان: (٤٢، ٤٣) .

(٢) ابن الإسلام (ص: ٥٨) .

بعداً للظالمين

لقد استمر هذا الطوفان مدة من الزمان لا نعرفها ثم أمر الله (جل وعلا) السماء أن تكف عن المطر وأمر الأرض أن تستقر وتبتلع الماء ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾^(١). ثم أوحى الحق (جل وعلا) إلى أخشاب سفينة نوح (عليه السلام) أن ترسو على جبل الجودي. ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أى: ابتلعت الأرض فى جوفها وغار من سطحها. **وقيل:** إن نوحاً عليه السلام ومن معه ركبوا السفينة فى عاشر شهر رجب، فساروا فيها مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم^(٢). ﴿وَقِيلَ بَعْدَ لَاقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا... وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنهم الله... وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا بعد ما طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها.

(١) سورة هود: الآية: (٤٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦، ٤٤٧).

يا نوح إنه ليس من أهلك

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف. ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).
أى: وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٢) **أى:** ليس من أهلك الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾^(٣) فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه عليه الصلاة والسلام^(٤).
 * ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(٥) **أى:** إن عمله شيء غير صالح وقد انقطعت العروة والصلة التي بينك وبينه فلا رابطة بعد ذلك ولا صلة.

(١) سورة هود: الآية: (٤٥).

(٢) سورة هود: الآية: (٤٦).

(٣) سورة المؤمنون: الآية: (٢٧).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٤٤٦/٢).

(٥) سورة هود: الآية: (٤٦).

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ﴾ (١)(٢).

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد
زلَّ في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه
ورحمته: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَالْأُتُغْفِرُ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣).

وأدركت رحمة الله نوحاً، تطمئن قلبه، وتباركه هو
والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب اليم (٤).

يا نوح اهبط بسلام

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ
مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥).

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أُرست
السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من

(١) سورة هود: الآية: (٤٦).

(٢) قال في التسهيل (١٠٦/٢): وليس في ذلك وصف له بالجهل بل فيه ملاطفة وإكرام.

(٣) سورة هود: الآية: (٤٧).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٤٤٦/٢).

(٥) سورة هود: الآية: (٤٨).

المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة.
دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة،
وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة^(١).

وصية نوح (عليه السلام)

وهبط نوح عليه السلام من سفينته، وأطلق سراح
الطيور والوحوش فتفرقت في الأرض، نزل المؤمنون بعد
ذلك، لتبدأ حياة جديدة فوق أرض جديدة، بعد زوال
الكفر والطغيان، حياة يملؤها النور ويملؤها الإيمان.

ولا ندرى كيف استكمل نوح عليه السلام حياته على
الأرض، ولكنه عاش نبياً رسولاً، يُعلِّم من نجا معه من
المؤمنين ويربيهم ويعظهم، حتى أتاه الموت، وكانت
وصيته الخاتمة... قال رسول الله ﷺ: «إن نبي الله
نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصُّ عليك
وصية: أَمَرَكِ بِاثْنَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَيْنِ: أَمَرَكِ بِإِلَهِ إِلَّا إِلَهَ، فَإِنْ
السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).

لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن
السموات السبع والأرضين السبع كن حلقه مُبهمه ضمتهن لا
إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء،
وبها يُرزق الخلق، وأنها عن الشرك والكبر»^(١).

* وهكذا عاش نوح (عليه السلام) على التوحيد . .
ودعا قومه إلى التوحيد . . ومات وهو يوصي ابنه أن
يعيش وأن يموت على التوحيد.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الغلو في الصالحين قد يقود الناس إلى الوقوع
في الشرك بالله (جل وعلا).

(٢) أن الداعية لا بد أن يدعوا قومه باللين والرحمة وأن
يصبر معهم صبراً طويلاً ولا يمل.

(٣) الدعوة إلى التوحيد هي أساس كل دعوة جاء بها
الرسل والأنبياء.

(٤) على الداعية أن يذكر الناس بنعم الله عليهم حتى

(١) صحيح: رواء أحمد (٦٥٤٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في
الصحيحة (١٣٤).

يستميل قلوبهم إلى الإيمان بالله .

(٥) أن الداعية لابد أن يجعل دعوته خالصة لوجه

الله لا يريد من ورائها مالا ولا شهرة ولا جاهاً .

(٦) أن الاستغفار يفتح لك أبواب الخير في الدنيا

والآخرة - بإذن الله - .

(٧) أن أتباع الأنبياء دائماً هم القلة المؤمنة الضعيفة

الصابرة لكنهم عند الله أعلى الخلق قدراً ومقاماً .

(٨) أن رابطة الإيمان هي التي تجمع الناس . . . ولذا

فقد رأينا كيف أن امرأة نوح وابنه لم يركبا مع نوح (عليه

السلام) في السفينة لكفرهما .

(٩) أن الصبر مفتاح الفرج .

(١٠) أن المؤمن يجب أن ينفذ أمر الله حتى ولو لم

يعرف الحكمة من وراء ذلك . . . فقد رأينا كيف أن نوحاً

(عليه السلام) بنى السفينة في الصحراء ونفذ أمر الله ولم

يسأل عن الحكمة من وراء ذلك فنصره الله ونجاه .

(١١) أن المسلم لا بد أن يحرص على أن يوصى أولاده

بأن يتمسكوا بدينهم وأن يثبتوا على الإيمان والتوحيد .

قصة هود (عليه السلام)

عندما نَجَّى الله (جل وعلا) نوحًا (عليه السلام) ومن آمن معه من المؤمنين عاشوا زمانًا على التوحيد والإيمان ولم يكن بينهم كافر واحد.

لقد شاهدوا كيف نجاهم الله من الطوفان. فازدادوا شكرًا لله وعاشوا على طاعته بل كانوا يُعلمون أولادهم الإيمان والتوحيد حتى ينشأوا في طاعة الله (جل وعلا).

* ولكن بعد مرور السنوات الطويلة وموت الآباء والأجداد نسي الأحفاد وصايا الآباء والأجداد ونسوا وصايا نبي الله نوح (عليه السلام).

فكثرت المعاصي وازداد الأمر سوءًا فلقد عاد الناس مرة أخرى إلى الشرك وعبادة الأصنام بعد أن زين لهم الشيطان فعل ذلك.

* فلقد قال أحفاد قوم نوح (عليه السلام): لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان وتعالوا نصنع لهم تماثيل لنذكرهم بها.

* ولم يعبدوها في بداية الأمر ولكن ظل الأمر يتطور يوماً بعد يوم حتى وقعوا في عبادة الأصنام والتماثيل مرة أخرى وعاد الظلام والشرك إلى الأرض مرة أخرى.

* فأرسل الله (جل وعلا) إلى هؤلاء القوم نبيه هوداً (عليه السلام) ليأخذ بأيديهم إلى الإيمان والتوحيد مرة أخرى.

من هو هود (عليه السلام)؟

كان هود (عليه السلام) من قبيلة يقال لها (عاد) وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف - وهي: جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مُطلة على البحر وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

حياة الرغد والرفاهية

أقامت عاد بالأحقاف - ما بين اليمن وعمان - فترة من الزمن في رغد من الحياة. حباهم الله نعمًا وافرة، وخيرات جليلة، ففجروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشأوا البساتين، وشادوا القصور، ومنحهم فوق ذلك

بسطة في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يؤت
أحدًا من العالمين، ولكنهم لم يفكروا في مبدأ هذا الخلق
ولم يحاولوا التعرف على مصدر هذه النعم. وغاية ما
وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم أن اتخذوا
أصنامًا لهم آلهة، يتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على
خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضرر.
ثم إنهم بعد ذلك عثوا^(١) في الأرض، فأذل القوى منهم
الضعيف، وبطش الكبير بالصغير، فأراد الله هداية
للأقوياء، وتمكينًا للضعفاء، وتهذيبًا للنفوس مما ران^(٢) عليها
من الجهل، أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يحدثهم
بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم إلى خالقهم،
ويبين لهم سفاهة عبادتهم، رحمة منه، وكرماً^(٣).

(١) عثوا: أفسد، وبالغ في الفساد أو الكبر، أو الكفر.

(٢) ران: الران: الدُّنس، والغطاء، والحجاب الكثيف. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، أي: غلب عليهم حبُّ المعاصي، وقست قلوبهم لاقتراء الذنب بعد الذنب، وصار صداً على قلوبهم، فعسى عليهم معرفة الحق من الباطل.

(٣) قصص القرآن/ مجموعة من العلماء (ص: ٥٠، ٥١).

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

ولما ملأ ركام الجاهلية أرجاء الأرض أراد الحق (جل وعلا) أن يطهر الأرض من دنس الشرك والكفران وأن يرد الناس إلى أنوار التوحيد والإيمان فأرسل إلى قوم عاد هوداً (عليه السلام) وكان رجلاً منهم من أوسطهم نسباً وأكرمهم خلقاً وأرجحهم عقلاً وأرحبهم صدرًا فاختره الله (عز وجل) ليكون أمين رسالته وصاحب دعوته عسى أن تهتدى به العقول الضالة وأن تستقيم به القلوب الخائرة..

فجاءهم هود (عليه السلام) يصدع بكلمة التوحيد ويدعوهم إلى عبادة الله الملك الحق المستحق بأن تُفرد بالعبادة فقال لهم:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١).

يا قوم! ما هذه الأحجار التي تنحتونها، ثم تعبدونها، وتلجؤون إليها؟! ما خطرها؟ وما نفعها؟ وما ضررها؟ إنها لا تجلب لكم نفعاً، ولا تدفع عنكم شراً، إن هذا إلا احتقار لعقولكم، وامتهان لكرامتكم، ولكن هناك إلهاً واحداً حقيقاً بأن تعبدوه، ورباً جديراً بأن تتوجهوا إليه، هو الذي خلقكم

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٥).

ورزقكم، وهو الذى أحياكم، وهو الذى يميتكم.
مَكَّنْ لَكُمْ فى الأرض، وأنبت الزرع، وبسط لكم فى
الاجسام، وبارك لكم فى الأنعام، فأمنوا به، واحذروا أن
تعموا عن الحق، أو تكابروا فى الله، فيصيبكم ما أصاب
قوم نوح، وما عهدهم منكم ببعيد.
قال ذلك هود؛ وهو يرجو أن تصل كلماته إلى أعماق
نفوسهم فيؤمنوا، أو تنفذ إلى عقولهم فيفكروا ويهتدوا^(١).

عناد واستكبار

ومع كل ما بذله هود (عليه السلام) من أجل هداية
قومه إلا أنهم استكبروا ورفضوا أن يدعوهم واحد منهم
واتهموه بالسفاهة والكذب.



﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا
لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

(١) قصص القرآن/ مجموعة من العلماء (ص: ٥١، ٥٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٦٦).

هكذا جزأً بلا تدبر ولا دليل!

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (١).

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق - كما نفى عن نفسه الضلالة - وقد كشف لهم - كما كشف نوح من قبل - عن مصدر رسالته وهدفها، وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها. وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين. ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا - كما عجب قوم نوح من قبل - من هذا الاختيار، ومن تلك الرسالة، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل، كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ (٢) (٣).

إنها دعوة خالصة

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصيح والهداية أجراً.

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (٦٧، ٦٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٦٩).

(٣) الظلال (٣/ ١٣١٠، ١٣١١).

إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل: ﴿يَا قَوْمِ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

*** وهنا نشعر أن قوله:** ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كان بناء
على اتهام له أو تلميح بأنه يتغنى أجراً أو كسب مال من
وراء الدعوة التي يدعوها. وكان التعقيب: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
للتعجب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله
يطلب رزقاً من البشر، . . . والله الذي أرسله هو الرزاق
الذي يرزق هؤلاء الفقراء! (٢).

*** وهذا هو شأن الرسل والأنبياء جميعاً فهم لا يريدون
دنيا ولا جاهاً ولا وزارة وإنما هدفهم الأوحى والأسمى هو
أن يأخذوا بأيدي الناس جميعاً إلى عبادة الله (عز وجل).**

وها هو يذكرهم بنعم الله (جل وعلا)

وبداً هود (عليه السلام) يخاطب عقولهم وقلوبهم
ويذكرهم بنعم الله عليهم . . . تلك النعم التي لا تُعد ولا
تُحصى فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ

(١) سورة هود: الآية: (٥١).

(٢) الفلأل (٤/ ١٨٩٦ ، ١٨٩٧).

وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ ،
فلقد كان من حق هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة،
أن تستوجب شكر النعمة، والحذر من البطر والكفر.

* وها هو يذكرهم مرة أخرى بنعم الله كما أخبر
بذلك الحق (جل وعلا): ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ
(١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

* ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ كانوا يبنون عند الطرق
المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار
القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع
للزمان، وإتعايب للأبدان، واشتغال
بما لا يُجدي في الدنيا ولا في
الآخرة (٣) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ



(١) سورة الاعراف: الآية: (٦٩).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٢٨ - ١٣٥).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٦٥٣).

تَخْلُدُونَ﴾ أى وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة ترجون الخلود فى الدنيا كأنكم لا تموتون؟ ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أى: وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفة أو رحمة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أى: خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمرى^(١).

وأخذ يذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتناولون ويتجبرون، وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا فى العبث والبطش والبطر الذميم!

﴿وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (١٣٤) إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

* ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ﴾ وهى النعم المعهودة فى ذلك العهد، وهى نعمة فى كل عهد .. ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم. فى صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب. فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذى لا شك فيه^(٣).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٨٩).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٣٢ - ١٣٥).

(٣) الظلال (٥/ ٢٦١).

وها هو يحضهم على التوبة والاستغفار

* بل وأخذ هود (عليه السلام) يُطمعهم في المزيد من نعم الله فأخذ يحضهم على التوبة من عبادة الأصنام وعلى التوجه إلى عبادة الرحمن (جل وعلا) وظل يُرغبهم في الاستغفار ليتوب الله عليهم ويُدِيم عليهم النعم التي يعيشون في ظلها بل ويزيدهم عليها أضعافاً كثيرة فقال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (١).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً. روى أن عاداً كان حُبِس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر،... في الآية دليل على أن التوبة والاستغفار، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي: ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم،

(١) سورة هود: الآية: (٥٢).

وشدة إلى شدتكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أى: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مُصرين على الإجرام، وارتكاب الآثام^(١).

لم ينتفعوا بأى موعظة

وعلى الرغم من كل هذا فإنهم لم ينتفعوا بأى موعظة لأن الله ختم على قلوبهم فلم تعد تشعر بقيمة الحق الذى جاء به هود من عند الحق (جل وعلا).

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ^(٢).

أى: يستوى عندنا تذكيرك لنا وعدمه، فلا نبالى بما تقول ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٣).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٠).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٣٦ - ١٣٨).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢).

* بل إنهم ذكروا العلة في عدم استجابتهم لهود (عليه السلام) في أنه بشرٌ مثلهم وهم يريدون من الله أن يرسل إليهم ملكًا رسولاً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (١).

وها هم يتكرون البعث

وظلوا راسخين في غيهم وضلالهم حتى وصل بهم الأمر إلى إنكار البعث والحساب والجزاء فقالوا: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

هكذا كذب قوم هود نبيهم، قالوا له: هيهات، هيهات، واستغربوا أن يبعث الله من في القبور، استغربوا

(١) سورة المؤمنون: الآيتان: (٣٣، ٣٤).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات: (٣٥-٣٨).

أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تحوله إلى التراب، رغم أنه خلقه من قبل من التراب.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه

لم تكن دعوة هود (عليه السلام) مصحوبة بمعجزة ليراهم قومه فبدأ هؤلاء العُتاة مرحلة جديدة من الجدل والاستكبار فطلبوا من هود (عليه السلام) أن يأتيهم بمعجزة ليصدقوه وإلا فهم لن يتركوا آلهتهم لمجرد كلمات يسمعونها منه (عليه السلام).

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك، .. ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا: ﴿إِنْ

(١) سورة هود: الآية: (٥٣).

نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴿١﴾ أَى: مَا نَقُولُ إِلَّا أَصَابَكَ
بَعْضُ آلِهَتِنَا بِجُنُونٍ لَمَّا سَبَّيْتَهَا وَنَهَيْتَنَا عَنْ عِبَادَتِهَا. ﴿٢﴾
﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ أَى: قَالَ هُودٌ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ عَلَى
نَفْسِي ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ ﴿٣﴾ أَى:
وَأَشْهَدُكُمْ أَيْضًا أَيُّهَا الْقَوْمُ بِأَنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ فِي عِبَادَةِ
اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ أَى:
فَاحْتَالُوا فِي هَلَاكِي أَنْتُمْ وَآلِهَتُكُمْ ثُمَّ لَا تَمْهَلُونِي طَرْفَةَ عَيْنٍ.
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ (٣) أَى: إِنِّي لَجَأْتُ إِلَى
اللَّهِ وَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْهِ تَعَالَى مَالِكِي وَمَالِكُكُمْ ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ
إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (٤) أَى: مَا مِنْ نَسَمَةٍ تَدْبُ عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ إِلَّا هِيَ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ (جَلَّ وَعَلَا). ﴿٥﴾
﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥) أَى: إِنَّ رَبِّي عَادِلٌ، يَجَازِي
الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا ﴿فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ (٦) أَى: فَإِنْ تَعَرَّضُوا عَنْ

(١) سورة هود: الآية: (٥٤).

(٢) سورة هود: الآيتان: (٥٤، ٥٥).

(٣)، (٤)، (٥) سورة هود: الآية: (٥٦).

(٦) سورة هود: الآية: (٥٧).

قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾^(١) أي: فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم، . . . وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾^(٢) أي: لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾^(٣) أي: إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم^(٤).

وها هم يستعجلون العذاب

وظل هود (عليه السلام) يدعوهم إلى الله (عز وجل) بلا يأس ولا قنوط وظل ينصحهم ويحدوهم إلى التوبة مما هم فيه من الشرك والكفران ليدخلوا إلى جنة التوحيد والإيمان. ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر . . . وهكذا أخذت الملائكة العزة بالإثم، واستعجلوا العذاب: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرًا مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥).

(١)، (٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٥٧).

(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٢١).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٧٠).

* بل ويخبر الحق (جل وعلا) - فى آية أخرى - عن عتوهم وتكبرهم واستعجالهم العذاب فيقول: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (١).

- وهنا وصل هود (عليه السلام) مع هؤلاء العتاة إلى طريق مسدود فلقد حق عليهم العذاب وآن الأوان لكى يعرف الكون كله عاقبة هؤلاء الكافرين المكذبين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وحان وقت الهلاك

وجاءت اللحظة الحاسمة لإهلاك أمة من الأمم التى عنت عن أمر ربها واستكبرت وأبت أن تقبل الحق الذى جاء به نبيها من عند الحق (جل وعلا).

* قام هود يدعو ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢).

(١) سورة فصلت: الآية: (١٥).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات: (٣٩ - ٤١).

*** وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (١).**

وفي كلمتين اثنتين ينتهى الأمر؛ ويُطوى قوم عاد الجبارون؛ وتُطوى مصانعهم التى يتخذون، ويُطوى ما كانوا فيه من نعيم، من أنعام وبنين وجنات وعيون! (كلمة)

تفاصيل هلاكهم

لما رفض قوم عاد أن يتركوا عبادة الأصنام وأن يعبدوا الله (جل وعلا) بل وسخروا من نبي الله هود (عليه السلام) واستعجلوا نزول العذاب أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين وبدأ الجفاف يتشر فى الأرض فلم تعد السماء تُمطر قطرة واحدة.

فأسرع قوم عاد إلى هود (عليه السلام) ليسأله: ما هذا الجفاف؟! فأخبرهم أن الله قد غضب عليهم وسيُنزل عليهم العذاب إلا إذا تابوا وعادوا إلى الله وتركوا عبادة الأصنام .. فسخروا من هود (عليه السلام) وازدادوا عناداً وسخرية وكفراً.

*** وكان الجفاف يزداد يوماً بعد يوم حتى اصفرت الأشجار**

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٣٩).

الخضراء ومات الزرع وكاد الناس أن يهلكوا جميعاً. * وكان الناس قد تعودوا أنهم إذا حدث عندهم قحط وجذب فإنهم يذهبون إلى الحرم - بمكة - فيطلبوا الفرج من الله (جل وعلا) - فأرسلت عادٌ وفداً من سبعين رجلاً ليذهبوا إلى الحرم ويسألوا الله أن يرسل عليهم المطر حتى تعود الحياة مرة أخرى.

* وذهب الوفد إلى الحرم وكان العمالق مقيمين هناك وكان سيدهم اسمه معاوية بن بكر فتزلوا عنده شهراً كاملاً يشربون الخمر ويستمعون الغناء من جاريتين عند معاوية بن بكر. فلما طالت مدة إقامتهم عند معاوية أراد أن يخبر القوم بأنهم لابد أن يعودوا إلى قومهم حتى لا يموتوا من شدة الجذب. فكتب أبياتاً من الشعر ليفهموا من خلالها أنهم لا بد أن يرجعوا إلى قومهم وجعل الجاريتين تغنيان بعض الأبيات الشعرية.

* فعند ذلك تذكر الوفد أنهم لا بد أن يذهبوا الآن إلى الحرم ليسألوا الله أن يرسل عليهم المطر.

فقام واحد منهم اسمه (قيل بن عتر) فدعا فجاءت ثلاث سحباب: سحابة بيضاء وأخرى حمراء والثالثة سوداء.

ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك سحابة من هذا السحاب، فاختر السحابة السوداء ظناً منه أنها

أكثر السحاب ماءً. ^(٢٤) فناداه هذا المنادى وقال: لقد اخترت الدمار لقومك

فلن يبقى منهم أحد أبداً. ^(٢٥) وسارت السحابة السوداء إلى قوم عاد فلما رأوها

استبشروا أن يكون فيها الماء ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ

نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ^(١)، فلم تترك شيئاً أمامها إلا

دمرته. . وكانت أول من رأت هذا الدمار امرأة اسمها فهد

فلما رأت هذا الدمار صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا

لها: ماذا رأيت، قالت: رأيت ريحاً فيها شهب النار.

فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعات فلم تدع

أحداً من قوم عاد إلا أهلكته.



تغير الجو فجأة، من

الجفاف الشديد والحر إلى البرد

الشديد القارس، بدأت الرياح

(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

تهب، اهتز كل شيء، اهتزت وتزلزلت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام، واستمرت الريح، ليلة بعد ليلة، ويوماً بعد يوم، كل ساعة كانت برودتها تزداد، وبدأ قوم هود يفرون، أسرعوا إلى الخيام واختبؤوا داخلها، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام واختبؤوا تحت الأغطية، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية، كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره، لا تكاد الريح تمس شيئاً إلا قتلته ودمرته، وجعلته كالرميم. استمرت الرياح مُسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط، ثم توقفت الريح بإذن ربها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا



عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١).

وقال عز وجل: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (١٨)
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ
كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠).﴾

لم يعد باقياً من قوم هود إلا ما يبقى من النخل
الميت، مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى
يتطاير ذرات في الهواء (٣).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨).﴾

نجاة هود (عليه السلام) والمؤمنين
قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤ ، ٢٥).

(٢) سورة القمر: الآيات: (١٨ - ٢٠).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٦٩ ، ٧٠).

(٤) سورة الحاقة: الآيات: (٦ - ٨).

بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١١﴾ .
 لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجينا
 هوداً والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من
 العذاب العام النازل بالقوم، واستثنتهم من أن يصيبهم
 بسوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلّ بالمكذبين .
 ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ
 جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا
 كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ﴿٢﴾ .
 * وهكذا تكون العاقبة الطيبة دوماً للمؤمنين . . .
 ويكون الدمار والهلاك للمجرمين والكافرين الذين
 يكفرون برب العالمين (جل وعلا) .
 * وهكذا طويت صفحة من صفحات الأمم الكافرة
 فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ونصر عباده المؤمنين ونجاهم
 من العذاب الذي سلطه على تلك الأمة العاتية ﴿وَاللَّهُ
 غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

(١) سورة هود: الآية: (٥٨) .

(٢) سورة هود: الآيتان: (٥٩ ، ٦٠) .

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢١) .

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن الناس قد يستغنوا عن الطعام والشراب لمدة أيام لكن الواحد منهم لا يستغنى عن الله طرفة عين ولذلك أرسل الله الرسل والأنبياء للناس ليأخذوا بأيديهم إلى الله (جل وعلا) . . ولما كان النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء فقد جعل الله ورثة الأنبياء من الدعاة والعلماء هم الذين يحملون مشعل الهداية إلى الناس بعد موت النبي محمد ﷺ .

(٢) أن الإنسان قد يصيبه الكبر والغرور بسبب الترف والثروة والصحة . . وهي كلها من نعم الله عليه فكان ينبغي أن يقابلها بالشكر وليس بالكبر والبطر .

(٣) أن ميزان الرجولة الحقيقية هو الإيمان والتقوى والعلم والفهم وليس ميزان الرجولة بالقوة والثروة والمكانة الاجتماعية .

(٤) أن المسلم لا ينبغي أن يغضب لنفسه وإنما يغضب لله (جل وعلا) فقد رأينا كيف أن قوم عاد لما قالوا لهود: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(١) قال لهم: ﴿ يَا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٦)

قَوْمَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ ولم يرد عليهم بكلمة بذئثة لأنه نبي كريم (عليه السلام).

(٥) التوحيد هو القضية الأولى التي جاء بها كل الرسل والأنبياء.

(٦) أن الاستغفار له ثمرات عظيمة فهو سبب مغفرة الذنوب وسبب لفتح أبواب البركة في السماء والأرض ولذلك دعا هود قومه لأن يتوبوا ويستغفروا.

(٧) الداعية لا ييأس إذا لم تنجح دعوته من أول جولة بل عليه أن يعيد الدعوة مرة بعد مرة عسى الله أن يفتح بكلامه قلوباً مغلقة فتعود إلى خالقها وبارئها (جل وعلا).

(٨) أن من توكل على الله فهو حسبه وهو ناصره . . فقد رأينا كيف أن نبي الله هود (عليه السلام) وقف وحده أمام أمة عاتية متجبرة ولم يخف منهم لأنه توكل على الله (جل وعلا) وهو على يقين من أن الله سينصره عليهم لا محالة.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٧).

(٩) أن الإنسان قد يقول كلمة تجلب له غضب الله وسخطه وعذابه.

وقد رأينا كيف أن قوم عاد هم الذين طلبوا العذاب واستعجلوه فجاءهم فلم يُبق منهم أحداً. (١٠) عاقبة الذنوب وخيمة، وآثارها مؤلمة عظيمة، والله يُمهّل ولا يهمل، فإذا عذب فإنه عزيز ذو انتقام، سريع الحساب، شديد العقاب، وإذا رحم كانت رحمته خيراً من كل شيء.

(١١) أن الله ينجي أوليائه ويحفظهم من كل مكروه ولا يكلهم أبداً لأعدائهم.

(١٢) أن من كفر برسول واحد فقد كفر بكل الرسل.. فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾^(١) مع أنهم عصوا نبي الله هود (عليه السلام) ولكن من كفر برسول فقد كفر بكل الرسل لأن رسالتهم واحدة.

(١) سورة هود: الآية: (٥٩).

قصة صالح (عليه السلام)

* لقد أهلك الله (عز وجل) قوم عاد لما كفروا بربهم ثم جاءت أمة أخرى من بعد (عاد) - وهم قوم ثمود - ولكنهم ما جاءوا ليعتبروا بهلاك الأمم من قبلهم فيؤمنوا بالله (عز وجل) وإنما جاءوا ليستكملوا مسيرة الكفر والشرك التي بدأها قوم نوح (عليه السلام) ووقع فيها قوم عاد فأهلكهم الله بذنوبهم ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١).

* وقوم ثمود هم قوم نبي الله صالح (عليه السلام).
* وكانوا يسكنون في منطقة تُسمى (الحجر) في شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وتبوك.

* وكان قوم ثمود قد أنعم الله عليهم بالخيرات والنعم الكثيرة فكانوا يعيشون في مكان يظللّه النخيل والأشجار وتنتشر فيه الكثير من العيون والمياه العذبة فكانوا في سعادة ونعيم حتى أنهم كانوا يقيمون القصور الفخمة في السهول.. ولم يكتفوا بذلك بل نحتوا البيوت الفارهة في الجبال.

وكانوا يستطيعون أن يعيشوا في سعادة غامرة ونعيم لا

(١) سورة الكهف: الآية: (٤٩).

يزول لولا أنهم كفروا بنعمة الله (جل وعلا) وصلوا الطريق وعبدوا الأصنام من دون الله (جل وعلا).

نبي الله صالح (عليه السلام)

يدعوهم إلى التوحيد

لقد كان قوم ثمود يعيشون في رخاء ونعيم لا يعلمه إلا الله (جل وعلا) فيها أنت وكأنك تراهم قد فجروا العيون، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشادوا القصور، ونحتوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من العيش ورغد، ونعمة وترف، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يحمدوا له فضله؛ بل زادوا عُتَوْاً في الأرض وفساداً، وبعُدًا عن الحق واستكباراً، وعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السعة متروكون.

بعث الله إليهم صالحاً من أشرفهم نسباً، وأوسعهم حلماً، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضهم على توحيده،... فهو الذي خلقهم من تراب؛ وعمر

بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه^(١)،
ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام فهي لا تملك
لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا تغنى عنهم من الله شيئاً^(٢).

* وبدأ يذكرهم بأن هذا النعيم لا يدوم لأحد فإن
الدنيا قنطرة يعبر عليها العبد إلى آخرته ولذلك قال لهم
صالح (عليه السلام): ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ (١٤٦) فِي
جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَحُّتُونَ مِنَ
الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ
الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٣).

فلما قام صالح (عليه السلام) وذكرهم بنعم الله (عز
وجل) عليهم وأمرهم أن يتوجهوا بالعبادة لفاطر السماوات
والأرض كانت النتيجة أنهم تعجبوا أن يأتيهم رجل
فيطلب منهم أن يتركوا دين الآباء والأجداد.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(٤).

(١) أسبغ عليهم نعمه: أتمها، وأكملها.

(٢) فصوص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ٥٦، ٥٧) بتصرف.

(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٤٦ - ١٥٢).

(٤) سورة هود: الآية: (٦٢).

لقد كان لنا رجاء فيك . كنت مرجوًا فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك ، **﴿يَا صَالِحُ﴾** أنتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟! . . كل شيء نقبله منك إلا هذا يا صالح . . ما كنا نتوقع أبدًا أن تعيب آلهتنا التي كان يعبدها الآباء والأجداد . **﴿يَا صَالِحُ﴾** إن أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه ، فصالح عليه السلام كان محبوبًا عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك . . كما قال تعالى - حكاية عنهم : **﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ﴾** ^(١) ثم تغير الحال بعد دعوته إياهم حتى صار من أبغض الناس إليهم مع أنه تَلَطَّفَ معهم في الدعوة وصبر عليهم .

صالح (عليه السلام) يستمر في دعوتهم

واستمر نبي الله صالح (عليه السلام) في دعوة قوم ثمود ولم ييأس من هدايتهم . . وبالفعل آمن معه عدد قليل من الضعفاء ولكن أكثر الناس أصروا على كفرهم بالله (جل

(١) سورة هود: الآية: (٦٢) .

وعلا) ولم يكتفوا بذلك بل اتهموا نبي الله صالحاً (عليه السلام) بالسحر والجنون ومع ذلك لم يلتفت لتلك الاتهامات بل استمر في دعوته رجاء أن يهديهم الله على يديه.

وها هم يطلبون الآيات

فلما وجدوا أنفسهم لا يملكون أى حجة أمام الحُجج الساطعة والكلمات الناصعة التى تخرج من فم صالح (عليه السلام) والتى تدعوهم إلى توحيد الباري (جل وعلا) .. وإذا بهم يطلبون منه الآيات ظناً منهم أنه سيعجز عن أن يأتيهم بآية من عند ربه (عز وجل).
﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١)﴾.

وإذا به يجيبهم إجابة الواثق فى موعود ربه (عز وجل) ويقول لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢)﴾.

* وإذا بالحق (جل وعلا) يجيب دعاء صالح (عليه السلام)

(١) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٣، ١٥٤).

(٢) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

ويقول: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (٢٧) وَنَبِّهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ^(١).
 * لقد كان في إجابة الحق (جل وعلا) لطلبهم هذا اختبار لهم حتى لا يكون لهم أى عذر أمام الله يوم القيامة.

معجزة تبهر العقول

* وقد ذكر المفسرون: أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديتهم^(٢) فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقةً، من صفتها كيت وكيت. وذكروا أوصافاً سموها ووصفوها وأن تكون عُشراء طويلة^(٣)، ومن صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: رأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت

(١) سورة القمر: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) ناديتهم: مكان اجتماعهم وسُمى بذلك لنداء الناس فيه على بعض... انظر لسان العرب ج ٦/ ٤٣٨٩ «ندى» دار المعارف.

(٣) يعنى: حامل في الشهر العاشر وعلى وشك الولادة.

به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهدهم ومواريقهم على ذلك .
ثم قام إلى مُصلاه فصلى لله عز وجل ما قُدِّر له، ثم
دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز
وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشراء، على
الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.
فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً،
وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً، فأمن كثير منهم،
واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم^(١).

ناقة مباركة

وظلت هذه الناقة تعيش بينهم زماناً في أمانٍ وذلك
لأن صالحاً (عليه السلام) حذرهم من أن يمسوها
بسوء فيحل عليهم عذاب
الله وسخطه.



(١) تفسير الطبري (٨/١٥٨، ١٥٩).

وأخبرهم بأن هذه الناقة ستشرب من الماء يوماً وهم يشربون يوماً . ففي اليوم الذي يشربون فيه تمتنع الناقة عن الماء وفي اليوم الذي تشرب فيه الناقة يمتنعون عن الماء ويحلبون لبن الناقة الذي كان يكفيهم أجمعين .

قال صالح (عليه السلام): ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١) ﴾ فحذرهم نعمة الله عليهم إن أصابوا الناقة بسوء . فمكثت الناقة بينهم حيناً من الدهر تشرب من الماء هي وفصيلها (ابنها) وتأكل الورق والمرعى ويتفعلون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم .

وعقروا الناقة



فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوافر عليهم

(١) سورة الشعراء: الآيةان: (١٥٥، ١٥٦).

ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم...
قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم: قَدَّار بن سالف.

*** وها هي قصة قتل الناقة:**

كان صنيم بن هراوة قد تزوج بامرأة غنية اسمها صدوق، فلما آمن كان يستخدم ماله فى الإنفاق على نبي الله صالح والمؤمنين، فعاتبته صدوق لأنها كانت كافرة. ثم أخذت أولادها فخبأتهم عند أبناء عمها، فقال صنيم: رُدِّي على أولادى. فرفضت، فتحاكما إلى أبناء عمه وكانوا مؤمنين فردوا عليه أولاده.

فازدادت صدوق كراهية لصالح عليه السلام الذى أنفق زوجها المال عليه، وآمن به، وفرق بينها وبين أولادها. وكان لها صديقة اسمها عنيزة بنت غنيم، وكانت كافرة هي الأخرى وكان لها غنمٌ تخرج لترعى، فإذا رأت الغنم ناقة صالح هربت من أمامها، ولا تجدد الأغنام ماءً تشربه، فاغتاظت عنيزة. وجمع بينها وبين صدوق كراهية صالح والمؤمنين معه

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٧).

واتفقتا على قتل الناقة .
وكُلما عرضتا المال على رجل ليقتل الناقة يرفض لأنه
رأى أن في هذا عمل فظيع فهي ليست ناقة عادية، وإنما
هي آيةٌ من عند الله .
ولكن رجلاً واحداً هو مُصرعُ بن مهرج كان يحب
صدوقاً ويريدها لنفسه، فوافق على قتل هذه الناقة، ثم
خرج يبحث له عن أعوان لارتكاب هذه الجريمة الفظيعة،
فوافق صديقه قدار بن سالف وكان عزيزاً في قومه .
ثم انطلقا حتى صار عدد عصاباتهم تسعة رجال يُفسدون في
الأرض ولا يُصلحون، وتزعّمهم قدار بن سالف أشقى القوم (١) .



* انطلق هؤلاء الرجال
التسعة الأشرار في تلك
المهمة التي ستجلب عليهم
غضب الله وسخطه
وعذابه . . ذهبوا ليقتلوا
الناقة .

(١) قصص الأنبياء للأطفال/ حامد أحمد (ص: ١٣٩ - ١٤٢) باختصار.

بحثوا عنها حتى وجدوها قادمة من البشر فقام أحدهم وهو
قدار بن سالف فرماها بسهم فأصاب ساقها فخرت ساقطة
على الأرض وأصدرت صوتاً لولدها لتحذره ليهرب من هؤلاء
المجرمين . . ثم قام الرجل وطعنها ثم ذبحها وسالت دماء
الناقة على الأرض فلما رآها ولدها هرب إلى أعلى الجبل .

وحان وقت الهلاك

ولما علم نبي الله صالح (عليه السلام) بما حدث خرج
غاضباً على قومه وقال لهم: ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة
بسوء؟ فانتظروا العذاب الذي سيأتيكم من عند الله (جل وعلا).
* ومع ذلك سخرُوا منه وظنوا أنه يستهزئ بهم أو أنه
يهدهم ولم يصدقوا أن العذاب سيحيط بهم من كل
جانب فقالوا له في سخرية: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) فقال لهم صالح (عليه السلام): ﴿تَمَتَّعُوا
فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٧).

(٢) سورة هود: الآية: (٦٥).

كيف نزل العذاب على الكافرين

* لقد وعدهم صالح (عليه السلام) أن ينزل بهم العذاب بعد ثلاثة أيام . . وكانوا قد قتلوا الناقة يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام المهلة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة . فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياداً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، . . . وأشرقت الشمس .

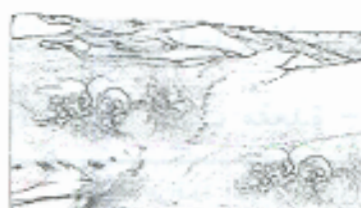
فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾^(١) صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى إلا جارية كانت مقعدة - واسمها: كلبة ابنة السلق . ويقال

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٨) .

لها: الزريقة. وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كاسرع شيء، فأتت حيا من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم طلبت منهم شربة ماء فلما شربت ماتت^(١).

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاوَىٰ فَعَقَرَ﴾^(٣) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ^(٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ^(٥).

* أما الذين آمنوا بسيدنا صالح، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا،... قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ^(٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ^(٨).



(١) قصص الأنبياء (ص: ١٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٧٨).

(٣) سورة القمر: الآيات: (٢٩ - ٣١).

(٤) سورة هود: الآيات: (٦٦ - ٦٨).

وها هو (عليه السلام)

يخاطبهم بعد هلاكهم

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (١).
فها هو صالح (عليه السلام) يخاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنتي، وحرصت على ذلك بقولي وفعلی ونيتي. ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم.

النبي ﷺ يمر بديار ثمود

عن ابن عمر قال: لما نزل الرسول ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس

(١) سورة الاعراف: الآية: (٧٩).

من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»^(١).

* وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم لا بد أن يعتبر بما حدث لمن قبله فيكون ذلك سبباً لاستقامته على أمر الله (جل وعلا) . . . فقد رأينا كيف أن قوم ثمود لم يعتبروا بما حدث لقوم عاد فهلكوا كما هلك قوم عاد.

(٢) أن الشكر يجلب المزيد . . فلو شكر قوم ثمود

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٣، ٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) صحيح: انظر السابق.

ربهم (جل وعلا) على نعمه التي أنعم بها عليهم لكان ذلك سبباً لسعادتهم ولكنهم كفروا بالله وجحدوا نعمه فاستحقوا العذاب.

(٣) أن أكثر الأمم الكافرة رفضت قبول الحق لأنهم كانوا يتمسكون بدين الآباء والأجداد ولو كانوا على الشرك والكفر . . . أما المسلم فلا يتبع إلا رجلاً واحداً وهو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ .

(٤) أن أعداء الدين إذا لم يجدوا عندهم حجة يردون بها على أهل الحق لجأوا إلى الاتهامات الساذجة الكاذبة .

(٥) أن الله (عز وجل) يؤيد رسله بالمعجزات ليشبتهم ويكبت أعداءهم .

(٦) أن الدالَّ على الخير كفاعله . . وكذلك الدال على الشر كفاعله، فمن دلهم على قتل الناقة ومن رضى بقتلها مشارك لهم فى الجريمة .

(٧) أن العاقبة دائماً تكون لأهل الإيمان والتقوى . .

فقد نجى الله أهل الإيمان وأهلك أهل الشرك والكفران .



قصة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)

لقد وُلد سيدنا إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) في بلد اسمها بابل بين دجلة والفرات بالعراق . . وكان يحكم هذا البلد ملك ظالم متكبر اسمه النمرود بن كنعان . . وكان أهل هذا البلد ينحتون الأصنام ويعبدونها من دون الله (جل وعلا) . ومع أن هؤلاء الناس كانوا يعبدون الأصنام إلا أن الأعجب من ذلك أن ملكهم النمرود بن كنعان كان يدعى أنه إله وكان يطلب من قومه أن يعبدوه من دون الله . * في هذه البيئة الفاسدة وُلد خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) .

* وكان والد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يعمل نجاراً وكان ممن يصنعون الأصنام ويعبدونها من دون الله (جل وعلا) . . وكان اسمه آزر .

* ومع أن والد سيدنا إبراهيم كان يصنع الأصنام ويعبدها هو وقومه إلا أن إبراهيم (عليه السلام) كان لا يشاركهم في

هذا الضلال بل كان يرفض ذلك بشدة لأنه على يقين من أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تُحيى ولا تُميت ولا ترزق ولا تمنع الرزق .. إنما هي حجارة لا قيمة لها.

خليل الرحمن .. صاحب الفطرة النقية

ومرت الأيام .. وما زال إبراهيم (عليه السلام) ينظر إلى أبيه وقومه وهم يعبدون الأصنام ويتعجب ويقول في نفسه: كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصنع تلك التماثيل والأصنام بيديه ثم يذهب ويعبدها من دون الله (جل وعلا) .. إنها تماثيل لا تنفع ولا تضر ولا تأكل ولا تشرب ولو أراد أحد أن يكسرها لم تستطع أن تدافع عن نفسها.

* وبدأت نبوة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وهو في بابل .. وكان قد تزوج قبلها بامرأة تُسمى سارة وكانت عقيمًا لا تلد.

المهم أن الله ابتعثه بالرسالة وهو في بابل، فقام بالواجب الذي أمره الله به خير قيام، وصبر على الأذى والابتلاء، وقابل التهديد والوعيد بعزيمة أشد رسوخًا من الجبال .. وعندما تأكد من إعراض قومه عن دعوته هاجر

فى أرض الله الواسعة يبذر بذور الإيمان فى كل أرض
تطأها قدماءه، فاستحق بصبره ودأبه أن يكون أباً للأنبياء،
وإماماً للأتقياء، وقدوة للموحدين الأمناء.

ونظراً لأهمية الدور الذى قام به إبراهيم عليه السلام فقد
ذكرت قصته فى خمس وعشرين سورة وفى ثلاث وستين
آية من القرآن الكريم، كما ارتبطت سيرته عليه السلام
بسيرة ابن أخيه لوط عليه السلام، وبسيرة ولديه إسماعيل
وإسحاق عليهما السلام، بل ارتبطت سيرته بسيرة كل من
جاء بعده من الأنبياء لأنهم من نسله وذريته، وكان مسك
الختم سيد ولد آدم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام^(١).

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه

كان آزر يعبد الأصنام، بل كان ينحتها ويبيعها، ...
وشر الأمور أن يعتقد الإنسان عقيدة باطلة، ثم تكون -
هذه العقيدة - مورد رزقه، ومحطّ أمله وغاية سعيه.
وبديهي أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين لأنه أقرب
الناس إليه، وأولاهم بالهداية، وقد أمر الله تعالى

(١) منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله (ص: ٩١ ، ٩٢) باختصار.

المصطفى ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين، وكذلك كان منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة.

* لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصم آذانه عنه، أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتب الكلام معه على أحسن اتساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوته، ليستثير عطفه، ويمس شغاف قلبه.

* والحديث عن دعوة إبراهيم لأبيه آزر جاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. تنكر ابتداءً أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة، فالإله الذي يُعبد، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء، والذي خلق الناس والأحياء.. هذا الإله في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر، أو وثناً من خشب^(٢).

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧٤).

(٢) الظلال (٢/ ١١٣٨).

دعوة كلها رحمة

وإني لأرجو من كل قارئ أن يقرأ الآيات الكريمة التي يحكى الله فيها نصح الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه بأسلوب عذب رقيق تبدأ كل جملة فيه بكلمة «يا أبت» المشعرة بالتلطف والرقّة وغاية الاحترام، حتى إذا أخذت أباه عزة الكفر وحميته وهدد إبراهيم بالرجم إن عاد إلى النصيحة مرة أخرى وطلب منه أن يهجره، ما كان من الخليل (عليه السلام) إلا أن ردّ ردّاً جميلاً غاية في العذوبة والرقّة والرحمة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ (١) هكذا الأدب الذي لا يسمو إليه غير المخلصين (٢).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ

(١) سورة مريم: الآية: (٤٧).

(٢) السلوك الاجتماعي في الإسلام / الشيخ حسن أبو ب (ص ٢٢٦، ٢٢٧).

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿١﴾ .
 ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٢) .
 يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يذكر خليل الرحمن إبراهيم الذي استحق من فرط صدقه أن يسميه الله ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ، ووصفه بالصدق سبق وصفه بالنبوة .
 لقد كان إبراهيم صادقاً مع قومه قبل النبوة ، كما كان صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة وفي استسلامه وانقياده لأوامر ربه .
 - ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ : استهل خليل الرحمن حوارَه مع أبيه بقوله : ﴿يَا أَبَتِ﴾ : وهي من أقوى الروابط وأوثقها .
 «... ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه ، حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ثائر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف» .
قال له في أدب: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٣) .

(١) سورة مريم: الآيات: (٤١ - ٤٧) .

(٢) سورة مريم: الآية: (٤١) .

(٣) سورة مريم: الآية: (٤٢) .



كيف تعبد يا أبت إلها لا
يسمك إذا ناديت، ولا يصرك
إذا اقتربت منه أو أدبرت عنه،
ولا يجلب لك نفعا أو يدفع
عنك مكروها؟ .. وهذه صورة
من صور كثيرة كان إبراهيم

عليه السلام يبين لأبيه من خلالها عجز الأصنام التي يعبدونها،
ويدعوه إلى التفكير والاستفادة من نعمة العقل.

* هذه هي اللمسة الأولى التي يبدأ بها إبراهيم دعوته
لأبيه. ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم
الذي جاءه من الله فهداه. ولو أنه أصغر من أبيه سناً
وأقل تجربة، ولكن المدد العلوي جعله يفقه ويعرف الحق،
فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم، ليتبعه في الطريق
الذي هدى إليه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (١).

فليست هناك غضاضة في أن يتبع الوالد ولده، إذا كان

(١) سورة مريم: الآية: (٤٣).

الولد على اتصال بمصدر أعلى. فإنما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدى^(١).

* لم يبدأ إبراهيم حوارَه مع أبيه بالحديث عن غزارة علمه، وقوة حجته، وشدة ذكائه، كما أنه لم يصف أباه بالجهل، ولو قال هذا وذاك لكان صادقًا، وإنما قال له - وهو الصادق الأمين عنده - يا أبت لقد خصني الله بفضلٍ منه فاستمع لهذا الأمر الجديد واستجب لدعوة الحق تكن من الفائزين في الدارين وحذار يا أبت أن تستمر على ما أنت عليه فتكن بذلك عبدًا للشيطان، ولن تجتمع عبادة الرحمن وعبادة الشيطان في قلب مؤمن^(٢).

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾^(٣) أي: لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(٤) أي: إن الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١١).

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص: ٩٥).

(٣)، (٤) سورة مريم: الآية: (٤٤).

لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١﴾ تحذير من سوء العاقبة . . . والمعنى:
أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم
وتكون قريباً للشيطان بالخلود في النيران.

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ (٢).

أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، وكاره لعبادتها
ومُعَرَض عنها؟ أو بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من
الجرأة؟! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت
على هذا الموقف الشنيع: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾! فاغرب
عن وجهي وابعد عني طويلاً. استبقاء لحياتك إن كنت
تريد النجاة: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ . .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة
قابل القول المؤدب المذهب. وذلك شأن الإيمان مع الكفر،
وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم. ولم يفقد بره وعطفه
وأدبه مع أبيه:

(١) سورة مريم: الآية: (٤٥).

(٢) سورة مريم: الآية: (٤٦).

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١).

* سلام عليك . . فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد. سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدى. وقد عودني ربى أن يكرمى فيجيب دعائى. وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة. وأدعو ربى وحده، راجياً - بسبب دعائى لله - ألا يجعلنى شقياً (٢).

الاعتزال وثمرته

اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، كما اعتزل ما يدعون من دون الله من أصنام وأوثان، فكان لا يشاطرهم فى أفراحهم القومية، ولا يتهج فى أعيادهم وندواتهم،

(١) سورة مريم: الأيتان: (٤٧، ٤٨).

(٢) فى ظلال القرآن (٤ / ٢٣١٢).

ولا يذكر آلهتهم إلا بالنقد والتجريح . . ومع ذلك كان باراً بأبيه حريصاً على هدايته .

إبراهيم (عليه السلام)

يتبرأ من أبيه وقومه

لقد بذل إبراهيم (عليه السلام) كل ما يستطيع من أجل هداية أبيه وقومه . . ولكنه لما تيقن من أنه لا يريد الهداية تبرأ منه في التو واللحظة .

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكان في بداية دعوته له، وكان لا ينتظر منه الإصرار على الشرك، وإنما كان يرجو له الهداية . قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

دعوة إبراهيم (عليه السلام)

لقومه عبادة الأصنام

* فهذا هو يدعو قومه لنبد عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٤).

تضرر... وها هو يدعوهم لإقامة التوحيد لفاطر السماوات والأرض الذى يملك النفع والضرر ويده مقاليد الأمور.

*** قال تعالى:** ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) هذه بداية قصة

إبراهيم أى: اقصص عليهم يا محمد خبر (إبراهيم) ﴿إِذْ

قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٢) أى: حين قال لأبيه وعشيرته

أى شئ تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام

ليبين لهم سفاهة عقولهم فى عبادة ما لا ينفع، ويقيم

عليهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيِينَ﴾^(٣) أى: نعبد

أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك

على سبيل الابتهاج والافتخار، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ

تَدْعُونَ﴾^(٤) أى: قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت

والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم

بالدعاء: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾^(٥) أى: وهل يبذلون لكم

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٧٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٧١).

(٤) سورة الشعراء: الآية: (٧٢).

(٥) سورة الشعراء: الآية: (٧٣).

منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١) أى: وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾^(٢)

أى: قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله أنتم وأبائكم الأولون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىَ إِلَّا رَبَّ

الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أى: فإن هذه الأصنام أعداء لى لا أعبدهم،

ولكن أعبد الله رب العالمين فهو ولى فى الدنيا والآخرة،

﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(٤) أى: الذى خلقنى هو الذى

يهدينى إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿وَالَّذِى هُوَ

يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾^(٥) أى: هو تعالى الذى يرزقنى الطعام

والشراب فهو الخالق الرازق الذى أنزل المطر، وأخرج به

أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٦) أى:

وإذا أصابنى المرض فإنه لا يقدر على شفاى أحد غيره.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٧٤).

(٢) سورة الشعراء: الآيتان: (٧٥، ٧٦).

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٧٧).

(٤) سورة الشعراء: الآية: (٧٨).

(٥) سورة الشعراء: الآية: (٧٩).

(٦) سورة الشعراء: الآية: (٨٠).

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ (١) أى: وهو تعالى المحيى المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتنى إذا شاء ثم يحيينى إذا أراد بعد مماتى ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢) أى: أرجو من واسع رحمته أن يغفر لى ذنبنى يوم الحساب والجزاء حيث يُجازى العباد بأعمالهم. وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرؤا بخطاياهم. * ولا يظن أحد أن إبراهيم (عليه السلام) دعا قومه مرة واحدة بل استمر فى دعوتهم ومحاورتهم مرات ومرات ومع ذلك لم يستجيبوا. فلما يئس منهم توعدهم بأن يكسر أصنامهم فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (٣). - أى: سأكسر تلك الأصنام التى تزعمون أنها آلهة لأريكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٨١).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٨٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).

وها هو (عليه السلام) يحطم أصنامهم

كان من عادة هؤلاء القوم أن يقيموا احتفالاً سنوياً ضخماً بمناسبة أحد أعيادهم . يقضون أيامه خارج المدينة . وكان كل أهل المدينة يخرجون إليه بعد أن يضعوا طعاماً كثيراً في المعبد الذى فيه الأصنام التى يعبدونها حتى إذا رجعوا أكلوا هذا الطعام فقد باركته الآلهة - كما زعموا - !!!

ولما أرادوا الذهاب إلى عيدهم طلبوا من سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن يذهب معهم ليشاركهم فى هذا العيد فرفض أن يذهب معهم وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾^(١) أى: مريض . . حتى لا يذهب معهم .

وذهب أهل المدينة لهذا الاحتفال وأصبحت المدينة خالية، واستقر هو فى بلدهم ﴿رَاغٍ إِلَى آلِهِتِهِمْ﴾^(٢) أى: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً، فوجدها فى مكان كبير، وقد وضعوا بين أيديهم أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها . فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣) ما لكم لا

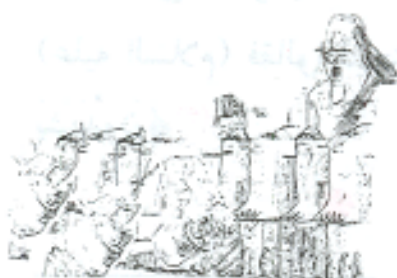
(١) سورة الصافات: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الصافات: الآية: (٩١).

تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (١) لَأَنهَا أَقْوَى وَأَبْطَشُ وَأَسْرَعُ وَأَقْهَرُ، فَكَسَرَهَا بِقَدُومِ فِي يَدِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاذًا﴾ (٢) أَيْ: حُطَامًا، كَسَرَهَا كُلَّهَا ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ نَعْلُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٣) قِيلَ: إِنَّهُ وَضَعَ الْقَدُومَ فِي يَدِ الْكَبِيرِ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ غَارَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الصَّغَارُ (٤).

* لَقَدْ كَانَ هَذَا الصَّنَمُ هُوَ أَكْبَرُ أَصْنَامِهِمْ حَجْمًا وَأَعْظَمُهُمْ قَدْرًا عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ .. فَوَضَعَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الْقَدُومَ فِي يَدِهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ يَتَمَنَّى أَنْ يَرَى أَهْلَ الْمَدِينَةِ هَذَا الْمَشْهَدَ لِيَعْلَمُوا يَقِينًا أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ بَلْ وَلَا تَسْتَطِيعُ حَتَّى أَنْ تَدَافِعَ عَنْ نَفْسِهَا.

عادوا فرأوا المفاجأة



وبعد يوم طويل من الاحتفال بيوم عيدهم .. عاد هؤلاء القوم وأسرعوا إلى

(١) سورة الصافات: الآيات: (٩١، ٩٣).

(٢)، (٣) سورة الأنبياء: الآية: (٥٨).

(٤) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ١٦٩).

المعبد ليأكلوا الطعام الذي باركته الآلهة - كما زعموا -
وإذا بهم يرون المفاجأة التي لم تخطر على بالهم .
لقد وجدوا الأصنام مُحطمة قطعاً صغيرة ومع ذلك لم
يفهموا أن هذه الأصنام لا تستطيع حتى أن تدافع عن
نفسها فكيف تصلح أن تكون آلهة!!

*** قاموا فقالوا وهم في شدة الغضب:** ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا
بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

ثم تذكروا أن إبراهيم (عليه السلام) هو الذي توعدَّ
أصنامهم فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَنُيْذِرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢)
أى: سمعناه يتكلم عن هذه الأصنام ويعيبها ويتوعدّها.

*** وفي التو واللحظة صدر الأمر بإحضار إبراهيم**
(عليه السلام) فقالوا للجنود: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ﴾ (٣).



(١) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦١).

فرصة عظيمة لإقامة الحجة عليهم

* لقد صدر الأمر بإحضار إبراهيم (عليه السلام):
﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْنِ النَّاسَ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (١).

وكانت هذه فرصة ذهبية لإبراهيم (عليه السلام) . .
وذلك بأن يجتمع الناس جميعاً ليقيم عليهم الحجة ويوضح
لهم ضلالهم في عبادة تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.
* وأحضر الجنود سيدنا إبراهيم (عليه السلام) إلى
المعبد وقالوا له في غضب وانفعال: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ
يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢).

يا الله . . إنهم ما زالوا يصرون أن تلك الأصنام
آلهة . . حتى وهم يرونها محطمة أمام أعينهم.

* فأشار إبراهيم (عليه السلام) إلى الصنم الكبير الذي
تركه ولم يحطمه بل وضع عليه الفأس . . وقال لهم:
﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٣)، وهنا

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦٣).

أخذوا يفكرون: لقد تحطمت الآلهة ومع ذلك لم يستطع كبيرهم هذا أن يدافع عنهم ولا حتى عن نفسه .. إذا فهي حجارة لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر .. فكيف يعبدونها؟ .. لقد ظلموا أنفسهم بعبادة هذه الأصنام ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) لقد اعترفوا فيما بينهم لما ألقى إبراهيم (عليه السلام) عليهم الحجة والبرهان ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى الضلال مرة أخرى واستكبروا أن يكون إبراهيم صادقاً فيما يقول ويرى الناس أنهم قد أخطأوا فعادوا مرة أخرى يتكلمون بكل إصرار وعناد وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٢) أى: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟! فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(٣) أف لكم ولما تعبدون من دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٤)

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٥).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان: (٦٦، ٦٧).

(٤) قصص الانبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ١٧٠).

ذهبت حجتهم لجأوا إلى القوة والسلطان

لما انقطعت حجتهم وأحسوا بعجزهم وضعفهم عن مواجهة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لجؤوا إلى العنف واستعمال القوة والبطش لينصروا ما هم عليه من سفهم وطغيانهم.

اعترف قوم إبراهيم في ذلك اليوم العصيب بأنهم ظالمون، لأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تسمع، وهذه أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها، غير أن صحوه ضمائرهم لم تستمر إلا لحظات، ثم انتصر صوت الشيطان في نفوسهم، وأصروا على كفرهم، وأصدروا قرارهم الجائر .. ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١).

وهذا هو سلاح أهل الباطل الذي يلجؤون إليه في مواجهة أنبياء الله ورسله وحملة الإسلام في كل عصر.

خليل الرحمن يلقي في النيران

أجمع قوم إبراهيم على قتل نبيهم انتصاراً لآلهتهم،

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٨).

واختاروا له أفضع قتلة، وهى: الإحراق فى النار، وليس فى أى نار، بل بنوا بنياناً شاهقاً، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم فى جمعها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (١)(٢).

* لقد انتشر هذا الخبر فى المملكة كلها وجاء الناس من المدن والقرى والجبال ليشاهدوا مشهد إلقاء خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) فى النار.

* وبدأ القوم فى جمع الحطب من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لثن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم حفروا حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط.



ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق (٣)

(١) سورة الصافات: الآية: (٩٧).

(٢) فتح البارى (٢٠٦/٧).

(٣) منجنيق: آلة تُرمى بها الحجارة فى الحرب.

صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة^(١)... وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله: أراد وضع إبراهيم عليه السلام في المجنيق، ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخسف به إلى أسفل جزاءً وفاً.

سبحان من لا ينطق

ومن يتوكل على الله فهو حسبه

في تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخاً من الجبال وكان ثقته بنصر الله وتأييده أقوى من الأرض ومن عليها ولهذا لم يهتم بتلك الحشود والجماهير ولم يخف من نيرانهم الملتهبة...
* لقد وضعوا إبراهيم (عليه السلام) في المجنيق بعد أن قيدوا يديه ورجليه واشتعلت النار في الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء... وكان الناس في هذه اللحظة يقفون بعيداً عن تلك الحفرة لشدة اللهب الذي يخرج منها.
* وهنا أصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم في

(١) قصص الأنبياء (ص: ١٧١).

النار، فجاء جبريل (عليه السلام) ووقف عند رأس إبراهيم (عليه السلام) وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال إبراهيم (عليه السلام): أما إليك فلا...
وأما إلى ربي فحسبى الله ونعم الوكيل.



قلنا يا نار كونى

برداً وسلاماً على إبراهيم

وانطلق المنجنيق ليلقى إبراهيم (عليه السلام) فى حفرة النار.

ووقع إبراهيم (عليه السلام) فى النار... وفى تلك اللحظة كان خازن المطر يقول: متى يأمرنى الله بأن أرسل المطر ليطفئ تلك النار فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾^(١).

فقد جاء الأمر من الله (عز وجل) لتلك النار ألا تحرق خليله إبراهيم وأن تكون عليه برداً وسلاماً.
فأطاعت النار أمر ربها فكانت برداً وسلاماً على

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٩).

إبراهيم (عليه السلام) فأحرقت القيود فقط .. وجلس إبراهيم (عليه السلام) فى وسط النار وكأنه يجلس فى حديقة تطل على مياه النيل .
لقد كان قلبه مشغولاً بالله فكان فى وسط النار يحمد الله ويسبحه ولذلك لم يشعر بأى خوف أو رهبة لأنه على يقين من أن الله سينصره .
* وظلت النار مشتعلة لفترة طويلة حتى ظن الناس أنها لن تنطفئ أبداً فلما انطفأت النار كانت المفاجأة التى لا تخطر على قلب بشر فى انتظارهم ...
فها هو إبراهيم (عليه السلام) يخرج من الحفرة سليماً لم يصبه أى مكروه فقد خرج من النار ووجهه يتلألأ من النور ..
وهم قد اسودت وجوههم من دخان الحريق .
ثيابه لم تحترق .. وثيابهم احترق نصفها لتساقط الأخشاب الملتهبة عليها، فنصره الله عليهم .. وأخزاهم فى الدنيا والآخرة .

مناظرته (عليه السلام) مع النمرود

قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

لقد كان هناك ملك يحكم أرض بابل بالعراق اسمه النمرود بن كنعان وكان في قمة الظلم والطغيان حتى أنه كان يدعى أنه إله هذا الكون.

ولما سمع عن إبراهيم (عليه السلام) وأنه يدعو إلى عبادة الله (جل وعلا) خاف النمرود على ملكه وأراد أن يعقد مناظرة مع إبراهيم (عليه السلام) ليثبت له أنه هو إله هذا الكون.

ووقف إبراهيم (عليه السلام) لينظره . . وقف إبراهيم (عليه السلام) وكله يقين وثقة في الله (جل وعلا) أنه سينصره على هذا الكافر الذي يدعى أنه إله هذا الكون.

قال النمرود: يا إبراهيم أنا إله هذا الكون فهل يستطيع إلهك أن يفعل شيئاً لا أستطيع القيام به.

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ (١).
 فنظر إليه النمرود بكل كبر وغطرسة وقال له: ﴿أنا أحيى
 وأميت﴾ (٢). فأصدر النمرود أوامره وجيئ برجلين قد حكم
 عليهما بالإعدام فأمر بإعدام أحدهما وعفا عن الثانى
 وقال: ها أنا قد أحييت هذا الرجل الذى كان سيموت!!
 - لم يعلم النمرود ما يقصده إبراهيم (عليه السلام).
 فلما رأى إبراهيم (عليه السلام) غياب النمرود وتحايله
 قال له كلمة أذهلته فقال له: ﴿فَإِنَّ
 اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
 الْمَغْرِبِ﴾ (٣) فبهت الذى كفر وأحس
 بالضعف والعجز والمهانة.



* لقد أحس النمرود لأول مرة
 بعجزه وضعفه . . وبذلك انتصر خليل الرحمن إبراهيم
 (عليه السلام) لأن الحق معه . . والله يؤيده وينصره.

وهكذا كان هلاك النمرود

وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، ملكاً يأمره بالإيمان

(١)، (٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية، فأبى عليه، ثم دعاه الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعى. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماهم، وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمئة سنة عذبه الله تعالى بها. فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها^(١).

قصة إحياء الطير

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ وَلَٰكِن لِّیَبْلُوَ قَلْبَیْكَ فَإِذْ فُتِنَ مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَیْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً منها أنه لما

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير: (ص: ١٧٧، ١٧٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

قال للنمرود: ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ (١) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَئِمَن قَال بَلَى وَلَكِن لِّیَطْمِئِنُّ قَلْبِى﴾ (٢).

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (٣) أى: أوثقهن واذبحهن وقطعهن. فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، بعد أن قطعهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن. وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيًا، ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها، وجعل كل



(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

طائر يجرى ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه أباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته. ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١) أى: عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره^(٢).

* الدروس المستفادة:

(١) قد ينشأ الإنسان فى بيئة فاسدة ومع ذلك فإنه إذا اعتصم بربه (جل وعلا) فإنه يصبح رجلاً صالحاً.. فقد رأينا كيف أن خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) نشأ فى بيئة أهلها يعبدون الأصنام ومع ذلك أصبح هو خليل الرحمن (جل وعلا).

(٢) أن المسلم إذا رأى الفساد منتشرًا فى مجتمعه فلا بد أن ينكر عليهم ولكن بكل رحمة حتى إذا نزل العذاب على هؤلاء المفسدين يكون هو من الناجين المفلحين.

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٥ ، ٢٢٦).

- (٣) أنه لا بد من الأدب مع الوالدين حتى ولو كانا كافرين بالله (جل وعلا)، ولكن لا بد من الحرص على دعوتهما وهدايتهما . . فقد رأينا كيف كان إبراهيم (عليه السلام) يدعو أباه بكل أدب ورحمة وحنان.
- (٤) أن كل من دعا الناس وكان حريصاً على هدايتهم فلا بد أن يحاربه أهل الزيغ والفساد الذين يريدون نشر الفساد في الكون كله ولا يريدون أن يروا أناساً صالحين ولا مصلحين . . ولكن العاقبة الطيبة لا بد أن تكون لأهل الإيمان.
- (٥) لا بد من طول النفس في الدعوة إلى الله . . فإن إبراهيم لم يكسر أصنامهم إلا بعد أن دعاهم سنوات طويلة فلما يشئ منهم أراد فقط أن يُعرفهم أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.
- (٦) أن من توكل على الله فإن الله يحفظه وينصره . . ولقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما توكل على الله جعل الله له النار برداً وسلاماً.

(٧) أن صاحب الحق لا يخشى أن يواجه أحداً لأن الله سينصره ويثبتته . . ولقد رأينا كيف وقف إبراهيم (عليه السلام) أمام هذا الحاكم الظالم النمرود بن كنعان وناظره وانتصر عليه بفضل الله (جل وعلا).

(٨) أن الله يجعل هلاك الجبارين المتكبرين بأسر الأسباب . . ولقد رأينا كيف جعل الله هلاك النمرود بن كنعان الذي كان يزعم أنه إله من دون الله . . جعل الله هلاكه في بعوضة دخلت من منخره ومكثت فيه أربعمئة سنة فكانت تنخر في رأسه فلا تسكت إلا إذا ضربوه على رأسه . . حتى أهلكه الله (جل وعلا).

(٩) أن إبراهيم (عليه السلام) لما سأل الله (عز وجل) أن يُريه كيف يحيى الموتى لم يكن عنده شك ولكن أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين فيرى ذلك مشاهدة أمام عينيه.

هجرة إبراهيم (عليه السلام)

إلى بلاد الشام

لقد استمر إبراهيم (عليه السلام) في دعوته إلى الله . . ومرت سنوات وسنوات ومع ذلك لم يستجب له سوى زوجته سارة وابن أخيه لوط (عليه السلام) . . وهنا أيقن إبراهيم (عليه السلام) أن جذور الشر في قلوب هؤلاء القوم عميقة جداً وأنهم يصرون على الباطل ولن يستجيبوا للحق أبداً . . فجاءه الأمر من الله (جل وعلا) بأن يهاجر إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس في فلسطين . . وكان أهلها يعبدون الكواكب .

مناظرته (عليه السلام)

مع عبّاد الكواكب

وهكذا هاجر إبراهيم (عليه السلام) إلى بلاد الشام واستقر في مدينة تُسمى (حاران) وكان كل هدفه دعوة الناس من حوله إلى الله (جل وعلا) .
علم إبراهيم (عليه السلام) أن أهل هذا البلد يعبدون

الكواكب فأراد أن يثبت لهم أن تلك الكواكب من مخلوقات الله (جل وعلا) وذهب يحاورهم بطريقة جديدة حتى يثبت لهم أن الله وحده هو الإله الحق وأن ما دونه من الآلهة المزعومة لا تنفع ولا تضر.

* وقف إبراهيم (عليه السلام) مع هؤلاء القوم ليحاورهم، وعندما غربت الشمس وأظلمت الأرض نظر إبراهيم (عليه السلام) إلى السماء فرأى كوكباً مضيئاً فقال لهم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾^(١).

فرح أهل المدينة وظنوا أن إبراهيم (عليه السلام) سيعبد الكواكب معهم ولكن لما أصبح الصباح واختفى ذلك الكوكب وانطفأ نوره قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^(٢) أى: لا أحب الإله الذى يغيب ويختفى فأنا أريد إلهاً لا يغيب عني أبداً، حتى أستطيع أن أعبدته وأطلب منه كل ما أحتاج إليه.

وفى الليلة الثانية وقف معهم فلما ظهر القمر وبزغ

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٧٦).

نوره وكان نوره أقوى من نور الكوكب قال



إبراهيم (عليه السلام): ﴿هَذَا رَبِّي﴾ (١).

ولكن القمر اختفى في الصباح فقال

إبراهيم (عليه السلام).

﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٢).

وأخذ يوضح لهؤلاء القوم أنه لن يعبد إلهاً يظهر ويختفي
ويرضى ثم ينطفئ... فهذا لا يستحق أن يكون إلهاً.

* وفي الصباح نظر فرأى الشمس

ساطعة فأشار إليها قائلاً: ﴿هَذَا رَبِّي

هَذَا أَكْبَرُ﴾ (٣).



- ولم يفهم هؤلاء القوم أن إبراهيم

(عليه السلام) يفعل كل هذا من أجل

أن يثبت لهم أن كل الكواكب والأقمار والشموس من

مخلوقات الله وأنه لا يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا).

- فلما غربت الشمس قال لهم إبراهيم (عليه

السلام): ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ

(١)، (٢) سورة الأنعام: الآية: (٧٧).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٧٨).

لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ .

* فلما وضع لهم أن هذه الكواكب لا تصلح أن تكون آلهة دعاهم إلى عبادة الإله الحق (سبحانه وتعالى) . . وإذا بهؤلاء القوم الذين يعبدون الكواكب والنجوم يقولون لإبراهيم (عليه السلام): إن الآلهة ستنتقم منه وستؤذيه لأنه لم يعبدها ولم يسجد لها.

ولكن إبراهيم (عليه السلام) يعلم أنه على الحق فقال لهم: ﴿أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ .

أنتم الذين يجب أن تخافوا، لأنكم أشركتم بالله، أما أنا فلن يصيبني شيء إلا بأمر الله عز وجل .

* * *

(١) سورة الأنعام: الآيتان: (٧٨، ٧٩) .

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: (٨٠، ٨١) .

هجرته (عليه السلام) إلى أرض مصر

لقد استمر إبراهيم (عليه السلام) في دعوته المباركة . فلما وجد قلوب القوم مغلقة لا تستقبل الخير ولا تريد أن تقبل على الله (جل وعلا) قرر إبراهيم (عليه السلام) الهجرة إلى أرض مصر لعله يجد قلوباً تستجيب لدعوته وترجع إلى الخالق (جل وعلا).

خرج إبراهيم (عليه السلام) ومعه زوجته سارة وكانت من أجمل نساء الأرض فلما وصلا إلى مصر وصلت الأخبار إلى ملك مصر أن رجلاً وصل إلى مصر ومعه امرأة هي أجمل نساء أهل الأرض فطمع الملك أن يفوز بها لنفسه وكان هذا الملك الظالم قد وضع قانوناً لنفسه وهو أنه يجوز له أن يأخذ المرأة من زوجها ويقتل زوجها ولكن لا يجوز له أن يأخذ المرأة من أخيها أو أبيها .

فجاء الوحي إلى إبراهيم (عليه السلام) يخبره بذلك . فقال لسارة: إن سألك الملك فقولي له أنك اختي فما على هذه الأرض مؤمن غيري وغيرك .

وأرسل الملك جنوده ليأتوا إليه بسارة وأمرهم أن يسألوا

إبراهيم (عليه السلام) عنها فإن كان زوجها فاقتلوه... فلما سألوا إبراهيم فقال لهم: إنها أختي... وكان يقصد بذلك أنها أخته في الإسلام لأنه لم يكن هناك أزواج على الإسلام في الأرض كلها إلا إبراهيم وسارة.

قال لرسول ذلك الملك إنها أخته عندما سأله عنها، لينجو من بطشه، وقد أرسل إبراهيم بزوجه إلى ذلك الطاغية كما طلب منه، ثقة منه برعاية الله وحفظه، بعد أن أوصاها أن لا تخبر الملك بصلتها الحقيقية به، وقد بين لها إبراهيم وجهة نظره في ذلك، فهي أخته في الإسلام إذ لم يكن على وجه الأرض مؤمن غيرهما.

أرسل إبراهيم بزوجه إلى الطاغية، وفزع إلى الصلاة، يدعو ربه، ويلتجئ إليه، وقد حفظ الله خليله في زوجه سارة، كما حفظ سارة في نفسها.

لما عرفت السيدة سارة أن ملك مصر فاجر ويريدها له أخذت تدعو الله قائلة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على الكافر.

* فلما أدخلها الجنود عليه وانصرفوا قام هذا الملك الظالم يريد أن يلمسها فأصيبت يده بالشلل وتجمدت في

مكانها فأخذ يصرخ وسمع الجنود صوت صراخه وجاءوا لينقذوه لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أى شيء.

هنا خافت سارة من الجنود أن يقتلونها بسبب ما فعلته بالملك فقالت: يا رب أذهب عنه الشلل حتى لا يقتلوني بسببه. . . فاستجاب الله لدعائها.

لكن مع ذلك لم يتب هذا الملك الظالم ويعتبر بما حدث له فقام وهجم عليها مرة أخرى فأصيبت يده بالشلل. . . فقال لها الملك: فكيني ولن أقرب منك. . . فدعت له ففكه الله (جل وعلا).

ولكن الملك عاد للمرة الثالثة فأصيبت يده بالشلل فقال لها الملك: فكيني وسوف أطلق سراحك وأكرمك. فدعت الله (عز وجل) ففكه.

فصرخ الملك فى جنوده وأعوانه وقال لهم: أبعدوها عني فإنكم لم تأتونى بإنسان بل أتيتمونى بشيطان. فأطلقها وأعطاهما أمة اسمها هاجر. . . فعادت سارة إلى زوجها إبراهيم (عليه السلام) سالمة غائمة.



الله يكشف الحجاب لإبراهيم

(عليه السلام)

وجاء في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيّب لقلبه وأقر لعينه وأشدّ لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً، لدينها، وقرباتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها ^(١).

العودة إلى أرض فلسطين

وعاد إبراهيم (عليه السلام) وزوجه سارة - ومعهما هاجر - إلى أرض فلسطين واستقروا جميعاً في بيت المقدس . . تلك الأرض التي بارك الله حولها. ولحق به ابن أخيه لوط (عليه السلام) فأمره إبراهيم (عليه السلام) أن يذهب إلى أرض (سدوم) ليدعوهم إلى الله عز

(١) قصص الأنبياء (ص: ١٣٤).

وجل فذهب لوط إلى أهل تلك المنطقة وكانوا أهل فسق وفجور فقد كانوا أصحاب فطرة متكسة فهم يأتون الذكران من دون الإناث فدعاهم لوط إلى ترك تلك الفاحشة التي تتنافى مع الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها فلم يستجيبوا.

زواجه (عليه السلام) من هاجر

وتعالوا بنا لنرى ما الذى حدث مع خليل الرحمن (عليه السلام).

لقد استقر إبراهيم - كما أسلفنا - فى أرض فلسطين واشتاق بعد هذا العمر الطويل إلى أن يرزقه الله ولداً صالحاً.

* عاد إبراهيم - عليه السلام - من مصر إلى فلسطين، وعادت معه سارة فى صحبتها هاجر المصرية تخدمها، وتخدم زوجها خليل الرحمن.

* واستقروا جميعاً فى بيت المقدس، تلك الأرض التى بارك الله حولها .. وتمضى الأيام والسنون .. وتتقدم سارة فى العمر.

* كانت سارة تنظر إلى نفسها وإلى زوجها نظرة إشفاق ..

كانت تُحدث نفسها قائلة: ليت لنا ولداً تفرُّ به أعيننا.

وكانت سارة لا تلد، فلما رأت سارة ذلك أحبت أن تعرض هاجر على إبراهيم، فكان يمنعها غيرها.

* ويبدو أن سارة في لحظة من لحظات الصفاء الروحي أثرت زوجها على نفسها، وتمنت أن يكون له ولد، فهي تدرك أنها عاقر لا تنجب.. تلك مشيئة الله، إنه على حكيم..

* وفي سُبُحات رُوحية تذكّرت هاجر.. هاجر تلك المرأة المصرية التي تعيش معهما، وقد آمنت بدعوة إبراهيم، وأسلمت وجهها لله فاطر السموات والأرض.

* راقبت سارة هاجر، ها هي تصل العبادة بالصلاة، وتصل العمل بالصالح، وتقوم على عملها كأفضل ما يمكن..

* كانت الأيام تسير.. وهاجر لا تدري بماذا تفكر به سارة، بينما تابعت هاجر عبادتها وعملها حتى غدت نقية النفس موصولة القلب بالله عز وجل.

* كانت تعبد الله سبحانه طاعة له تعالى، ليرضى عنها، ويوفقها للاستزادة من حلاوة العبادة، ويثبت إيمانها في قلبها.

* أراد الله سبحانه أن يجزيها جزاء الشاكرين.. وأن

يرفع قدرها عاليًا فوق نساء عصرها .. وأن يكون ذكرها عطرًا إلى يوم القيامة.

* وفي لحظة صفاء إيماني، قالت سارة لإبراهيم وقد شرح الله صدرها لتلك الفكرة: يا خليل الرحمن، هذه هاجر، أهبها لك عسى أن يرزقنا الله منها ذرية.

ولادة إسماعيل عليه السلام

* تذكر إبراهيم - عليه السلام - ما وعده ربه أن يهب له ذرية طيبة، وكان وعد الله مأتياً ..

وافق إبراهيم - عليه السلام - على الزواج من هاجر .. تحقق الوعد الإلهي الحق .. وحملت هاجر .. اقترب موعد ولادتها .. فولدت غلامًا سويًا زكيًا .. أسموه إسماعيل^(١).

* قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -:

إن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه

(١) نساء الأنبياء / أحمد خليل جمعة (ص: ٢١٤، ٢١٥) بتصرف.

أبوه اشتدت غيرة سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته تعالى^(١).

* وعرفت هاجر ذلك . . أسلمت وجهها لله رب العالمين، كان إيمانها بذلك معقوداً بكمال العبادة، رأت بعين بصيرتها أن الله لن يضيعها إذ اختارها زوجة لخليله . . وكان القائل عنها بقوله:

قلوب العارفين لها عيون

تري مما لا يراه الناظرون

أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم - عليه السلام - أن خذ هاجر وابنها إسماعيل، وأخرج إلى الأرض المباركة، تلك البقعة التي أراد الله أن يبارك فيها للعالمين (مكة)، أم القرى . . أمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى مكة، وأتى لها بالبراق، فركب عليه هو وهاجر والطفل^(٢).

* نزل خليل الرحمن وهاجر وإسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، . . . لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا حياة.

(١) زاد المعاد (١/٧٤، ٧٥).

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢/٢٤٢).

* نظر إبراهيم - عليه السلام - إلى زوجته هاجر وابنه إسماعيل نظرة فيها معاني الرأفة كلها . ولكنه راجع من حيث أتى ، إنه أمر الله فلا راد لحكمه .

الهجرة إلى مكة المكرمة

لقد رحل إبراهيم بزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة وكانت وقتها صحراء جرداء لا أنيس فيها ولا جليس فتركهما في هذا المكان الموحش وترك معهما جرأاً فيه تمر وسقاء فيه ماء .
* قد يبدو الأمر صعباً وقاسياً على نفس الشيخ الكبير الذي رُزق بإسماعيل على كبر ، ويزداد الأمر صعوبة عندما يضع إبراهيم فلذة كبده وأمه في مكان موحش لا ماء فيه ، ولا طعام ، ولا سكان .
ولكن الله له حكمة بالغة ، والأمر وإن كان في ظاهره المشقة إلا أن في باطنه كثيراً من الرحمات والخيرات ، نقل إبراهيم الطفل الصغير وأمه من الأرض المباركة ذات الهواء العليل والرياض الخضرة ، والمياه الجارية ، إلى ذلك الوادي ،

ووضعهما تحت تلك الشجرة، ومضى راجعاً، من غير أن يشغل نفسه ببناء بيت يأويان إليه، ومن غير أن يبحث لهما عمن يسكن بجوارهما ليحميهما من غارات قُطَاع الطرق، ومن هجمات الوحوش الضارية . . لقد أمر الله إبراهيم بإسكانهما في ذلك الوادي، فأسكنهما فيه كما أمر الله، وترك أمرهما لله تعالى، فالذي أمره بهذا قادر على حمايتهما وإطعامهما وإسقاؤهما، وإيناس وحشتهما^(١).

ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل ونادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟
قال: إلى الله.

قالت: رضيت بالله. وهكذا كان قلبها قد امتلأ ثقة و يقيناً وتوكلاً على الله (عز وجل) فهي تعلم أن الله لا يُضيع من استجاب لأمره وعاش على طاعته.



(١) صحيح الفصص النبوي (ص: ٤٣).

دعوة مباركة

... فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١).

امثال لقضاء الله (جل وعلا)

لقد امثلت هاجر للقضاء المحتوم، وتحلّت بالصبر الجميل، ومكثت تأكل من الزاد، وتشرب من الماء، حتى نفدا؛ فخوى بطنها، واحتملت ذلك صابرة، ولم تلبث أن جفّ ضرعها، وأصبحت لا تجد لبناً تُرضعه الطفل، وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش، فبكى وانتحب، وصرخ وأمه تتقطع نفسها حشرات، ودموعها تنهمر بغزارة، وودت لو استطاعت أن تروى ظمأه بدموعها، حاولت أن تجد لها من مأزقها مخرجاً، فتركته مكانه، وسارت هائمة على وجهها، تعدو وتهرول، وقد أحزنها بكاؤه ونحيبه،

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٣٧).

وأخذت تبحث عن الماء، وتفتش له عن غذاء.

* لقد مكثت أم إسماعيل أياماً تشرب من تلك القربة التي تركها لها إبراهيم، وتأكل من ذلك التمر، وتسقى وليدها من لبنها، ولكن سرعان ما نفذ التمر والماء، فعطشت وجاعت، وعطش صغيرها بعطشها، وجاع بجوعها، وأخذ يتلوى من العطش، فلم تطق النظر إليه، ودفعها ما رأت من أمره إلى أن تبحث له عما يروى ظمأه، ويحيى نفسه.

وجدت الصفا أقرب مرتفع من الأرض إليها، والمرء عندما يريد أن يستكشف ما حوله، يرقى على مرتفع عالٍ، ليرى أكبر مساحة يمكنه البحث فيها والنظر إليها.

رقت الصفا ونظرت بإمعان، فلم تجد أحداً، فانحدرت إلى الوادي مُيممة وجهها نحو الجبل الآخر القريب، وهو المروة فصعدت عليه، ونظرت كما نظرت من الصفا فلم تجد من ينجدها، ولا من يغيثها، وهكذا بقيت تتردد بين الصفا والمروة حتى أتمت سبعاً، وكانت في أثناء ترددها بينهما تمر بطفلها تطمئن عليه، وتستطلع أحواله، ثم تعود لتتابع التردد والنظر، وكان هذا السعي أول سعي بين الصفا والمروة، وقد أصبح هذا السعي الذي ابتدأته هاجر

مَعْلَمًا مِنْ مَعَالِمِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (١).

عادت هاجر بعد المرة السابعة وهي مُجْهدة مُتعبة تلهث، وجلست بجوار ابنها الذي كان صوته قد بُحَّ من البكاء والعطش، أصابها الإعياء من الجهد، وأصاب ولدها مثله من البكاء.

وهنا . . . وفي هذه اللحظة اليائسة أدركتها رحمة الله عز وجل الرحيم بكل شيء، وأرسل لها جبريل عليه السلام فيبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع قدم إسماعيل فانفجرت بثر زمزم، وفار الماء من البئر، أنقذت حياة الطفل والأم، . . . راحت الأم تغرف بيدها وتشرب وهي تشكر الله، وشربت وسقت طفلها، بحثت عن الماء من فوق الربوات المشرفة، فأخرج الله لها الماء من تحت أقدام الوليد الصغير، ولا شك أن فرحة أم إسماعيل كانت عظيمة غامرة، فالحرمان من الماء يعنى موتها وموت صغيرها، وانبثاق الماء فيه حياتها وحياة



(١) سورة البقرة: الآية: (١٥٨).

صغيرها، وحياة الوادى الذى حلت فيه .
 ويترجح لدى أن جبريل عليه السلام تمثل فى صورة رجل
 حتى رآته هاجر وكلمها وكلمته، كما كان يتمثل فى عهد
 الرسول ﷺ فيراه الصحابة، ويسمعونه . . . يدلك على
 هذا أن الرسول ﷺ لم يره إلا مرتين على صورته التى
 خلقه الله عليها، وعندما رآه أول مرة خاف خوفاً شديداً .
 وقد سارعت أم إسماعيل بدافع الغريزة الحريصة على
 جمع الماء وإحراز أكبر قدر منه إلى صنع حوض يجمع
 الماء ويرفعه، وأخذت تملأ منه قربتها، ولو قُدر لها أن
 تتركه يجرى ويسيل، لأصبح عيناً جارية، وفى ذلك يقول
 الرسول ﷺ : «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم
 لكانت زمزم عيناً معيناً»^(١).

جاء الله أم إسماعيل بالماء الذى روى عطشها، وحرك
 الحليب فى ثديها، فسقت طفلها، وطمانها الملك قائلاً:
 (لا تخافوا الضيعة) وبشرها بأن هذا الغلام سيبنى مع
 والده بيت الله، وأن الله لا يضيع أهله .

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٦٨).

وأتم الله النعمة على إسماعيل وأمه

* لقد أتم الله على إسماعيل وأمه النعمة، فساق إليهم من يساكنهم في ديارهم، فيأنسون به، وتزول بذلك عنهم الوحشة، فقد مر قريباً منهم رفقة من قبيلة جرهم، فنزلوا أسفل مكة، فرأوا طيوراً تحوم في الفضاء، وكانوا يعلمون أن مثل هذا الحومان لا يكون من الطير إلا حيث يوجد ماء فإن الطائر العابر يمضي في طريقه لا يتوقف، أما الطيور التي تحوم في الفضاء على النحو الذي شاهدوه، فهي الطيور التي ترد الماء، وتدور حوله، إلا أنهم تشككوا في صدق حدسهم، لأنهم خبراء بهذه النواحي، وهم يعلمون أن هذا الوادي لا ماء فيه ولا سكان، ولقد قطعوا الشك باليقين فأرسلوا من يأتيهم بالخبر، فعاد إليهم الرسول يخبرهم بما رأى، فانطلقوا إلى حيث أم إسماعيل، ورأوا بأعينهم الخير المتدفق من الصخر، فأعجبهم ذلك، واستأذنوا أم إسماعيل في الإقامة معها، فأذنت لهم، واشترطت عليهم أنه لا حق لهم في الماء، ... ولكن أصل العين لها ولابنها،

فأرسلوا إلى أهلهم، وسكنوا بجوارها^(١).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن الداعية إذا وجد أن دعوته لا تثمر في هذا المكان الذي يدعو فيه إلى الله . . فعليه أن يرحل ليغرس بذرة التوحيد في مكان آخر . . ولقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) كلما وجد الناس لا يستجيبون لدعوته كان يترك هذا المكان بعد ما يبذل أقصى ما عنده ويذهب لمكان آخر عسى الله أن ينفع بدعوته هناك.

(٢) أن الداعية الذكي لا بد أن يبتكر أساليب جديدة للدعوة إلى الله . . . فلقد رأينا كيف كانت الطريقة الفريدة التي قام بها إبراهيم (عليه السلام) مع الذين كانوا يعبدون الكواكب والنجوم.

(٣) أن الداعية لا ينظر إلى راحتته هو بل لا بد أن يفعل كل ما هو أصح لنجاح الدعوة حتى ولو ضحى من أجل ذلك بكل شيء في سبيل نجاح دعوته وفوزه برضوان الله (جل وعلا).

(١) صحيح الفصص النبوي (ص ٤٤، ٤٦).

(٤) أنه يجوز التعريض بالكلام من أجل النجاة من ظلم الظالمين . . فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما دخل مصر وعلم أن هذا الحاكم الظالم يريد أن يأخذ زوجته قال لها: قولي له أنك أختي لأن هذا الملك كان لا يأخذ الأخوات وإنما يأخذ الزوجات . . وكان إبراهيم (عليه السلام) يقصد أنها أخته في الله .

(٥) أن الدعاء هو أعظم سلاح للمؤمن . . وكلما ازداد تضرع وإخلاص العبد لله كلما كانت الإجابة سريعة . . فلقد رأينا كيف أن سارة لما دخلت على هذا الملك الجبار ظل إبراهيم (عليه السلام) يدعو حتى عادت إليه سالمة غائمة .

(٦) أن الزوجة الصالحة قد تفعل شيئاً لا تريده بل تكرهه . . ولكنها تفعله من أجل إرضاء وإسعاد زوجها . . فلقد رأينا كيف أن سارة قدمت هاجر لتكون زوجة لإبراهيم (عليه السلام) وذلك لأنها كانت لا تُنجب فأرادت أن تدخل السعادة على زوجها بأن يكرمه الله بالولد من هاجر .

قصة الذبيح

شب إسماعيل - عليه السلام - وصار يسعى في مصالحه كأبيه إبراهيم - عليهما السلام - وسرَّ إبراهيم بإسماعيل الذي يرافقه الآن في الحياة، ما هو ذا يأنس بابنه الوحيد إسماعيل.. لقد بلغ من العمر بضعة عشر عاماً.

* وذات يوم نام إبراهيم - عليه السلام - فرأى في المنام أنه يذبح إسماعيل.. و«رؤيا الأنبياء وحى»^(١).

* أدرك إبراهيم - عليه السلام - أنها إشارة من ربه للتضحية.. فماذا؟ إنه لا يتردد.. ولا يخطر له إلا خاطر الإيمان والتسليم..

* **لم يسأل:** لماذا يأمرني ربي بذبح ابني الوحيد؟! ولم تراوده الظنون.. لقد تغلب - بفضل الله - على جميع الوسواس.

* **عرض إبراهيم رؤياه على إسماعيل...** ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾^(٢).

* إن إبراهيم - عليه السلام - عرض على ابنه أمر الله ليأخذ ذلك طاعة وإسلاماً لينال أجر الطاعة.. وليسلم

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٥٩).

(٢) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).

هو الآخر، ويتذوق حلاوة التسليم^(١).

ستجدني إن شاء الله من الصابرين

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يُعرض عليه الذبح،
تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟ . . إنه يرتقى إلى الأفق الذي
ارتقى إليه من قبل أبوه: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن
في رضى كذلك وفي يقين.

* وذهب إبراهيم (عليه السلام) وأحضر سكينًا لذبح
ولده الوحيد . . وفي مشهد عجيب يصور لنا صبر الخليل
(عليه السلام) ورضاء بقضاء الله ألقى ابنه على وجهه
بكل رحمة من أجل أن يذبحه وينفذ أمر الله (جل وعلا)
لكن دون أن يرى وجهه فتأخذه الشفقة عليه.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾^(٣) أى: استسلما لأمر الله وعزما على

(١) نساء الأنبياء / أحمد خليل جمعة (ص: ٢٥٠).

(٢) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).

(٣) سورة الصافات: الآية: (١٠٣).

ذلك ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾^(١) أى: ألقاه على وجهه .. وبدأ إبراهيم يَمُرُّ السكين على حلق إسماعيل فلم تقطع شيئاً. . وإذا بالحق (جل وعلا) يناديه: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾^(٢) قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ^(٣).

كان الابتلاء قد تم. والامتحان قد وقع. ونتائجه قد ظهرت. وغاياته قد تحققت. ولم يعد إلا الألم البدنى، وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شيء.

فعند ذلك نودى من قبل الله عز وجل: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾^(٤) قَدْ صَدَّقَ الرَّؤْيَا^(٥) أى: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك.



* ومن أجل ذلك فلقد فدى الله سيدنا إسماعيل (عليه السلام) بكبش كبير رعى فى الجنة أربعين سنة .. فأخذه إبراهيم (عليه السلام) وذبحه بدلاً من ولده.

(١) سورة الصافات: الآية: (١٠٣).

(٢)، (٣) سورة الصافات: الآيتان: (١٠٤، ١٠٥).

وصار هذا اليوم عيداً للمسلمين يذبحون فيه الذبائح
 قدوة بخليل الله إبراهيم (عليه السلام). ﴿يَعْبُدُونَهُ مَا
 لَهُ قَدْرٌ عَلَيْهِ فِي السَّمَاءِ﴾ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ
 عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١﴾

البشرى بإسحاق (عليه السلام)

لقد أسلفنا أن إبراهيم كان قد أرسل لوطاً (عليهما
 السلام) إلى أهل مدينة سدوم ليدعوهم إلى عبادة الله
 (جل وعلا) وإلى أن يتركوا تلك الفاحشة التي كانوا
 يفعلونها فلما لم يستجيبوا له ويُس لوط من هدايتهم لجأ
 إلى الله (عز وجل) وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
 الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢). فأرسل الله ملائكة في صورة شبان في غاية
 الحسن والجمال، فمروا أولاً على إبراهيم (عليه السلام).

* ذهب الملائكة إلى إبراهيم (عليه السلام) وكانوا
 ثلاثة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل فلما رآهم إبراهيم
 (عليه السلام) لم يعرفهم في بادئ الأمر فبادروه بالتحية

(١) سورة الصافات: الآيات: (١٠٧، ١٠٩). ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾

(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٣٠). ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَاكَ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾

قصص الأنبياء للأطفال

قالوا: سلاماً .. قال: سلام .. **فدعاهم فدخلوا معه**
ثم قام ورحب بهم وأدخلهم بيته وهو فى تلك اللحظة
يظن أنهم ضيوف .. ونحن نعلم أن إبراهيم (عليه السلام)
كان يحب إكرام الضيف.

* فلما جلسوا قام فى التو واللحظة إلى زوجته سارة
ليخبرها بأنه قد جاءه ضيوف فلا بد من إكرامهم.

فسأله: من هم؟ ويا ترى من أين جاؤوا؟
فقال لها: لا أعرف ولكن هيا لنكرمهم.

* قام إبراهيم (عليه السلام) وشوى لهم عجلاً سمياً
وأعد لهم المائدة ثم قدم الطعام بين أيديهم وطلب منهم
أن يأكلوا .. وبدأ يأكل أمامهم حتى لا يشعرون
بالخجل .. ولكن المفاجأة التى أذهلته أنه رأى الضيوف لا
يأكلون شيئاً فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (١).

فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً﴾ (٢) وذلك لأن تقاليد أهل البادية أن الضيف إذا امتنع
عن الطعام فمعنى ذلك أنه يريد بصاحب البيت شراً.

(١) سورة الذاريات: الآية: (٢٧).

(٢) سورة الذاريات: الآية: (٢٨).

* وكان إبراهيم (عليه السلام) قد لاحظ بعض الأشياء منذ قدومهم عليه، فقد دخلوا عليه فجأة حتى أنه لم يرههم إلا وهم عند رأسه . . وكذلك لم يكن معهم أى دواب تحملهم رغم أنهم ليسوا من أهل البلد فقد جاؤوا من سفر وليس عليهم أى أثر لتراب ومشقة السفر . . وها هو يدعوهم إلى الطعام فلم يأكلوا. وكان الملائكة أحسوا بما يدور فى قلب إبراهيم (عليه السلام) فقال له الملائكة: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾^(١) أخبروه أنهم فى مهمة إلهية علوية من لدن عليم حكيم، وهذه المهمة يجب تنفيذها سريعاً . . ذكروا له أنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين، قوم لوط حتى يُرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمُسرفين . . أخبروه بأن لوطاً استنصر ربه لينصره على القوم المفسدين، فبعثهم الله لنصرته. وها هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشاراً بذلك، قال الله

(١) سورة هود: الآية: (٧٠).

تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(١) أى: بشرتها الملائكة بذلك: ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ﴾^(٢) أى: فى صرخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾^(٣) أى: كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا﴾^(٤) أى: كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضاً، وهذا بعلى - أى: زوجى - شيخاً؟ ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^{(٥)(٦)}.

* نسيت سارة أن الملائكة الكرام هم الذين يحملون البشرى من عند ملك مقتدر،... ردها الملائكة إلى الحقيقة الإلهية، حقيقة القدرة التى لا يفقدها شىء، إنها القدرة الإلهية التى تدبر كل أمر بحكمة وعلم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(٧).

* لا أستطيع هنا أن أصف لكم كيف كانت فرحة إبراهيم (عليه السلام) وزوجته سارة بهذه البشرى... فإنه لم يكن لإبراهيم سوى ولد واحد هو إسماعيل وقد تركه

(١) سورة هود: الآية: (٧١).

(٢)، (٣) سورة الذاريات: الآية: (٢٩).

(٤)، (٥) سورة هود: الآية: (٧٢).

(٦) قصص الانبياء (ص: ٢٠١).

(٧) سورة هود: الآية: (٧٣).

هناك في مكة .. وزوجته سارة كانت عقيماً فلم تُنجب قبل ذلك وكانت تشعر بحنين للولد خصوصاً بعد أن أنجبت هاجر سيدنا إسماعيل (عليه السلام).

* لقد بشرتها الملائكة بعد هذا العمر الطويل أنها ستلد غلاماً بل وبشرتها بأن ابنها سيكون له ولد اسمه يعقوب سيشهد مولده وتشهد حياته بعد كل هذا الصبر الطويل .. لقد تعجبت سارة!!!
* وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنَىٰ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي﴾ (٥٤) قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَمَا تُكِنُّ مِنَّا الْقَانِطِينَ ﴿١﴾ أَكْذَبُوا الْخَيْرَ بِهَذِهِ الْبَشَارَةِ وَقَرَّرُوهُ مَعَهُ، فَبَشَّرُوهُمَا ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ وَهُوَ إِسْحَاقُ أَخُو إِسْمَاعِيلَ، غُلَامٌ عَلِيمٌ مُنَاسِبٌ لِمَقَامِهِ وَصَبْرِهِ، وَهَكَذَا وَصَفَهُ رَبُّهُ بِصَدَقِ الْوَعْدِ وَالصَّبْرِ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٣﴾.

* قال القرطبي - رحمه الله -: كان بين البشارة

(١) سورة الحجر: الآيةان: (٥٤، ٥٥).

(٢) سورة الحجر: الآية: (٥٣).

(٣) سورة هود: الآية: (٧١).

والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة^(١).

* ولكن بعد هذه الفرحة والبشرى الجميلة تذكر إبراهيم (عليه السلام) أن الملائكة جاؤوا لتدمير قوم ابن أخيه لوط فأخذ يجادلهم ويقول لهم: انتظروا فرما يؤمن قوم لوط أو يؤمن بعضهم ولكن الملائكة أخبروه بأن الأمر ليس لهم وإنما هو أمر الله وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. . فعندها سكت إبراهيم (عليه السلام) بعدما علم أن هذا بأمر من الله.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾^(٢).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم يرفع دائماً شعار: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾^(٣) فينفذ أمر الله (جل وعلا) حتى ولو كان على غير

(١) تفسير القرطبي (١٧/٤٧).

(٢) سورة هود: الآيات: (٧٤ - ٧٦).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).

مراده . . فقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) بعد ما رزقه الله بولده إسماعيل (عليه السلام) بعد عمر طويل رأى رؤيا بأنه يذبح ولده - ورؤيا الأنبياء وحى - فقام فى التو واللحظة ليذبح ولده ولينفذ أمر الله .

(٢) أن الله قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (١) وقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما قام لينفذ أمر الله ويذبح ولده جعل الله له مخرجًا من ذلك فعفا عنهما ثم رزقه بكبش رعى فى الجنة أربعين سنة ليكون فداءً لإسماعيل (عليه السلام) .

(٣) أن إكرام الضيف واجب وهو من الإيمان بالله واليوم الآخر . . فقد قال النبى ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (٢) .

وقد رأينا كيف أن إبراهيم - عليه السلام - لما جاءتة الملائكة وظن أنهم ضيوف قام بسرعة وشوى لهم عجلًا سمينًا .

(٤) أن المؤمن إذا جاءتة البشرى أو جاءه ما يسره فإنه لا بد أن يتوجه بالشكر لله (جل وعلا) .

(١) سورة الطلاق: الآيتان: (٢، ٣) .

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨) .

(٥) أن الملائكة عباد الله (جل وعلا) . . وهم لا يأكلون ولا يشربون . . ولقد أعطاهم الله القدرة على التشكل في صورة البشر . . ثم هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(٦) أنه لا يأس ولا قنوط . . فالله قادر على كل شيء

فها هو الحق (جل وعلا) يرزق سارة بالولد بعد أن صارت عجوزاً وكانت عاقراً لا تلد ولكن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه .

(٧) أن المؤمن لا يتمنى الشر لأحد . . ولذا فقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما علم أن الملائكة نزلوا لتدمير وإهلاك قوم لوط أخذ يجادلهم ويقول لهم : لعلمهم يؤمنوا . . فلما علم أن هذا أمر الله (جل وعلا) سكت عند ذلك لأنه لا يجوز أن نجادل في أوامر الله (جل وعلا) .

زواج إسماعيل عليه السلام

لقد علمنا أن إبراهيم (عليه السلام) قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل - عليه السلام - بمكة وكان يزورهما بين الحين والحين ليطمئن عليهما .

ولقد عاش إسماعيل (عليه السلام) في مكة وتعلم

أشياء كثيرة بسبب مجاورته لقبيلة جرهم وغيرها من القبائل التي سكنت بجوارهم. (١) ثم جاء إبراهيم بعد ما تزوج وكبر إسماعيل وتزوج، «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته» (٢)، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغى لنا (٣)، ثم سألها عن عيشتهم وهيتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة. فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه (٤). فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشتنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابه. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحق بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجد، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يتغى لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيتهم. فقالت: نحن

(١) يطالع تركته: أي يتفقد حال ما تركه هناك.

(٢) يتغى لنا: أي يطلب لنا الرزق.

(٣) يغير عتبة بابه: أي يطلع زوجته.

بخير وسعة، وأنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه»، قال: «فهما لا يخلوا عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يشب عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أنا شيخ حسن الهيئة - وأنت عليه - فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمر أن تثب عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك...» (١).

* لقد شب إسماعيل في هذه البيئة كأحسن ما يشب الفتيان، وكان يتدفق حيوية ونشاطاً، وزانه خلق كريم، وسجايا عظيمة، فأحبه مجاوروه، وقدروه وزوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل بعد أن شب وليدها، واطمأنت عليه، وجاء إبراهيم يستطلع تركته، فلم يجد إسماعيل في منزله، فقد خرج يطلب القوت والطعام لأهله، وشكت زوجة إسماعيل

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٦٤) أحاديث الأنبياء.

معيشتها، لما سألها عنها، وأخبرته أنهم في شدة وضيق، فطلب منها أن تُقرئ زوجها السلام، وأمره بتغيير عتبة داره. لم تكن تعلم الزوجة أن الشيخ الذي مر بها هو والد إسماعيل، كما أنها لم تكن تعلم أن الرسالة التي نقلتها إلى زوجها كانت تطلب طلاقها، وقد فعل الابن ما أمره به والده، وطلق زوجته.

لقد رأى إبراهيم عليه السلام أن هذه المرأة لا تصلح أن تكون زوجة لنبي رسول، يُعد لأن يسود ويقود، ويربى أهله وأولاده والناس من حوله، فالزوجة التي تطيل الشكوى، وتكثر التبرم لا يمكنها أن تكون عوناً لزوجها على المهمات الكبار التي يُعد لها.

وعندما عاد إبراهيم في المرة الثانية وجد امرأة أخرى يخالف حالها من كانت قبلها، فرضى بزواج ابنه منها، وأمره بإمسакها، وقد سألها عن معيشتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله وحمده، وسألها عن طعامهم وشرابهم، فقالت: اللحم والماء، فدعا لهم إبراهيم بالبركة في اللحم والماء، ولو كان لهم حب

يأكلون منه لدعا لهم فيه كما أخبر الرسول ﷺ .
 وكان من بركة دعاء إبراهيم - كما أخبر الرسول ﷺ -
 أن اقتصر أهل مكة على اللحم والماء لا يضرهم ، بينما يضر
 من اقتصر عليهما من غيرهم ^(١)

قصة بناء البيت

كان سيدنا آدم (عليه السلام) هو أول من بنى
 الكعبة . . وقيل أن الملائكة هم الذين بنوا الكعبة ، ولكن
 تهدمت الكعبة بعد مرور القرون الطويلة .
قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
 وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) .

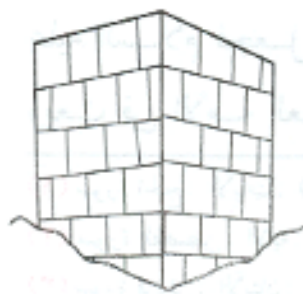
* ثم أوحى الله إلى إبراهيم (عليه السلام) أن يبنى
 البيت مرة أخرى ويرفع قواعده .
 * وكان إبراهيم (عليه السلام) يذهب إلى زوجته
 هاجر وابنه إسماعيل (عليه السلام) ليطمئن عليهما .
 * وفي إحدى هذه الزيارات جاء إبراهيم (عليه

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ٤٦ ، ٤٧) .

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٩٦) .

السلام) يزور ابنه، ويستطلع أحواله، فوجده هذه المرة في الديار، جالساً يبرى نبله تحت تلك الدوحة التي تركه تحتها صغيراً عندما جاء به أول مرة لتلك الديار، فقام إسماعيل إليه، فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد من التسليم والمعانقة والتقبيل ونحو ذلك، وأخبره بأمر الله له ببناء البيت الحرام، وأنه أمر إسماعيل بإعانتة على بناء البيت، فبادر إسماعيل إلى طاعة أمر الله، فبنى إبراهيم البيت، وساعده في ذلك إسماعيل، وكانا وهما بينيان يدعوان قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١)(٢).

✽ قال تعالى مصوراً هذا المشهد الجليل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣).



(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٧).

(٢) صحيح الفصص النبوي (ص: ٤٧).

(٣) سورة البقرة: الآيات: (١٢٧ - ١٢٩).

وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً

* ولما تم بناء البيت نودي إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقتضوا فتحهم وليؤفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴿ (١) .

- وتقبل الله من خليله عليه السلام، فجعل البيت الذي بناه قبلة للموحدين ومهوى أفئدة المؤمنين، وملاذ الخائفين.. وضمن الله جل وعلا لسكان البيت الرزق والأمن.

قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَنَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . . . وقال: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿ (٣) .



- وتقبل الله من نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام فجعل ذريته أمة مسلمة، وبعث في الأمة العربية رسولاً منهم

(١) سورة الحج: الآيات: (٢٧ - ٢٩).

(٢) سورة القصص: الآية: (٥٧).

(٣) سورة قريش: الآيات: (٣، ٤).

يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، وكان محمد ﷺ هو هذا النبي الذي ختم الله به أنبياءه ورسله، واختاره الله من ولد إسماعيل عليه السلام. قال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نوراً أضاءت له قصور الشام»^(١).

- وتقبل الله من إبراهيم عليه السلام، فأراه المناسك كلها، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فاستجاب الناس لهذا النداء، وأخذوا من كل مكان يأتون إلى بيت الله الحرام رُكباناً ومُشاةً، وكان الحج قبل الإسلام فكان العرب يحجون إلى بيت الله الحرام، وأصبح الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة.

وها نحن نرى المسلمين يتواردون إلى مكة من كل فجٍّ عميق، وينطلقون في حشد لم يعرف ولن يعرف التاريخ مثله في العدد والنظام، ووحدة المشاعر والهدف، وجميعهم يرددون بصوت واحد: «ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

مئات الآلاف من الناس يقفون يوم التاسع من ذي

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧٠٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح السيرة النبوية (٥٤/١).

الحجة في كل عام في أرض عرفات . . يقفون وقد خلعوا
ملابسهم إلا لباس الإحرام، وأقبلوا على الله داعين مُبِين.

وحان وقت الرحيل

وبعد هذا العمر المبارك الذي بذل فيه إبراهيم (عليه
السلام) كل ما يملك لخدمة هذا الدين العظيم . . وإذا به
ينام على فراش الموت ليلقى ربه (عز وجل) بقلب سليم.

قال ابن كثير - رحمه الله - :

* وقد ماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض
كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر
أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام، واشترى
من رجل يقال له: عفرون بن صخر مغارة بأربعمئة
مثقال، ودفن فيها سارة هنالك . .

* **قالوا - يعني: أهل الكتاب - :** ثم مرض إبراهيم
عليه السلام، فلما مات، دُفن في المغارة المذكورة، عند
امراته سارة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق، صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين.

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) أن الزواج من سنن المرسلين . . فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) قد تزوج وكذلك إسماعيل (عليه السلام) . . بل تزوج نبينا محمد ﷺ وقال عن الزواج إنه سنُّه ثم قال : «فمن رغب عن سنتي فليس مني» .
- (٢) أن الزوجة الصالحة هي التي تحمد الله على كل حال ولا تكلف زوجها فوق ما يطيق .
- (٣) أن على الوالد أن يتفقد حال أولاده ويطمئن عليهم وعلى دينهم . . ولقد رأينا كيف كان إبراهيم عليه السلام يسافر إلى ابنه إسماعيل (عليه السلام) ليتفقد أحواله ويطمئن عليه .
- (٤) أن المسلم لا بد أن يكون له بصمة في هذه الحياة . . بمعنى أنه لا بد أن تقدم أى خدمة لدينك ولوطنك . . فلقد رأينا كيف قام إبراهيم وإسماعيل برفع قواعد البيت ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا) وليكون قبلة للمسلمين .
- (٥) لا تفرح بأى عمل تعمله حتى تعلم هل قبله الله

منك أم لا؟... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

(٦) أن تحرص على أن تعيش على الطاعة وأن تموت على الطاعة... فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) بذل حياته كلها لخدمة دين الله وللدعوة إلى الله (جل وعلا) حتى آخر لحظة في حياته.

عبد الله (عليه السلام) ... * * * * *
عبد الله (عليه السلام) ... * * * * *

عبد الله (عليه السلام) ... * * * * *

(١) سورة المائدة: الآية: (٢٧) .

قصة لوط (عليه السلام)

* كان لوط - عليه السلام - معاصراً لإبراهيم - عليه السلام - وهو ابن أخيه وكان إبراهيم عليه السلام يحب لوطاً حباً شديداً.

* آمن لوط بعمه إبراهيم - عليهما السلام - واهتدى بهديه وسار على دربه، كما ذكر الله تعالى في القرآن: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

خرج لوط - عليه السلام - من أرض بابل في العراق مع عمه إبراهيم تابعا له على دينه مهاجراً معه إلى الشام... ثم مضوا إلى مصر... ثم عادوا إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط الأردن.

حقاً... إنهم قوم سوء

واستقر لوط (عليه السلام) بمدينة (سدوم)، وقد كان أهلها ذوى أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعففون عن

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢٦).

معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس، وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، فيجتمعون عليه من كل حذب وصوب، ويسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يندب حظه، ويبكى ضياع ماله، لا يرددهم عن ذلك دين، ولا يصددهم حياء، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

إنهم أناس يتطهرون!!

لقد دعاهم لوط - عليه السلام - إلى عبادة الله، ونهاهم عن تعاطي الفواحش، وإتيان الذكور وقطع السبيل... ولكن المفاجأة كانت كبيرة... لم يستجيبوا لدعوة الحق، ولم يؤمنوا بدعوة لوط، بل لم يؤمن منهم رجل واحد... ولم يتركوا ما نهوا عنه... بل استمروا على حالهم، وغرقوا في غيهم وضلالهم... وأصروا وامتنعوا عن قبول أى كلام... وتابعوا المسير في طريق المعاصي... وأعرضوا عن لوط وعن دعوته.

وقف سيدنا لوط عليه السلام بين قومه يدعوهم إلى الله

سبحانه وتعالى، قال لهم في رحمة ورفق: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٦١) إني
لكم رسول أمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١). ونهاهم لوط (عليه
السلام) عن الفواحش والمنكر، وبين لهم أن الإنسان العاقل
المبصر لا يرتكب الفاحشة، ولا يأتي المنكر أبداً، . . . قال
لهم مستكراً: ﴿أَنْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤) أنكم لتأتون
الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴿٢﴾. . .
ولكن القوم استكبروا، . . . ساءهم أن يكون بينهم
رجل طاهر لا يعصى الله ولا يرتكب الفواحش، كانت
نفوسهم مريضة، ظنوا أن الرجل النقي الطاهر هو رجل
لا ينبغي أن يعيش بينهم، فيكون جزاؤه الطرد والنفي
فتنادوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾ (٣).
وكان القوم يرتكبون الفواحش علانية في ناديهم، لم
يحاولوا أن يستتروا أو يداروا المنكر.
وجاهد لوط عليه السلام كثيراً، لينقذ قومه ويهديهم
إلى الحق، ولكن لم يؤمن به سوى أهله فقط، وللأسف

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٦١ - ١٦٣).

(٢) سورة النمل: الآيتان: (٥٤، ٥٥).

(٣) سورة النمل: الآية: (٥٦).

لم تؤمن به زوجته، رغم ذلك لم يئأس سيدنا لوط (عليه السلام)، كان يدعو قومه دون ملل سنوات طويلة.

وها هم يستعجلون العذاب

وبعد أن بذل نبي الله لوط (عليه السلام) كل ما يستطيع أن يبذله من وقته وجهده لإخراج هؤلاء المجرمين من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان. وإذا بهم قد طُبع على قلوبهم فلم يقبلوا أى سبب من أسباب الهداية فقد عميت أبصارهم عن رؤية الحق وعميت قلوبهم عن قبول الهدى.

فلما رأى لوط (عليه السلام) منهم ميلاً عن طاعته خوَّفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره، واستخفوا بوعيده، فآلح عليهم بالعظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يقلعوا عما كانوا فيه، بل ازدادوا تعلُّقاً به، ورغبة فيه، وتحدّوه أن يأتيهم بالعذاب، وينزل عليهم ما يستحقون من عقاب.

*** قال تعالى:** ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ

اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١).

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢٩).

رب انصرني على القوم المفسدين

سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين ويوقع بهم العذاب الأليم، وطلب منه أن يجزيهم على كفرهم وعنادهم، ويعاقبهم على بغيهم وفجورهم، فهم الداء الويل الذي يُخاف انتشاره، والعضو المريض الذي لا بد من استئصاله؛ ألم يعيشوا في الأرض فساداً؟ ألم يصدوا عن سبيل الله، ويصموا أذانهم عن طريق الخير، ويتكبروا سبل الهداية؟ استجاب الله دعاءه، وحقق سؤاله، وبعث ملائكته إلى أهل هذه القرية الظالم أهلها، لينزلوا بهم ما يستحقون من عقاب فمروا أولاً بدار إبراهيم فحسبهم عابري سبيل، فقدم إليهم خير ما يُقدم للأضياف، ولكن أيديهم لم تمتد إلى الطعام أو الشراب بل بشروه بمولد إسحاق (عليه السلام) وحاول إبراهيم أن يجادلهم، ليؤخر العذاب عن قوم لوط، لعل بعضهم يؤمن بالله، ولكنهم أفهموه أنه أمر الله، وأنه لن يؤمن منهم أحد.

قال المفسرون: لما خرج الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم،

في صور شبان حسان، اختبأوا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، انطلق أمامهم، وجعل يُعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك^(١).

امرأة لوط تدل القوم على أضياف زوجها

* بلغ لوطٌ وضيوفه بيته، وفي منزله هبط الضيوف، نزل هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بحسن الوجوه، وجمال الأشكال، لم يكن هناك في القرية من يعلم بقدوم هؤلاء غير لوط وامراته بالإضافة إلى ابنتيه.. لم يشعر بالضيوف أحدٌ من أهل القرية.. شكر لوطُ ربه وحمده على ذلك.

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٣٣، ٢٣٤) باختصار.

* رأت امرأة لوط هؤلاء الضيوف. جنّ جنونها. ماذا تفعل لتخبر قومها؟! إنه صيد ثمين، وستكون منزلتها عندهم كبيرة... يا لها من سعادة!

* من خلال الأحداث يبدو أن الضيوف الغرباء الذي يفدون على سدوم، كانوا ينزلون عند لوط - عليه السلام - وعندما تشعر امرأة لوط بأنّ أحداً قد طرق بابهم، تهرع إلى قومها وتخبرهم بمن عند لوط، فيسارع هؤلاء ليفسدوا أبشع أنواع الفساد الذي تأنف من فعله أخط الحيوانات، وليعتدوا على الأضياف بالفتك في شرفهم وأعراضهم، وبهذا كانت امرأة لوط تهيب لقومها سبل الفاحشة، وتساعدهم على ارتكاب الجريمة البشعة... جريمة اللواط.

* ولم تكتفِ امرأة لوط بكفرها، وخيانة دين الله الذي يدعو إليه زوجها، وإنما كانت تدل على لوط، وتغري به أكابر المجرمين ليكذبوه ويصدوه عن سبيل الله، وزادت من حجم جريمتها أنها كانت تفضي سرّه وتعاديه في دينه، وتبطن النفاق، ثم تظاهر على لوط (عليه السلام) لذلك لم يُغن لوط عنها على الرغم مما بينها وبينه من وصلة الزواج،... وحكم عليها في محكمة العدل

الإلهية بالنار، ومن قبلها امرأة نوح، وقد ذكرهما الله بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (١).

وجاءه قومه يهرعون إليه

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (٢).
 * بسرعة الرياح انتشر الخبر في القرية كانتشار النار في الهشيم، أشعلت امرأة لوط نارا ليعلم أهل القرية بخبر الأضياف، ثم تسللت وانسلت إلى قومها في ناديم لتخبر من لم يروا نارها التي أشعلتها، قالت لفوج منهم: إني رأيت رجالا لم أر أحسن منهم وجوهاً وهم عند لوط الآن .. وإن بناته هناك يعدون الطعام لهم، فهلموا قبل فوات الأوان .. ثم انتقلت إلى آخرين وقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤى مثلهم جمالا، ولا أطيّب رائحة، فأسرعوا قبل أن يرتحلوا.

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).

(٢) سورة هود: الآية: (٧٨).

وجاء القوم مسرعين، فخرج سيدنا لوط إلى قومه،
فطالبوه بالرجال الثلاثة الذين يستضيفهم في منزله، فوقف
يخاطبهم: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزَوْنِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾^(١)!

لقد كان يأوى إلى ركن شديد

وحاول قدر طاقته أن يحمي ضيوفه، ولكنه أدرك أنه
رجل وحيد، لن يستطيع أن يهزم رجال قومه كلهم.
وأسقط في يد لوط، وأحس ضعفه وهو غريب بين
القوم، نازح إليهم من بعيد، لا عشيرة له تحميه، وليس له
من قوة في هذا اليوم العصيب، وانفجرت شفتاه عن كلمة
حزينة أليمة: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢).
قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية - الذين جاء
الملائكة في صورتهم - وهم صغار صباح الوجوه؛
ولكنهم - في نظره - ليسوا بأهل بأس ولا قوة.

(١) سورة هود: الآية: (٧٨).

(٢) سورة هود: الآية: (٨٠).

فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيسجد بهم قوة. أو لو كان له ركن شديد يحتمى به من ذلك التهديد! وغاب عن لوط ففى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد. ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد»^(١)!

دخل لوط غاضباً وأغلق باب بيته، وضع المزلاج فى الباب ووقف يستمع إلى الضحكات والضربات التى تنهال على الباب. وقف لوط عليه السلام يرتعد وراء الباب حزناً وأسفاً، كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صامتين، يحف بهم جو من الجلال، ودُهِش لوط (عليه السلام) بينه وبين نفسه من هدوئهم، وزاد إحساسه بالألم؛ لأنهم وثقوا به واطمأنوا إليه، لا يعرفون أنه غير قادر على حمايتهم، وازدادت ضربات القوم على الباب، وصرخ لوط فى لحظة يأس خائق: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢).

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها وبلغ الكرب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٨٧)، ومسلم (١٥١).

(٢) سورة هود: الآية: (٨٠).

أشدّه . . كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى
 يأوى إليه: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (١)(٢).
 لا تجزع يا لوط ولا تخف، نحن من الملائكة، ولن يصل
 إليك هؤلاء القوم، انكسر الباب فجأة، واندفع الإعصار
 المحموم داخل بيت لوط عليه السلام، نهض جبريل عليه
 السلام، وأشار بيده إشارة سريعة، ففقد القوم أبصارهم،
 وراحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم
 يظنون أنهم يدخلونه، طمست إشارة جبريل عليه السلام
 أبصارهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
 أَعْيُنَهُمْ فَذُرُّوا عَذَابِي وَنُذِرُ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ (٣).
 التفتت الملائكة إلى لوط عليه السلام وأوصوه أن
 يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، ويسمعون أصواتاً
 مروعة تزلزل الجبال، لا يلتفت منهم أحد، كى لا يصيبه
 ما يصيب القوم، سبحانه الملك الجبار سبحانه، أى عذاب
 هذا؟ هو عذاب من نوع غريب!! يكفى لوقوعه بالمرء

(١) سورة هود: الآية: (٨١).

(٢) الظلال (١٩١٤/٤).

(٣) سورة القمر: الآيتان: (٣٧، ٣٨).

مجرد النظر إليه، أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين،
امرأته كافرة مثلهم وستلقت خلفها فيصيبها ما أصابهم.
اخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك، سأل لوط الملائكة:
أيُنزل الله العذاب بهم الآن، أنبأوه أن موعدهم مع
العذاب هو الصبح: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾^(١)؟!
قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا
يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٢)^(٣).

وهذا كله موجود في القرآن، والجديد الذي لم يُذكر في
القرآن أن الذي نجا من أهله من عذاب الله بناته الثلاث،
فسار بأهله إلى أرض الشام، فماتت ابنته الكبرى أثناء
مسيره في أرض الشام، فأخرج الله عندها عين ماء يقال
لها: الورية، ثم انطلق مبتعداً عن ديار المعذنين فماتت
الصغرى، وخرج في المكان الذي توفيت فيه عين ماء تدعى
الرعزية، ولم يبق من بناته معه إلا ابنته الوسطى^(٤).

(١)، (٢) سورة هود: الآية: (٨١).

(٣) ابن الإسلام (ص: ١١٣).

(٤) صحيح القصص النبوي (ص: ٦٥).

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (١) ﴾ .

قال العلماء: اقتلع جبريل عليه السلام، بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد، رفعها جميعاً إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة في السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلب المدن السبع وهوى بها في الأرض، أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم، حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضاً، ومعلمة بأسمائهم، كل واحد منهم يصيبه حجره الخاص به، نزل عليه خصيصاً من السماء فيهلكه فوراً، ومقدرة عليهم، استمر الجحيم يُمطرهم، وانتهى قوم لوط تماماً، لم يعد هناك أحد، نُكست المدن على رؤوسها، وغارت في الأرض، حتى انفجر الماء من الأرض، هلك قوم لوط ومُحيت مدنهم.

كان لوط عليه السلام يسمع أصواتاً مروعة، وكان الهواء خلفه يتمزق، وكان يحاذر أن يلتفت خلفه (٢).

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها

(١) سورة هود: الآيتان: (٨٢ ، ٨٣).

(٢) ابن الإسلام (ص: ١١٤).

خرجت مع زوجها وبناتها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

* ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (١١)﴾.

إنها آية باقية لم تندثر، يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهَا لَبِيبٌ مُقِيمٌ (٢)﴾.

أي بطريق مسلك إلى الآن، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (٣)﴾.

يعنى إنها آية ظاهرة، . . . قال العلماء: إن مكان المدن السبع، بحيرة غريبة، ماؤها أجاج (مالح)، وكثافة الماء أعظم من كثافة مياه البحر المالحة، وفي هذه البحيرة صخور

(١) سورة الذاريات: الآيات: (٣٥ - ٣٧).

(٢) سورة الحجر: الآية: (٧٦).

(٣) سورة الصافات: الآيتان: (١٣٧، ١٣٨).

معدنية ذائبة، توحى بأنها الحجارة التي ضُرب بها قوم لوط كانت شُهْبًا مشتعلة، ويقال: إن البحيرة الحالية التي نعرفها باسم «البحر الميت»، هي مدن قوم لوط السابقة.

انطوت صفحة قوم لوط، انمحت مدنها وأسماءهم من الأرض، سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء، وطُويت صفحة من صفحات الفساد، وتوجه لوط إلى إبراهيم، - زار إبراهيم عليه السلام - وقص عليه نبأ قومه، وأدهشه أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم، ومضى لوط عليه السلام في دعوته إلى الله، مثلما مضى الخليم الأواه المنيب إبراهيم عليه السلام في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى مضى الاثنان ينشران الإسلام في الأرض^(١).

* وستبقى بحيرة قوم لوط وآثار ديارهم عبرة للظالمين حيثما كانوا، وإن من أبشع أنواع الحمق أن يغفل المشركون المتجبرون في الأرض عن قدرة الله وشدة بطشه، ويركنوا إلى حولهم وقوتهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله جلّت قدرته الذي أهلك قوم لوط بثوان معدودات قادر على إهلاكهم وتمزيق ملكهم مهما قويت شوكتهم وكثر عددهم وتزايد

(١) ابن الإسلام (ص: ١١٤، ١١٥).

بطشهم . . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (١).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) حرص المسلم على أن يسيح في الأرض ليبلغ دين الله
(جل وعلا) للناس في أقطار الأرض . . فقد رأينا كيف أن
إبراهيم ولوطاً خرجا لتبليغ دعوة التوحيد في أقطار الأرض .

(٢) أن الذنوب إذا كثرت فإنها تُعمى القلب وتُظلم
البصيرة وتطمس الفطرة النقية . . فقد رأينا كيف أن
الرجل من قوم لوط بدلاً من أن يلجأ إلى الزواج الحلال
بامرأة عفيفة لجأ إلى فعل الفاحشة المحرمة مع رجل
مثله . . فكان ذلك سبباً لنزول العذاب الأليم بهم .

(٣) يود العاصي أن كل من حوله يفعل مثل معصيته
ليكونوا سواءً، فقد رأينا كيف أن قوم لوط كانوا يريدون
أن يكون الناس جميعاً على نفس المعصية التي يفعلونها .

(٤) أن أهل الفساد لا يطبقون رؤية أهل الإيمان
والتقوى؛ ولذلك قال قوم لوط عنه وعن بناته العفيفات

(١) سورة محمد: الآية: (١٠).

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (١).

(٥) أن من حقوق الضيف حمايته من الأذى ودفع المكروه والسوء عنه . . فقد رأينا كيف أن لوطاً (عليه السلام) أخذ يدافع عن ضيوفه حتى لا يصل إليهم مكروه؛ لأنه لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أنهم ملائكة وأنهم لا يقدر أحد على إيذائهم .

(٦) أن خيانة امرأة لوط لزوجها لوط (عليه السلام) لم تكن خيانة زوجية وإنما كانت خيانة في الدين والعقيدة فقد كانت كافرة على دين قومها وكانت تتآمر معهم ضد زوجها .

(٧) أن الله يُملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . فلقد رأينا كيف أنزل الله بأسه وعذابه الشديد بقوم لوط .

(٨) أن الأنساب تنقطع بين المؤمنين والكافرين ، فقد رأينا كيف أن العذاب نزل بامرأة لوط مع قومها لما كفرت بالله (جل وعلا) وكان من الممكن أن تكون مع زوجها لوط (عليه السلام) في أعلى درجات الجنة لو أنها آمنت بالله (جل وعلا) .

(١) سورة النمل : الآية : (٥٦) .

قصة شعيب (عليه السلام)

كان ياما كان . . . شعيب نول . . .
 كان هناك نبي كريم اسمه شعيب (عليه السلام) وكان
 يعيش في أرض إسمها مدين .
 شعيب عليه السلام من ذرية مدين أحد أولاد إبراهيم عليه
 السلام . . . وأمه بنت لوط عليه السلام . . . وقد كانت بعثته
 بعد لوط ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ ^(١) وقبل
 رسالة موسى . . . عليه السلام . . . لأن الله تعالى لما ذكر نوحاً
 ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً أعقب ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ
 بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ﴾ ^(٢) فدل على أن شعيباً
 كان من قبل زمن موسى وهارون عليهما السلام .

* كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم (مدين)
 التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي
 ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم
 بمدة قريبة، . . . ومدين قبيلة عرفت بهم، وهم من بني

(١) سورة هود: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٠٤).

مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل^(١). وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها. وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يخسون المكيال والميزان، ويُطففون فيهما، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص^(٢).

* وكانوا فوق ذلك يقطعون الطريق ويخيفون المارة ويُرهبونهم. فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد^(٣).

دعوة إلى التوحيد

وعلى الرغم من أن قوم مدين وقعوا فى مخالفات كثيرة إلا أن شعيباً (عليه السلام) بدأ معهم بأهم قضية فى

(١) تفسير الطبرى (١٦٦/٨).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٤٤).

(٣) قصص الأنبياء: (ص: ٢٤٤).

الكون كله.. ألا وهي قضية التوحيد والعقيدة؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الشرك فكان لا بد أن ينقذهم من الشرك أولاً ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى فينقذهم عن سائر المخالفات التي يقعون فيها.

*** قال تعالى:** ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١).

*** فالتوحيد هو أصل الأصول وهو الذى جاء به كل الأنبياء والرسول.** فوظيفة الرسل والأنبياء أن يُعبدوا الناس لله (عز وجل) كما قال ربعى بن عامر (لرستم): نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

بإلهة هتة إلهة هتة

دعوة خالصة

وكان شعيب (عليه السلام) يوضح لهم أنه لا يريد من وراء دعوته مالا ولا جاهاً ولا دنيا وإنما يريد أن يأخذ بأيديهم

(١) سورة الاعراف: الآية: (٨٥).

من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان .
 فدعوته خالصة ليس فيها شائبة من شوائب الدنيا الفانية .
قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ
 شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .
 * وهكذا يجب أن يكون كل داعية مخلص . لا يريد من
 وراء دعوته شيئاً من حظام الدنيا بل يريد وجه الله (جل وعلا)
 وعليه أن يتذكر قول النبي ﷺ - كما في الصحيحين - :
 "ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم" (٢) .

وها هو ينهاهم عن المنكر

وأخذ شعيب (عليه السلام) يواجه قومه بانحرافاتهم وهو
 يدعوهم بكل رحمة وشفقة فقد كان يستجيش مشاعرهم
 بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ (٣) وكأنه يقول لهم: أنا رجل منكم فلماذا
 لا تعبدون الله الذي خلقني وخلقكم لتفوزوا الفوز الكبير

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٧٦ - ١٨٠) .

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

(٣) سورة الاعراف: الآية: (٨٥) .

فى الدنيا والآخرة فأنا لا أريد لكم إلا الخير والسعادة .
فبدأ (عليه السلام) يواجههم بكل الآثام التى يفعلونها
فقال لهم : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ (١٨١) وَزِنُوا
بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمَ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ ﴿١﴾ .

* وقال لهم فى موضع آخر : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي



الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾ .

* ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى
معجزة تدل على صدقى ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ ﴾ أى : أتموا للناس حقوقهم

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨١ - ١٨٤) .

(٢) سورة الاعراف: الآيات: (٨٥ ، ٨٦) .

بالكيل الذى تكيلون به والوزن الذى تزنون به ﴿وَلَا تَبْخُسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى: لا تظلموا الناس حقوقهم ولا
تقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أى: لا
تعملوا بالمعاصى بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: ما أمرتكم به من إخلاص العبادة
لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد فى الأرض خير
لكم إن كنتم مصدقين لى فى قولى . . . ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ
صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: لا
تجلسوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل.

قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية
إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه
ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت
تفعله قريش مع رسول الله ﷺ (١).
﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: تريدون أن تكون السبيل معوجة
غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما
يقول الضالون فى هذا الزمان: «هذا الدين لا ينطبق مع
العقل»؛ لأنه لا يتماشى مع أهوائهم الفاجرة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ

(١) البحر (٤) / ٣٣٨.

كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ﴿١﴾ أَيْ: كُنْتُمْ قَلِيلَ مُسْتَضَعِفِينَ فَأَصْبَحْتُمْ كَثْرَةً
أَعَزَّةً فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ. ﴿٢﴾ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ... أَيْ: انظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ
السَّابِقَةِ حِينَ عَصَوْا الرُّسُلَ كَيْفَ انتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَاعْتَبِرُوا
بِهِمْ. ﴿٤﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥﴾.
أَيْ: إِذَا كَانَ فَرِيقٌ صِدْقُونِي فِيمَا جِئْتُهُمْ بِهِ وَفَرِيقٌ لَمْ يَصِدَّقُونِي
فَاصْبِرُوا حَتَّى يَفْضَلَ اللَّهُ بِحُكْمِهِ الْعَادِلِ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ.

عناد واستكبار

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١).
* لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك
عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردوا عليه على
سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا: أصلاتك تدعوك لأن
تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آبائنا؟ إن هذا لا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٧).

(٢) سورة هود: الآية: (٨٧).

يصدر عن عاقل ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أى :
وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان .
﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أى إنك لانت العاقل المتصف
بالحلم والرشد؟ فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا
- أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة، ومن صور
العبودية، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونهذ ما
يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ
شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من
شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفرق فيها
الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة^(١) .

فطنة وذكاء

فى هذه اللحظة أدرك شعيب (عليه السلام) أن قومه يسخرون
منه وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الدين لا دخل له بالحياة اليومية
وأنهم لهم الحق فى أن يتعاملوا بأى صورة محرمة فى البيع
والشراء وسائر المعاملات دون أن يتدخل الدين فى ذلك .
* لم يغضب شعيب (عليه السلام) لنفسه أبداً بل تلطف

(١) الظلال (٤/١٩١٩) .

معهم وتجاوز سخريتهم ولم يعاتبهم وانطلق في دعوتهم إلى الحق وإلى طريق الفلاح والنجاح ووضح لهم أنه على بينة من ربه وأنه يعرف طريق الحق والخير ويدعوهم إليه وهو في نفس الوقت لا يأمرهم بأمر وهو لا يفعله ولا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعاً من وراء ذلك.

كان عليه السلام قدوة حسنة

كان شعيب عليه السلام قدوة حسنة في سمو خلقه، ورجاحة عقله، وعفة نفسه، وعلو همته، وصفاء سريرته، فبعد أن دعا قومه إلى وحدانية الله تعالى، وإلى العدل والمساواة والرحمة قال بكل صدق وثقة: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١).

كأن لسان حاله يقول: يا قوم أنتم تعرفونني حق المعرفة، لقد ولدت وترعرعت بينكم، وأنتم أهل قريتي

(١) سورة هود: الآية: (٨٨).

وأقربائي وجيرانى .. وتعلمون بأننى لم أكن فى يوم من الأيام مفسداً فى الأرض، ولا صاداً عن سبيل الله، وقد رزقنى الله منه رزقاً حسناً، فما طففت الكيل والميزان، ولا ظلمت صاحب حق .. وأعمالى ترجمة أمينة لأقوالى، وليس فى خلقى اضطراب ولا تناقض أو انفصام، وقصارى القول فأنا أول المتمسكين بكل ما أمركم به، ولم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه.

﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾^(١): إننى لا أبغى من وراء هذه الدعوة مالا ولا جاهاً أو مغنماً، وكل الذى أريده إصلاح أمور دينكم ودنياكم .. وأنا أعلم جيداً بأن التوفيق والفلاح من الله وحده، ولهذا فقد توكلت عليه فى جميع أمورى، وإليه وحده أرجع فى كل ما نابى، وأنا لا أرجو منكم أجراً، ولا أخاف منكم ضرراً. ولأنه عليه السلام كان قدوة حسنة أعجب به وبدعوته نفر من قومه وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد آخر.

(١) سورة هود: الآية: (٨٨).

حرصه على هدايتهم

وما زال شعيب (عليه السلام) يجاهد معهم ويبذل كل طاقاته من أجل أن يأخذ بأيديهم إلى شاطئ النجاة ولكنهم كانوا في عمية عن رؤية الحق الذي كان أوضح من الشمس في وسط النهار.

فها هو يستجيش مشاعرهم مرة أخرى بقوله: ﴿يَا قَوْمُ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ فِي غَايَةِ الْحَرَصِ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قال تعالى مصوراً هذا المشهد أن شعيباً (عليه السلام) قال لهم: ﴿يَا قَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(١).

أى: لا تحملنكم عداوتي وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب. . . وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعنى: إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس^(٢) . . . أى: من وقت قريب.

(١) سورة هود: الآية: (٨٩).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٨).

يفتح لهم باب التوبة والمغفرة

ثم يفتح لهم - وهم في مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَذُوُودٌ﴾^(١). وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخضع وتلين. ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب^(٢).

تهديد ووعيد

وبعد كل هذا النصيح والشفقة وإذا بهم يقومون ويهددون شعيباً (عليه السلام): ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾^(٣).

(١) سورة هود: الآية: (٩٠).

(٢) الظلال (٤/ ١٩٢١).

(٣) سورة هود: الآية: (٩١).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (١) أى: قالوا لشعيب ما نفق على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به.

﴿وَأَنَا لَنُرَاكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ (٢) أى: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (٣) أى: ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ (٤) أى: لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجلك... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ (٥)؟ هذا توبيخ لهم أى: أتركوننى لأجل قومي ولا تتركوننى إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشيرتى أعز عندكم من الله وأكرم؟ ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ (٦) أى: جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٧) أى: إنه (جل وعلا) قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ (٨) تهديد شديد

أى: اعملوا على طريقتكم إنى عامل على طريقي؛ كأنه

(١)، (٢) سورة هود: الآية: (٩٢).

(٣) سورة هود: الآية: (٩٢).

(٤) سورة هود: الآية: (٩٣).

يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ (١) أى: سوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ (٢) أى: وتعلمون من هو الكاذب ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٣) أى: انتظروا عاقبة أمركم إننى منتظر معكم (٤).

درس لا يتسى

وهنا يعلمنا شعيب عليه السلام درساً لا تنساه الأجيال المؤمنة بالله ورسله . . نبى أعزل لا يملك جيشاً ولا جرساً يدافعون عنه، ومع ذلك تراه يواجه قومه بانحرافاتهم، ويهاجم أعرافهم وقوانينهم، يطالب بتغيير نظام حياتهم . . وتحتدم المعركة بينه وبينهم ويتناقل الناس داخل مدين وخارجها أخبار شعيب مع قومه، ويخشى المشركون من خطر مؤكد تزداد آثاره يوماً بعد آخر، ويتطلعون إلى قتل هذا الرجل الذى يخالفهم ليرتاحوا منه، ويطفثوا نيران المعركة التى أججها . . ولكنهم يتراجعون احتراماً وتقديراً

(١)، (٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٩٣).

(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٣٠ ، ٣١).

لذويه وعشيرته الذين لم يغيروا دينهم ولم يتبعوه . . ويمر
نبي الله بموقف فيه كثير من الحرج، فهو يعلم أنه لم يُرجم
بسبب عشيرته ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾^(١)، والاستفادة من
الأقرباء وارد في سير أنبياء الله ورسله وفي سير من تبعهم
من المصلحين والمجددين . . ومن منا لا يعلم دور بنى
هاشم وفي طليعتهم أبو طالب في نصرة خاتم الأنبياء
عليه السلام؟ . . لقد دافعوا عنه، ورفضوا تسليمه مع أنهم
كانوا مشركين ودافع كثير من المشركين في مكة عن
أقربائهم الذين أسلموا من أصحاب رسول الله وأجاروهم،
ومن أشهر هؤلاء المشركين المطعم بن عدي.

وعهدنا بالناس يفرحون إذا وجدوا من ينقذهم من
هلاك محقق، بل وبعضهم يتفاخرون بأقربائهم وعشيرتهم
إذا هابهم الناس من أجلهم ولو كانوا سفهاء مشركين، أما
نبي الله شعيب عليه السلام فقد أراد أن يفهم قومه وغير
قومه في عصره وفي كل عصر بأنه ليس من الذين
يحرصون على الحياة الدنيا، وليس من الذين يخشون

(١) سورة هود: الآية: (٩١).

الموت إذا كان الموت في سبيل الله (جل وعلا) . . والموت عند أنبياء الله ومن سار على نهجهم أمانة إذا كان من ورائه هداية الناس . . ولهذا صرخ شعيب عليه السلام في وجه قومه بكل حزم وقوة: ﴿أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١)(٢).

واستمروا في الوعيد والتهديد

وكانوا كل يوم يزدادون عنادًا واستكبارًا وإصرارًا على الكفر الذي عاشوا عليه حتى إنهم لم يعرفوا قدر هذا النبي الكريم ولا منزلته العالية السامقة.

ووصل بهم الأمر إلى نهايته . . فها هم يعرضون على شعيب (عليه السلام) إما أن يُطرد خارج البلاد، وإما أن يترك الإيمان والتوحيد ويدخل معهم في ملتهم الباطلة التي تقوم على الشرك بالله - عز وجل - .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ

(١) سورة هود: الآية: (٩٢).

(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (الجزء الثاني) (ص: ١٠٦).

آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْبَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿١﴾ .
 صدع شعيب بالحق، مستمسكًا بملته كارهًا أن يعود في
 الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها . . واتجه إلى ربه وملجئه
 ومولاه يدعوهُ ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله،
 ﴿قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (٢) .

أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في
 ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار، ﴿قَدْ
 افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ (٣)
 أي: إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان
 وبصرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع
 الكذب، وهذا تيسر للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وَمَا
 يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (٤) (٥) .

إنه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من
 أمره وأمر المؤمنين معه .

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٨) .

(٢) الظلال (٣/١٣١٨) .

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (٨٩) .

(٥) صفوة التفاسير (١/٤٥٩) .

* لقد علموا بأن القضية جدُّ وأن زعامتهم مُهددة فانتقلوا معه عليه السلام إلى مرحلة أخرى وأخذوا يتحدثون فيها عن العنف والإرهاب، وراحوا يهددون نبي الله والذين آمنوا معه بالرجم والنفي والقتل، وظنوا أنهم سوف يعودون إلى دين قومهم وتهداً العاصفة، ويتلاشى الخطر. وكان شعيب عليه السلام يعلم بأن قومه لا يمزحون، وسوف ينفذون تهديدهم عند الضرورة، ورغم ذلك فقد خيَّب ظنهم عندما قال لهم: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (١).

لا:

- لن نعود إلى ملة الظلم والبخس والصد عن سبيل الله.
- لن نعود إلى ملة الذين ييغونها عوجاً في الأرض.
- لن نعود إلى ملة الملأ الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم.
- لن نعود بعد أن هدانا الله (جلَّ وعلا) إلى صراطه

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

المستقيم، وسوف نمضي في تبليغ دعوتنا، وعليه وحده جل وعلا وتوكلنا فهو يكفينا أمر تهديدكم، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١). ولن نقصر في القيام بكل ما أوجبه الله علينا من الأحكام الشرعية ومن الأخذ بالأسباب.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٢). ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقين المصلحين، والمبطلين المفسدين في الأرض، وأنت خير الحاكمين، لإحاطة علمك بما يقع به الخصام، وننزلهك عن الظلم، واتباع الهوى في الحكم (٣).

عندئذ يتوجه الملائكة الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (٤).

(١) سورة الطلاق: الآية: (٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

(٣) تفسير المنار (٩/٩) نقلاً من منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٩٠).

إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير . . إن الظالمين يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يُرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل . . تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب . . إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمُصرين على الإيمان ، الذين أخلصوا دينهم لله^(١) .

وها هم يستعجلون نزول العذاب

وكعادة الأمم الكافرة فإنهم لا يعرفون قدر عظمة الله - عز وجل - ولا يخشونه حق الخشية ؛ ولذلك نجدهم يستعجلون نزول العذاب ظناً منهم أنه لا يقدر أحدٌ على عذابهم حتى ولو كان فاطر السماوات والأرض -

(١) الظلال (٣/ ١٣٢٢) .

جل وعلا- ١١ - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .
فها هم يقولون لشعيب (عليه السلام) : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .
قال ابن كثير - رحمه الله - : يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، . . تشابهت قلوبهم فقالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى: المسحورين ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى: تتعمد الكذب وإنك لست مرسلًا ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى: أسقط علينا قطعاً من السماء، . . . قالت قريش وأخبر عنهم الله تعالى فى قوله عز وجل: ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى أن قالوا . . . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٢) وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة: ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ . . . ﴾ (٣) .

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٥ - ١٨٧) .

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٩٠) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣ / ٣٤٧) .

وها هنا انتهى الحوار

وها هنا انتهى الحوار، ولم يعد يجدى مع أهل مدين نصح ولا إرشاد، واستفرغ نبي الله وسعه، وبذل أقصى ما وهبه الله جل وعلا من جهد و طاقة، ولم يستجب له إلا نفر قليل من قومه.

ولما يئس من هدايتهم إلى الحق، وتبين إصرارهم على الكفر استنصر ربه عليهم، ودعاه أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم، وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من عذاب؛ ولكن القوم عن الحق لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعما خبأ لهم القدر منصرفون، فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكلام على من ظنهم مستضعفين، وخوفهم الخسران إن تركوا الظلم وعاملوا الناس بالقسط، وهددوهم بالخراب إن لم يطفقوا الكيل والميزان، وحذروهم من الفقر إن لم يبخسوا الناس أشياءهم، ويعيشوا في الأرض مفسدين^(١).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾^(٢).

(١) قصص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ١٥٥).

(٢) سورة الاعراف: الآية: (٩٠).

أى: قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى.

وها هو مشهد نزول العذاب

فاستجاب الله - عز وجل - دعاء شعيب - عليه السلام -، وأزره بنصره، وابتلاهم بالحر الشديد، فكان لا يروى ظمأهم ماءً، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل، ... ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١)﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ (٢)﴾.

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٩ - ١٩١).

(٢) سورة هود: الآيات: (٩٥، ٩٤).

أى: ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعباً المؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(١) أى: وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب . . صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾^(٢) أى: موتى هامدين لا حراك بهم.

قال ابن كثير: وذكر ههنا أنه أتتهم (صيحة)، وفى الأعراف (رجفة)، وفى الشعراء (عذاب يوم الظلة)، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها.

*** وقال تعالى فى سورة الأعراف:** ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾^(١).

فها هنا ذكر تعالى أنهم أخذتهم رجفة، أى: رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزلاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم هامدة، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.



(١) سورة الأعراف: الآية: (٩١).

جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وأشكالاً من البليّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات... وصيحة عظيمة أختمدت الأصوات، وظُلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

*** وقوله:** ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١) ذكروا أنهم أصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب^(٢)، فهربوا من محلّتهم إلى البرية، فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح.

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٨٩).

(٢) الأسراب: جمع سرب وهو القناة الجوفاء وجحور الثعالب والأسود وغيرها، والمراد أنه لا ينفعهم دخولهم في تلك الأماكن.

ويسدل الستار على تلك الأمة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).
 ففى ومضة ها نحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين،
 لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمرُوا هذه الدار، وكأن لم
 يكن لهم فيها آثار! ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَّبِّي نَصَحْتُ
 لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٢)(٣).
أى: أعرض عنهم موليا عن محلّتهم بعد هلكتهم
 قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَّبِّي نَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد
 أديت ما كان واجبا على من البلاغ التام والنصح الكامل،
 وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه،
 فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من
 ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم
 تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٩٣).

(٣) الظلال (٣/ ١٣٢٢).

* ويسدل الستار هنا على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة، ليرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلعت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمرها حيناً من الدهر. مضوا مثلهم مشيعين باللعنة، طويت صفحاتهم في الوجود وصفحهم في القلوب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ (٩٥)﴾.

وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد (٩٥).

(١) سورة هود: الآيتان: (٩٤، ٩٥).

(٢) الظلال (٣/ ١٩٢٣).

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) أن الحياة لا تستقيم إلا إذا عاش أهلها على شرع الله وسنة رسول الله ﷺ .
- (٢) أن الدين لا بد أن ينظم كل شؤون حياتنا من المعاملات والسلوكيات والأخلاقيات والآداب لأن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (١) .
- (٣) أن الداعية الصادق لا بد أن يهتم في دعوته بالتوحيد والعقيدة أولاً لأن التوحيد هو أصل الأصول وهو الذي جاء به كل الأنبياء والرسل ... فلا يقبل الله من عبد أى طاعة إلا إذا كان موحداً .
- (٤) أن من يريد أن يدعو قومًا فلا بد أولاً أن يتألف قلوبهم وأن يثنى على بعض جوانب الخير التي يراها فيهم حتى يتألف قلوبهم فيكون ذلك باباً للدخول إليهم واستمالة قلوبهم للخير والهدى .
- (٥) ينبغي على المسلم إذا رأى منكراً أن يغيره ولكن لا بد أن يكون التغيير بحكمة ورحمة حتى لا يفسد من

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٨) .

حيث يريد أن يُصلح. **الهمة في التمسك بما روي**

(٦) إذا دعوت إنساناً فأراد أن يسخر منك ليصرفك عن دعوتك فلا تلتفت لتلك السخرية واستمر في دعوته إلى الله ولا تغضب لنفسك أبداً. **الهمة في التمسك بما روي**

(٧) أن تطفيف الكيل يمنع المطر ويستجلب الشدائد. **الهمة في التمسك بما روي**

*** قال ﷺ:** «يا معشر المهاجرين! خصالٌ خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سَلَطَ الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أنمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» ^(١).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٠١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

* ولشدة خطر هذا الأمر، كان عمر رضي الله عنه يتجول في السوق بنفسه، ويتفقد المكيال والميزان ويُخرج من السوق من يجد في مكياله أو ميزانه نقصاً ويقول: لا تمنع عنا المطر.

(٨) ينبغي للمسلم والداعية الصادق ألا يخالف قوله فعله.. فلا يأمر قومه بالكرم وهو بخيل ولا يأمرهم بالصدق وهو غير صادق بل ينبغي أن يكون فعله موافقاً لقوله.. وتلك هي التربية بالقُدوة.

(٩) أن الدعاة هم أكثر الناس تعرضاً لهجمات المفسدين الذين يصدون عن سبيل الله ويريدون أن يصبح المجتمع كله فاسداً بل وقد يصل الأمر أحياناً للتهديد والبطش إن استمر الدعاة الصادقون في دعوتهم الكريمة.. فعلى الدعاة أن يصبروا ويحتسبوا ذلك عند الله.

(١٠) إن حلم الله على الكافرين يجعلهم أحياناً يظنون أنهم لن يصل إليهم شيء من بطش الله وعذابه ولكن الله يُمهّلهم ولا يعجل عليهم حتى إذا أخذهم فإنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.. فقد رأينا كيف أن الله أمهل قوم مدين حتى إذا أخذهم سلط عليهم أنواعاً من العذاب.

قصة يعقوب ويوسف (عليهما السلام)

حبايى الحلوين .. أتريدون أن تعرفوا من هو سيدنا يعقوب (عليه السلام)؟ هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم الصلاة والسلام) واسمه أيضاً إسرائيل وهو أبو الأسباط فهو والد يوسف (عليه السلام) والأسباط الإثنى عشر .. وكل أنبياء بنى إسرائيل كانوا من نسله .. وآخرهم عيسى (عليه السلام).

*** وتعالوا بنا لنبدأ القصة من أولها:**

لقد أنجب نبي الله إبراهيم (عليه السلام) ولداً من سارة فسماه إسحاق، ولما كبر إسحاق جعله الله نبياً من الأنبياء .. وتزوج إسحاق (عليه السلام) وأنجب ولداً سماه يعقوب. فعاش يعقوب بين نبيين كريمين وهما جده إبراهيم (عليه السلام) وأبوه إسحاق (عليه السلام). ولما كبر يعقوب أكرمه الله بنعمة النبوة فصار نبياً كريماً (عليه السلام).

*** وتزوج يعقوب (عليه السلام) وأنجب اثني عشر ولداً كان**

أصغرهم يوسف وبنيامين وكان يعقوب (عليه السلام) يعطف عليهما وذلك لموت أمهما وكذلك لأنهما أصغر أولاده.. وكان سائر الأبناء من أم أخرى غير أم يوسف وبنيامين.

* ولقد عانى سيدنا يعقوب (عليه السلام) من كثرة الابتلاءات وكان أشد تلك الابتلاءات ما حدث لابنه يوسف (عليه السلام).. ومع ذلك كان راضياً بقضاء الله (جل وعلا) صابراً صبراً جميلاً.

فكان الجزاء الجميل أن الله جمع بينه وبين ابنه يوسف (عليهما السلام) بعد فراق استمر أربعين سنة.

* ولذلك فأنا سوف أتناول قصة يوسف ويعقوب (عليهما السلام) سوياً وذلك لأنها تُعتبر قصة واحدة اشترك في أحداثها يعقوب ويوسف (عليهما السلام).

الرؤيا التي رآها يوسف (عليه السلام)

وتبدأ القصة بأن يوسف (عليه السلام) كان غلاماً صغيراً فنام ذات ليلة فرأى في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له.

فتعجب يوسف من تلك الرؤيا وأحس بأن هذه الرؤيا تحمل بشرى كبيرة.

فما كان منه إلا أن ذهب في التو واللحظة إلى أبيه يعقوب (عليه السلام) وانتظر حتى ذهب إخوته وبقي وحده مع أبيه يعقوب (عليه السلام) وبدأ يحكى له تلك الرؤيا التي رآها في منامه.

فلما سمع يعقوب من يوسف (عليهما السلام) تلك الرؤيا علم أن يوسف سيكون له شأن عظيم وسينال منزلة عظيمة وربما تكون هذه الرؤيا بشرى بأنه سيكون نبياً.

* فما كان من يعقوب إلا أن نصح يوسف (عليهما السلام) بأن لا يقص رؤياه على إخوته خوفاً من أن يحسدوه ويحقدوا عليه ويكيدوا له المكائد وذلك لأن يعقوب (عليه السلام) كان قد تزوج بامرأة وأنجب منها عشرة أولاد ثم تزوج بامرأة أخرى وأنجبت له يوسف وبنيامين، وهما أصغر أولاده ولذلك فإن هؤلاء العشرة كانوا يتآمرون دائماً على يوسف وبنيامين لأنهما من أم أخرى ولأنهما كانا صغيرين وضعيفين.

* ولذلك نصحه أبوه بكتمان الرؤيا ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

وكذلك يجتبيك ربك

وبعد أن حذر يعقوب ابنه يوسف (عليهما السلام) من أن يقصص رؤياه على إخوته أحس أن يوسف قد أحس بشيء من الخوف والفرع فأراد أن يطمئن قلبه ويوضح له حقيقة تلك الرؤيا فقال له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ (٢) أى: وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (٣) أى: يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (٤) أى: يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ (٥) أى: كما أكمل

(١) سورة يوسف: الآية: (٥).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٦).

(٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٦).

النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١) أى: عليم بمن هو أهل للفضل، حكيم فى تدبيره لخلقهِ (٢).

اجتماع طارئ

وفى يوم من الأيام اجتمع إخوة يوسف - العشرة غير الأشقاء - فى اجتماع طارئ يتحدثون عن يوسف (عليه السلام). ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣).

* **أى:** نحن جماعة ذات عدد وقوة نقدر على أن ننفع أبانا وندفع عنه الضرر فلم يحب يوسف وبنيامين أكثر منا؟ ونحن الذين نستطيع أن ننفعه بخلاف هذين الغلامين الصغيرين. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤) أى: إن أبانا قد أخطأ بحبه ليوسف وبنيامين أكثر من حبه لنا. فهم لم يقصدوا أن أباهم قد ضل فهم يعرفون أنه نبي كريم.

(١) سورة يوسف: الآية: (٦).

(٢) صفوة التفاسير (٢/٤٢).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٨).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٨).

ها هم يدبرون المؤامرة لقتله

وفجأة قام واحد من هؤلاء العشرة واقترح عليهم اقتراحاً لحل هذه المشكلة فقال: ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾^(١).

أى: تخلصوا من يوسف بالقتل أو اذهبوا به إلى مكان بعيد عن عين أبيكم حتى لا يراه وبذلك يهتم بكم ويفرغ قلبه لكم. * وتأمل معي كيف تمكّن الحسد من قلوبهم حتى وصل بهم الأمر إلى أن يفكروا في قتل أخيهم الصغير الضعيف حتى لا يراه أبوه فينساه فيوجه حبه كله لهم. . ثم يتوبون عن جريمتهم بعد ذلك. . ولذلك قال لهم بعدها: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(٢).

أى: أنكم إذا قتلتم يوسف فلا تشغلوا أنفسكم بالذنوب فإنكم سوف تتوبون إلى الله (جل وعلا) وتصبحون بعد ذلك قوماً صالحين.



(١) سورة يوسف: الآية: (٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩).

لا تقتلوا يوسف

وهنا قام واحد منهم وقال لإخوته: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَنفَرُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١).

يعنى: إذا كنتم تريدون التخلص من يوسف فلا داعي لقتله ولكن تعالوا بنا نأخذه إلى مكان بعيد ونلقيه في بئر من الآبار التي تمر عليها القوافل فإذا وجدوه فإنهم سيرحلون به بعيداً وبذلك يختفى من أمام أبيكم ونفوز نحن بمحبة أبينا. * وهنا وافقه إخوته على فكرة الإلقاء في البئر بدلاً من القتل وهذا دليل على أن في قلوبهم بعض الخير وأن الخير لم يمت في قلوبهم فهم أبناء نبي ونشأوا نشأة طيبة.

مراودة ماكرة

وهنا بدأ يفكر إخوة يوسف (عليه السلام) في حيلة ماكرة ليتمكنوا من خلالها أن ينتزعوا يوسف من حضن أبيه ويتخلصوا منه إلى الأبد.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (٢).

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١١).

يا أبانا لماذا تخاف على يوسف منا ونحن إخوته ونحب له الخير وننصح له ونرعاه؟
﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

أى: أرسله معنا غداً إلى البادية ليأكل من كل ما لذ وطاب ويلعب بين الخضرة والأشجار والثمار فهذا أفضل لصحته . . ونحن نتعهد لك بحفظه من كل سوء ومكروه .

* **فرد عليهم أبوه يعقوب (عليه السلام) قائلاً:** ﴿إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (٢).

قال: إن فراق يوسف يؤلمنى ويجلب لى الحزن والألم . . وفوق ذلك فإنى أخاف أن تغفلوا عنه فيأكله الذئب وهو صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

* **قالوا لئن أكله الذئب ونحن غصبنا إننا إذا لخاسرون﴾** (٣).

قالوا له: نحن عشرة من الشباب الأقوياء ولن يستطيع الذئب أن يصل إليه أبداً فلو وصل إليه الذئب وأكله فلا خير فينا وإننا إذا لخاسرون كل شيء فلا نصلح لشيء أبداً .

(١) سورة يوسف: الآية: (١٢).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٣).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٤).

* وهكذا استسلم الوالد المسكين ونزل على رغبة أولاده ليتحقق قدر الله ويفقد يعقوب ولده يوسف أربعين سنة.

يوسف (عليه السلام) .. ومحنة الجُب

والآن لقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء .. والله سبحانه يُلقى في روع الغلام أنها محنة وتنتهى، وأنه سيعيش وسيُذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو... قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

فلما ذهب إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ (٢) أى إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل البئر وقد أخذوه من



(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٥).

عند أبيه وهم يُظهرون له الإكرام شرحاً لصدرة، وإدخال السرور عليه... فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبله ودعا له. فما أن تواروا عن أعين أبيه إلا وشرعوا يؤذونه شتماً وضرباً ثم ربطوه بحبل ودلّوه في الجب. فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه. ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره. فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وإنزاله اليسر حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً وسينصرك الله عليهم ويُعَلِّيك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع... وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) أي: وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك (٣).

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٥).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٤، ٤٧٥).

وجاءوا أباهم عشاءً يبكون

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (١).

* لقد انتظر إخوة يوسف حتى جاء الظلام وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون وذلك لأن الكذب يظهر في العينين ولذلك جاؤوا إلى أبيهم عشاءً حتى لا يظهر الكذب في أعينهم.

* لقد استولى الحقد على قلوبهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن يصبروا على تنفيذ جريمتهم . . . وكان من الممكن أن يأخذوا يوسف (عليه السلام) مرتين أو ثلاثة ليلعب ويأكل ثم ينفذوا جريمتهم لكنهم كانوا متعجلين في تنفيذ جريمتهم .

* وكذلك فقد كانوا يفكرون: ماذا يقولون لأبيهم إذا رجعوا إليه فلما قال لهم: إنه يخاف على يوسف من الذئب التقطوا منه هذه الفكرة فلما ألقوا يوسف في البئر قالوا له: أكله الذئب.

* ولكنهم بسبب تسرعهم جاؤوا على قميص يوسف

(١) سورة يوسف: الآيات: (١٦ - ١٨)

بدم كذب ونسوا أن يمزقوا قميص يوسف فكان هذا أكبر دليل على كذبهم وعلى أن يوسف لم يأكله الذئب .

* فلما رأى يعقوب قميص يوسف سليماً ولكنه ملطخ بالدماء علم أن يوسف مازال حياً ولكنهم دبروا له مكيدة وتخلصوا منه فأخبرهم بأنه قد علم الحقيقة وأنه سيصبر صبراً جميلاً حتى يعود إليه يوسف .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

خروجه عليه السلام من الجب

وتعالوا بنا لنرجع مرة أخرى إلى يوسف (عليه السلام) لنرى ما حدث له في ذلك الجب .

لقد كان الجب على طريق القوافل ، التي تبحث عن الماء في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ (٢) أى : قوم مسافرون مروا بذلك الطريق . .

(١) سورة يوسف : الآية : (١٨) .

(٢) سورة يوسف : الآية : (١٩) .

قصص الانبياء للأطفال



جاء قوم يسبرون من مدين إلى مصر فأخطؤوا الطريق .
فأخذوا يبحثون عن الماء حتى وصلوا إلى الأرض التي
فيها الجُب . . وكان الجُب في مكان بعيد عن العمران .
فأرسلوا رجلاً ليأتي إليهم بالماء فلما أدلى الدلو في
البئر . . . وكان يوسف (عليه السلام) في ناحية من قعر
البئر تعلق بالحبل فخرج فلما رأى الرجل حُسنه وجماله
قال : يا بشرى هذا غلام .

﴿وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً﴾ (١) أى : أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه
في أرض مصر متاعاً كالْبضَاعَةِ .

* وكان إخوة يوسف يراقبون الموقف من بعيد . . فلما
وجدوا الناس قد أخذوه ذهبوا إليهم وقالوا لهم : هذا غلامنا
قد هرب منا فإن أردتم أن تشتروه فادفعوا ثمنه ولو كان قليلاً .
فقام هؤلاء السيارة ودفعوا لإخوة يوسف مبلغاً يسيراً

(١) سورة يوسف : الآية : (١٩) .

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (١).

* وهكذا خرج يوسف (عليه السلام) من الحب وانتهت المحنة الأولى في حياته لتبدأ المحنة الثانية . . .
تُرى ما هي المحنة الثانية؟
هذا ما سنعرفه في الصفحات القادمة.

وها هو يُباع لعزير مصر

وهنا تبدأ الحلقة الثانية من حلقات القصة وقد وصل يوسف (عليه السلام) إلى مصر وباعوه في سوق الرقيق فاشتراه عزير مصر وهو الذي بيده خزائن البلاد.
﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٣) . . . أي وكما قيضنا عزير مصر وامرأته يُحسنان إلى يوسف (عليه السلام)

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٠).

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢١).

ويعتنيان به فكذاك سنمكن ليوسف في أرض مصر ﴿وَنُعَلِّمُهُ
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (١) أى: سنعلمه تأويل وتعبير الرؤيا
وسيكون تعبیر الرؤيا سبباً لخروجه من السجن بعد ذلك
ولقربه من ملك مصر وليكون عزيزاً على مصر بعد ذلك .
ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

وكذلك نجزى المحسنين

وهكذا مكّن الله (جل وعلا) ليوسف في الأرض . .
فها هو يتربى في بيت عزيز مصر ليتعلم على يديه علم
الاقتصاد لأنه سيكون قريباً عزيز مصر دون أن يدري أنه
سيصل إلى تلك المكانة العالية .
- وكذلك سيعلمه الله علم تأويل الرؤيا؛ لأن الملك
سيحتاج إليه في تأويل رؤيا وسيكون ذلك سبباً لأن
يجعله الملك عزيز مصر .

(١) ، (٢) سورة يوسف: الآية: (٢١) .

*** قال تعالى:** ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

أى: لما استكمل عقله وخلقه وبلغ الحلم وكان ذلك فى سن الثمانى عشرة آتاه الله النبوة وعلمه الحكمة وحسن التقدير ومعرفة أحوال الناس وجعله فى قمة الجمال الخلقى والخلقى.

- وأسكن حبه فى قلب عزيز مصر فكان يعامله وكأنه ابنه من صلبه وجعله مسئولاً عن بيته وقال لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (٢).

امراة العزيز .. والمحنة الثالثة

وهنا تبدأ المحنة الثالثة ليوسف (عليه السلام) وهى أشد وأخطر محنة سيتعرض لها نبي الله يوسف (عليه السلام).
* فنحن نعلم أن الله قد أعطى يوسف (عليه السلام) شطر الحسن والجمال البشرى فكان جميل الخلقة بشكل لا يخطر على قلب بشر .. وكان من أحسن الناس أخلاقاً

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٢).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢١).

ومن أجملهم حديثاً فكان ينال إعجاب كل الناس من حوله .
ولكن كان أشد الناس إعجاباً به امرأة العزيز . . ولما كان
الناس جميعاً في بيت العزيز يعاملونه وكأنه ابن من أبناء
عزيز مصر فقد اقتربت منه زوجة العزيز أكثر مما ينبغي
فأحبته ووقعت في عشقه وأرادت منه أن يفعل معها الفاحشة
وظلت تراوده على ذلك لفترات طويلة ولكنه كان يرفض
ذلك ؛ لأنه نبي كريم لا يمكن أن يقع في أى شيء يُغضب
الله (جل وعلا) ولذا قال لها صراحة : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنُ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١) ، أى : إن زوجك هو
سيدى العزيز الذى أكرمنى وأحسن تعهدى فكيف أسىء إليه
بالخيانة فى حرمه ؟ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢) .

لم يهم يوسف (عليه السلام)

بامرأة العزيز

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣) .

(١) ، (٢) سورة يوسف : الآية : (٢٣) .

(٣) سورة يوسف : الآية : (٢٤) .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

رَبِّهِ...﴾ (١) الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم يبين براءته ﷺ من الوقوع فيما لا ينبغي.

*** فبقوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

رَبِّهِ﴾ (٢)، قال عنها العلماء: إن الآية فيها تقديم وتأخير بمعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، يعنى: أنه لم يهم بها أصلاً.

*** ويوضح الله لنا ذلك بقوله:** ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣) فهذه الآية تثبت أن يوسف عليه السلام من عباد الله المخلصين. . وقد قال الله تعالى لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٤)، وإبليس نفسه يعلم ذلك وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥) (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٥) . ومن هنا نعلم أن

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٤) سورة الحجر: الآية: (٤٢).

(٥) سورة ص: الآيتان: (٨٢، ٨٣).

الشیطان لیس له سلطان علی یوسف (علیه السلام).
 * فیوسف (علیه السلام) تعرض لإغراء طویل ومع ذلك کان عنده نصیب کبیر من التقوی یمنعه من فعل أى شیء یغضب الله (جل وعلا) . . ولم ولن یتمکن إبلیس من أن یغوی نبی الله یوسف علی فعل أى شیء یغضب الله (عز وجل) .

واستبقا الباب

ولما اشتدت مراودة امرأة العزيز لیوسف (علیه السلام) أراد أن یهرب منها ویبتعد عنها فأسرع نحو الباب لینجو من کیدها لكن امرأة العزیز أخذت تجرى خلفه لتدركه قبل أن یمخرج فلحقته وشدته من قمیصه من الخلف لتجذبه إلیها کى لا یمخرج .

قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ (١)
 یعنى: قطعت قمیصه من الخلف وهنا حدثت المفاجأة وجاء الفرج . . فقد جاء زوجها فجأة علی غیر موعد ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ (٢) .

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية (٢٥).

* فعلى الرغم من أنها أحكمت إغلاق الأبواب إلا أنها فجأة وجدت زوجها أمامها وهي تطارد يوسف (عليه السلام).
* فما كان من امرأة العزيز إلا أنها بادرت باتهام يوسف (عليه السلام) قبل أن يتهمها زوجها وتظهر الحقيقة.
﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

- هكذا في لحظة انقلب الوضع... أصبح الظالم مظلوماً والبريء متهماً!!
- بل لقد أصدرت الحكم أيضاً في نفس اللحظة بالسجن أو العذاب وذلك لأنها كانت تحب يوسف ولا تريد أن يموت بل تريد أن يبقى على قيد الحياة.
* فقام يوسف (عليه السلام) بدافع عن نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَأَوْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ (٢) هكذا لم يتكلم كلاماً كثيراً لأن الحق لا يحتاج إلى كثرة الكلام ولا إلى تمثيل ولا إلى كلام معسول.

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٥).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٦).

وشهد شاهد من أهلها

وهنا جاءت النصرة ليوسف (عليه السلام) بشهادة واحد من أهل امرأة العزيز حتى لا يظن أحد أنه يجامل يوسف (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلُ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾.

لقد أمرهم الشاهد بأن ينظروا في قميص يوسف (عليه السلام) فإن كان القميص ممزقاً من الأمام فمعنى ذلك أنها صادقة، وأنه هو الذي كان يريد أن يعتدي عليها وهي كانت تدافع عن نفسها... وإن كان القميص ممزقاً من الخلف فمعنى ذلك أنها كاذبة وأنها هي التي كانت تجري خلفه فقطعت قميصه من الخلف، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كِيدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ (٢٧).

أى لما تأكد زوجها (عزيز مصر) أنها هي التي كانت تراوده وهي التي قطعت قميصه من الخلف وعلم أنها

(١) سورة يوسف: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

حاولت أن تخونه قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ .
 * والعجب في هذا الموضوع أن زوجها (عزيز مصر) لم
 يغضب ولم يضربها أو يفعل أى شئ سوى أنه قال لها هذه
 الكلمة ثم التفت إلى يوسف (عليه السلام) قائلاً له: ﴿يُوسُفُ
 أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (١) يعنى: اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد حتى
 يستطيع عزيز مصر أن يحافظ على مظهره الاجتماعي .
 ثم قال لامرأته التى ضُبطت متلبسة بمراودة يوسف (عليه
 السلام): ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢) .

وشاع الخبر فى المدينة

لقد انتهى هذا الموقف ولكن عزيز مصر لم يحسم
 القضية بل ترك الفتنة قائمة كما هى فلم يفصل بين زوجته
 وبين يوسف (عليه السلام) .
 - وكل ما كان يشغله ألا يتكلم أحد فى هذا الموضوع
 أبداً .
 - لكن هذا الحادث انتشر فى المدينة كلها وذلك من

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية (٢٩) .

خلال الخدم والخدامات والوصيفات... فقد تسرب الخبر إلى قصور الطبقة الراقية. ومن المعلوم أن نساء هذه الطبقة الراقية يعانين من الفراغ ولذلك يجدن من الحديث واللهو والكلام عن الفصائح لذة شديدة. **قال تعالى:** ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١).

وبدأ الخبر ينتقل من بيت إلى بيت حتى وصل لامرأة العزيز أن نساء المدينة يذكرون قصة مراودتها لفتاها في كل مكان.

نساء الأمراء والكبراء يقطعن أيديهن

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا﴾ (٢).

لما علمت امرأة العزيز أن نساء الطبقة الراقية يذكرون قصة مراودتها لفتاها يوسف في كل مكان قررت في التو واللحظة أن تعد مأدبة كبيرة في قصرها.

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣١).

وأعدت لهن المأدبة وجهزت لهن الوسائد والحشايا وصنعت لهن ألواناً من الطعام والشراب والفاكهة وجهزت السكاكين بجوار الفاكهة.

فلما أكلن الطعام قدمت لهن الفاكهة وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم وتقشير الفاكهة دخلت امرأة العزيز وطلبت من يوسف (عليه السلام) أن يخرج عليهن في تلك اللحظة.

فلما دخل يوسف عليهن ورأينه ﴿أَكْبَرُهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾^(١)، أى: أعظمته وأجللته وهبته، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بنى آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح.

فلما أحسن جعلن يولولن، فقالت امرأة العزيز: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا.. فكيف ألام أنا؟

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد ما رأينا.

* لقد أصيبت كل امرأة بذهول عجيب من شدة جمال

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٣١).

يوسف (عليه السلام) ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ﴾ (١).

فانظرون ماذا لقين منه من البهر والدهش والإعجاب! (٢).
ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (٣) أى: امتنع ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لِيَسْجَنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ (٤).

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥).

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٢).

(٢) الفللال (٤/ ١٩٨٥).

(٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٣٢).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

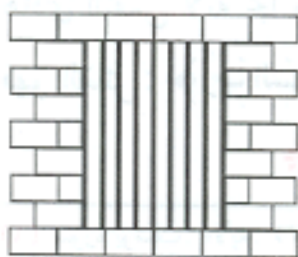
يعنى: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لى من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وحطتني بحولك وقوتك. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١)(٢).

* لقد استجاب الله ليوسف (عليه السلام) وصرف عنه كيد النسوة.

إما بأنه أدخل اليأس في نفوسهن بعدم استجابته لهن. أو بجعل النساء أنفسهن لا يشعرن بفتنة جمال يوسف وإنما يشعرن بمهابته ووقاره.

وها هو (عليه السلام) يدخل السجن

وعلى الرغم من ظهور براءة يوسف (عليه السلام) واعتراف امرأة العزيز أمام النسوة أنها هي التي راودته عن نفسه وأنه استعصم ورفض أن يفعل أى شيء يُغضب الله (جل وعلا)



(١) سورة يوسف: الآية: (٣٤).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٩).

قصص الأنبياء للأطفال

إلا أن الخبر كان قد انتشر في المدينة كلها وكان لا بد من فعل أى شيء حتى ينسى الناس هذه القصة وحتى يحافظ عزيز مصر وامراته على المظهر الاجتماعى اللائق بهما . وهكذا حال أصحاب البيوتات الراقية إذا عجزوا عن صيانة بيوتهم ونسائهم فليس هناك أسهل عندهم من سجن إنسان برىء حتى يقولوا للناس إنه هو المتهم وهو الذى كان يراودها عن نفسها .

وبالفعل صدر الأمر الظالم بسجن يوسف (عليه السلام) بلا ذنب سوى أنه رفض أن يفعل الفاحشة .. ولم يصدر الأمر بالسجن لمدة معلومة بل صدر الأمر بسجنه حتى حين ... يعنى : لمدة غير معلومة وهذا هو أصعب أنواع السجن .. أن يدخل البريء السجن وهو لا يدري متى يخرج .

* وعلى الرغم من كل ذلك دخل يوسف السجن وهو هادئ النفس لأنه نجا من مراودة امرأة العزيز ونسوة المدينة .. فهو القائل : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (١) .



(١) سورة يوسف : الآية : (٣٣) .

ودخل معه السجن فتيان

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) . فلما كان ليلة

* ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ قيل : كان أحدهما ساقى الملك والآخر «خبازه» - يعنى : الذى يلى طعامه - وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما . فلما رأى يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه ، وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه . ليلة الجمعة

أما الساقى فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبله وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى . فقصَّأها عليه وطلبها منه أن يعبرها لهما ، وقال : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

(١) سورة يوسف : الآية : (٣٦) .

(٢) قصص الأنبياء (ص : ٢٨٠) .

كلمة التوحيد قبل أى شىء

وينتهز يوسف هذه الفرصة لىبث بين السجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة.

وبدأ يوسف مع صاحبه السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما. فيطمئنهما ابتداءً إلى أنه سيؤول لهما الرؤى. لأن ربه علمه علمًا خاصًا، جزاءً على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء، هو وآباؤه من قبله. . . وبذلك يكسب ثقتهم منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما كما يكسب ثقتهم كذلك لدينه^(١).

* ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾^(٢) أى: لا يأتىكما شىء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، . . أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئة لدعائهما إلى الإيمان، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب

(١) الظلال (٤/١٩٨٨).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

ليدلها على صدقه في الدعوة والتعبير (١) ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا
 عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (٢) إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا
 تنجيم، وإنما هو بإلهام ووحى من الله ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٣) أى: خصنى ربى بذلك العلم لأنى من
 بيت النبوة وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله
 ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٤) أى: يكذبون بيوم القيامة،
 ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (٥) أى: اتبعت
 دين الأنبياء، لا دين أهل الشرك والضلال، والغرض
 إظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع
 إليه والوثوق بكلامه ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦)
 أى: ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع
 اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
 النَّاسِ﴾ (٧) أى: ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا
 حيث أكرمنا بالرسالة، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ (٨) حيث بعث
 الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٩)

(١) البيضاوى (ص: ٢٦٤).

(٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

(٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

أى: لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . .
ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذى
هو دين الرسل، تَلَطَّفَ فى حسن الاستدلال على فساد ما
عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال: ﴿يَا صَاحِبِ
السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١) أى: يا
صاحبى فى السجن آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا
تستجيب لمن دعاها كالأصنام، خير أم عبادة الواحد
الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال؟!
﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ (٢) أى:
ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة
سميتموها آلهة وهى لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات
﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (٣) أى: ما أنزل الله لكم فى
عبادتها من حجة أو برهان ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (٤) أى: ما
الحكم فى أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمْرٌ أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٥) أى: أمر سبحانه بإفراد العبادة له، لأنه لا

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٩).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ (١) أى :
ذلك الذى أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين
القيوم الذى لا اعوجاج فيه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)
أى : يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

تأويل الرؤيا

والى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه ،
مرتبطاً فى مطلعته بالأمر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن .
ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة
فى قوله كله وتعلقاً به : ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ
خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ (٣) .
أى يا صاحبي فى السجن أما الذى رأى أنه يعصر
خمرًا فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقى
سيده الخمر ، وأما الآخر الذى رأى على رأسه الخبز فيُقتل
ويُعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه .

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٤٠) .

* وعلى الرغم من أنه فسّر لهما الرؤى إلا أنه لم يحدد لهما من الذى سيُصلب ومن الذى سينجو .. وهذا من باب التلطف وعدم مواجهة الناس بما يكرهون.

فلبث فى السجن بضع سنين

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (١).

لما علم يوسف (عليه السلام) أن الساقى سينجو طلب منه أن يذكر قصته عند الملك لعله يخلصه من الظلم الذى وقع عليه. لكن الرجل مع أنه وعد يوسف (عليه السلام) بأن يذكره عند الملك إلا أنه نسى ذلك لما خرج وعاش فى جو القصور والرفاهية ولم يذكر قصة يوسف (عليه السلام) عند الملك .. فكانت النتيجة أن لبث يوسف (عليه السلام) فى السجن بضع سنين.

* وكان هذا الأمر من إكرام الله لتبنيه يوسف (عليه السلام) فإنه لم يجعل قضاء حاجته على يد عبدٍ من عباده ولا بسبب يرتبط بعبد .. فعباد الله المخلصين ينبغى أن

(١) سورة يوسف: الآية: (٤٢).

تتعلق قلوبهم بالله وحده فهو القادر على تفريج همومهم ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ (١).

وهكذا يهيئ الله الأسباب لأوليائه

لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفرعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى فى منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً فى خلاص يوسف من السجن (٢).

* ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرَّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٣).

رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن فى روضة هناك، فخرجت

(١) سورة النمل: الآية: (٦٢).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٥٤).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٤٣).

سبعٌ هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة، وإذا سبع آخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً^(١).

طلب الملك تأويل رؤياه. فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك. . . على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم. . فقالوا: إنها ﴿أَصْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾^(٢) أى: أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾^(٣). . . إذا كانت أصغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء!^(٤).

فعند ذلك تذكر الناجي منهما، الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فتسيه إلى حينه هذا، . . . وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك.

فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها،

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٤٤).

(٤) الفلال (٤/ ١٩٩٣).

تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ (١)

أى: تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (٢) أى: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين (٣).

﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ (٤) أى: أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أى: فأرسلون إليه لآتيكم بتأويلها.

فأرسلوه فانطلق الساقى إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصديق وسماء صديقاً لأنه كان قد جرب صدقه فى تعبير الرؤيا التى رآها فى السجن، ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ (٥) أى: أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٦).

أى: لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤٥).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٤٥).

(٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٤٦).

فضلك وعلمك ويخلصوك من محتكك .

* لما سئل يوسف (عليه السلام) عن تفسير رؤيا الملك لم يشترط عليهم أن يُخرجوه من السجن أولاً . . بل ولم يعاتب ساقى الملك الذى نسيه منذ سنوات عندما طلب منه يوسف (عليه السلام) أن يذكر قصته للملك ليخلصه من الظلم الذى وقع عليه . . لم يعاتبه بكلمة واحدة . . لم يقل له : الآن تذكرتنى عندما احتجت إلى . . بل قال له تفسير الرؤيا وذكر له حل الأزمة التى ستقع فيها البلاد حتى يكون بذلك سبباً فى تفريج هم الأمة كلها .

﴿ قَالَ تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿ (١)

* لقد وضع لهم يوسف (عليه السلام) خطة حكيمة لمدة خمس عشرة سنة فأخبرهم أن مصر سيأتى عليها سبع سنوات مخصبة فعليهم أن يكثروا فيها من الزرع وأن

(١) سورة يوسف: الآيات: (٤٧، ٤٩).

يبلغوا أعلى طاقة إنتاجية . . وأخبرهم أن بعد هذه السنوات الخصبة ستأتى عليهم سبع سنوات مجدبة فعليهم أن يتركوا كل ما زرعه في السنين حتى لا يسوس ولا يأخذوا إلا على قدر ما يأكلون أو يزرعون وبذلك ينفعهم المخزون الذى كان فى السبع سنوات المخصبة فى السبع سنوات المجدبة . . وهذا ما وضعه يوسف (عليه السلام) فى قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ (١) أى: ثم يأتى بعد سنوات الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ (٢) أى: تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٣) أى: إلا القليل الذى تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤) أى: ثم يأتى بعد سنوات القحط والجذب العصيبة عام رخاء فيه يُمطر الناس ويغاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه .

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٤٨).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٤٩).

وظهرت براءة يوسف (عليه السلام)

عاد الساقى إلى الملك، أخبره بما قال يوسف (عليه السلام)، دُهِش الملك دهشة شديدة، ما هذا السجين؟ إنه يتنبأ لهم بما سيقع، ويوجههم لعلاجهم، دون أن ينتظر أجراً أو جزاءً، أو يشترط خروجاً أو مكافأة!! إنه نوع من البشر لم يعرفه الملك ولم يره، إن كل الناس يعاملونه للمصلحة فقط، فطلبه فوراً: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ (١).

أصدر الملك أمره بإخراج يوسف عليه السلام من السجن وإحضاره فوراً إليه، ذهب رسول الملك إلى السجن، ولا نعرف إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة، أم أنه شخصية رفيعة مكلفة بهذه الشؤون.

ذهب إليه فى سجنه، رجا منه أن يخرج للقاء الملك، فهو يطلبه على عجل، رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته أولاً، لقد زاده ربه تربية وأدباً فى تلك السنين التى بقيها فى السجن بعد خروج الساقى:

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٠).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (١).

ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة، ويظهر أثر التربية واضحاً في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن.

الفارق بين الموقفين كبير، وبدأ الملك يبحث عن الحقيقة بنفسه، فهذا أمر لم يعلمه من قبل: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٢).

يبدو أن الملك سأل عن القصة، ليكون على بينة من الأمر وظروفه قبل أن يبدأ التحقيق، لذلك جاء سؤاله دقيقاً للنساء، فاعترفت النساء بالحقيقة التي يصعب إنكارها: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٣) (٤).

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٠).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٥١).

(٣) ابن الإسلام (ص: ١٣٨).

امراة العزيز تعترف ببراءة يوسف (عليه السلام)

وهنا قامت امراة العزيز فى لحظة صدق لتقول كلمة الحق لأول مرة فى حياتها ولتشهد ببراءة يوسف (عليه السلام).

﴿قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ^(١) أى: ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ^(٢) أى: أنا التى أغريته ودعوته إلى نفسى وهو برىء من الخيانة وصادق فى قوله: ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِ عَنْ نَفْسِي﴾ ^(٣) وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ ^{(٤)(٥)}.

* **أى:** ذلك ليعلم زوجى (عزيز مصر) أنى لم أخنه وإنما هى كانت مجرد مراودة لم يقع معها فعل الفاحشة.
* ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ^(٦).

(١) سورة يوسف: الآية: (٥١).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٥١).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٦).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٥٢).

(٥) صفوة التفاسير (٥٦/٢).

(٦) سورة يوسف: الآية: (٥٢).

وكانها تقول: مهما حاولنا فتنة يوسف (عليه السلام)

فلن نستطيع . . . ومهما حاولنا إيذائه فلن نستطيع . . . لن نستطيع لأن يوسف سيظل طاهراً نقيّاً عزيزاً تقياً يحتاج إليه الناس ولا يحتاج هو إلا إلى الله (جل وعلا).

*** ثم تختم كلامها بقولها:** ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

*** إن من يتأمل تلك الكلمات التي خرجت من فم امرأة العزيز يشعر بأنها قد تحولت من الشرك إلى الإيمان والتوحيد . . . فقد كان ثبات يوسف (عليه السلام) على العفاف والتقوى وصبره على السجن والإيذاء سبباً في هدايتها فقد كانت تظن أنه لا يوجد رجل يصبر على فتنة المرأة الجميلة ذات المنصب والجاه إلى أن رأت بنفسها عفاف يوسف وخشيته من الله (جل وعلا) فكان ذلك سبباً في أن تتحول وتصبح امرأة مؤمنة صادقة.**

*** * * قد نال يوسف (عليه السلام) نصيباً عظيماً من**

(١) سورة يوسف: الآية (٥٣).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٣).

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٣).

ويصدر الأمر الملكي بالإفراج عنه

* لقد تبينت للملك براءة يوسف، كذلك تبينت له كرامته، وإبائه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك، ... وأى ملك؟ ملك مصر. ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذى يمثله، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك، كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام يوسف عليه السلام وحبه، فقال: ﴿اثْنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (١).

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿اثْنُونِي بِهِ

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٤).

(٢) سورة يوسف: الآيتان: (٥٤ ، ٥٥).

أَسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي ﴿١﴾ أَيْ: أَجْعَلُهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلٍ مَشُورَتِي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أَيْ: خَاطَبَهُ وَعَرَفَ فَضْلَهُ وَبِرَاعَتَهُ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقٍ وَخُلُقٍ وَكَمَالٍ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أَيْ: إِنَّكَ عِنْدَنَا ذُو مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ.

❖ فَمَاذَا قَالَ لَهُ يُوسُفُ (عَلَيْهِ السَّلَام)؟

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

لَقَدْ وُلَّاهُ مَلِكُ مِصْرَ (الرِّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ) الْوِزَارَةَ مَكَانَ عَزِيزِ مِصْرَ. . وَأَسْلَمَ الْمَلِكُ عَلَى يَدَيِ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَام).

وَلَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ هُنَا أَنَّ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَام) لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ هَذَا الْمَنْصِبَ لِشَخْصِهِ وَلَا لِبَنَاءِ مَجْدِهِ وَإِنَّمَا كَانَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنْ يَتَحَمَّلَ تِلْكَ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ - وَهِيَ: أَمَانَةُ إِطْعَامِ الشُّعُوبِ الْجَائِعَةِ لِمُدَّةِ سَبْعِ سِنَوَاتٍ - . . فَكَانَ الْأَمْرُ فِيهِ تَضَحِيَّةَ كَبِيرَةٍ مِنْ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَلَمْ يَكُنْ مُطْلَبًا شَخْصِيًّا لَهُ (عَلَيْهِ السَّلَام).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ^(١) أَيْ:

أَرْضَ مِصْرَ. ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أَيْ: يَتَّخِذُ مِنْهَا مَتَرَلًا

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٦).

حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢﴾ ويخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف - عليه السلام - فى الدار الآخرة أعظم وأجل (٣).

وجاء إخوة يوسف

ودارت الأيام ومرت سنوات الرخاء السبع التى أخبر عنها يوسف (عليه السلام) وجاءت سنوات المجاعة .. وكان يوسف (عليه السلام) هو الذى يُشرف على إطعام شعب مصر بل وكل شعوب المنطقة العربية من حولهم. * وجاء الناس إلى يوسف من سائر البلاد ليأخذوا

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٦).

(٢) سورة يوسف: الآيتان: (٥٦، ٥٧).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).

طعاماً لأهليهم وأقاربهم وكان من جملة من جاء إخوة يوسف (عليه السلام).

فلقد وصلت المجاعة إلى أرض فلسطين حيث يعيش يعقوب (عليه السلام) وأبناؤه.

* وكان يوسف عليه السلام يعطى كل فرد حمل بعير حتى لا يكون هناك أى احتكار للطعام وبذلك يستطيع أن يوفر الغذاء الكافى لكل فرد فى الوطن العربى الكبير.

* ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (١).

لقد عرف يوسف (عليه السلام) إخوته على الفور . . ولكنهم لم يعرفوه وذلك لأنهم لما ألقوه فى البئر كان غلاماً صغيراً ولذلك فلقد تغيرت ملامحه أما هم فقد كانوا كباراً فلم تتغير ملامحهم إلا قليلاً ولذلك عرفهم .

وأيضاً فإنهم لا يتخيلون أبداً أن عزيز مصر هذا الذى يُطعم الشرق الأوسط كله هو أخوهم يوسف الذى ألقوه فى الجُب .

* لقد جاءوا إلى يوسف (عليه السلام) يطلبون الطعام بعدما وصلت المجاعة والقحط إلى أرض فلسطين . .

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٨).

فلما عرفهم يوسف (عليه السلام) بدأ يحاورهم فقال

لهم: ما الذى جاء بكم إلى بلادى؟

قالوا: جئنا من أجل الطعام.

فقال لهم: لعلكم جواسيس جئتم للتجسس على بلادى؟

قالوا له: لا والله ما نحن بجواسيس.

قال لهم: من أين أنتم؟

قالوا: من بلاد كنعان . . من أرض فلسطين، وأبونا

يعقوب نبي الله.

قال: وله أولاد غيركم؟

قالوا: نعم . . كنا اثني عشر أخاً فمات أصغرنا فى

البرية وكان أحبنا إليه وبقي شقيقه بنيامين وهو مع أبيه

لأنه لا يستطيع أن يصبر على فراقه فجئنا ببيعيره بدلاً منه

حتى تملاء لنا طعاماً.

قال يوسف: كيف أتأكد من أنكم صادقون.

قالوا: اطلب ما شئت حتى تتأكد من أننا صادقون.

فقال يوسف: لا بد أن تأتونى بأخيكم بنيامين فى المرة

القادمة إن كنتم صادقين، فإن لم تأتونى به فلن أعطيكم

أى طعام ولا تقربوا بلادى مرة أخرى.

﴿قَالُوا سَرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾^(١) أى: سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده، ونجتهد فى طلبه منه، وإنا لفاعلون ذلك^(٢).

فأعطاهم يوسف (عليه السلام) كيلهم وزادهم وأكرمهم، وأمرهم أن ينصرفوا فانصرفوا.

* أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسّوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطاً من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوى. ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يُستخدم فى التبادل فى الأسواق. . أمر غلمانه بدسّها فى رحالهم لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاءوا بها: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾^{(٣)(٤)}، أى: لكى يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥)

(١) سورة يوسف: الآية: (٦١).

(٢) صفوة التفاسير (٢ / ٥٨).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

(٤) الظلال (٤ / ٢٠١٦).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

أى: لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

عهد وميثاق

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ (١) أى: فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم -: يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل فى المستقبل إن لم نأت بأخيـنا بنيامين، فإن عزيز مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليـتحقق صدقنا ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾ (٢) أى: أرسل معنا أخانا بنيامين لناخذ ما نستحقه من الحبوب التى تكال لنا ﴿وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣) أى نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (٤) أى: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه، ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٦٣).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٦٤).

كدتُم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ (١) أى: حفظ الله خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢) أى: هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ علىَّ بحفظه ولا يجمع علىَّ مصيبتين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ (٣).

أى: لما فتح إخوة يوسف متاعهم ووجدوا فيها بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ (٤) أى: ماذا نريد بعد هذا. ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ (٥) وقد أوفى لنا الكيل.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ (٦) أى: نأتى بالميرة والطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ (٧) أى: نحفظه من المكاره،... وكرروا حفظ الأخ مبالغة فى الحُضُّ على إرساله ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ (٨) أى: ونزداد باستصحابنا له حمل بعير.

* ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ نَّيْسِرُ﴾ (٩) أى: إن فعلنا ذلك فسوف نحصل على ذلك الكيل بكل يسر وسهولة فقد رأينا عزيز مصر رجلاً كريماً.

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٦٤).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) سورة يوسف: الآية: (٦٥).

* فخاف يعقوب (عليه السلام) على ابنه بنيامين .
 ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ (١)
 أى: قال لهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى
 تُقسموا بالله وتعطوني عهداً أكيداً وميثاقاً غليظاً على أن
 تأتونى به مرة أخرى ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (٢) أى: إلا أن
 تتعرضوا لقطع الطريق أو أن تموتوا فلا تستطيعوا أن تردوه
 مرة أخرى فهذا هو العذر الوحيد .
 * ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ (٣) أى: فلما حلفوا له وأعطوه
 العهد المؤكد أنهم سيردوا إليه بنيامين . . . ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا
 نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٤) أى: شهيد ورقيب على ذلك .

وها هو يخشى عليهم من الحسد

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
 مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ (٥) أى: لا تدخلوا مصر من باب واحد . . .
 خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٦٦) .

(٥) سورة يوسف: الآية: (٦٧) .

جمال وهيبة، والعين حق تُدخل الرجل القبر، والجمل
 القدر كما جاء في الحديث ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ﴾^(١) أى: لا أَدفع عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضاه الله
 عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾^(٢)
 أى: ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده لا يشاركه أحد ولا
 يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾^(٣) أى: عليه وحده اعتمدت
 وبه وثقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٤) أى: وعليه فليعتمد
 أهل التوكل والإيمان، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا
 مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾^(٥) أى: دخلوا من الأبواب المتفرقة
 كما أوصاهم أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٦)
 أى: ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله
 شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾^(٧) أى: إلا خشية
 العين شفقة منه على بنيه ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾^(٨) أى:
 وإن يعقوب؛ لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي،
 وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

(٥)، (٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (٦٨).

بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) أى: لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه وأصفياه من العلوم التي تنفعهم في الدارين (٢).

شوق ولقاء

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣).

وصل إخوة يوسف عليه السلام ومعهم أخوهم بنيامين. فأفاض عليهم يوسف عليه السلام من الإكرام والإلطف والصلة والإحسان ما جعلهم في غاية الكرامة.

* لقد احتضن يوسف أخاه بنيامين وكشف له وحده سر قرابته... ومن المؤكد أنه لم يفعل ذلك فور دخول إخوته عليه وإلا لانكشف الأمر.

* **قال المفسرون:** لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي «بنيامين»

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٨).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٥٨ - ٦٠) بتصرف.

(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٩).

وحيداً فقال: هذا لا ثانى له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر.

فطنة وذكاء

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾^(١).
أى: لما قضى يوسف (عليه السلام) حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام الذى يكفيهم أمر أحد عماله أن يجعل السقاية وهى كأس الملك الذهبية فى متاع أخيه بنيامين . . وكانت الكأس تُستخدم كمكيال للغلال . . وكانت غالية و ثمينة .

* لقد أمر بإخفاء الكأس فى متاع أخيه بنيامين . .
 وبدأ إخوة يوسف (عليه السلام) يستعدون للرحيل ومعهم أخوهم بنيامين بعدما أخذوا متاعهم وطعامهم .

وفجأة أغلقت أبواب المدينة ﴿ ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾^(٢) أى: يا أصحاب الإبل ويا أيها القوم

المسافرون . . إنكم لسارقون .

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٧٠).

وكان هذا النداء يعنى: توقف كل القوافل .. فأقبل

الناس وأقبل معهم إخوة يوسف.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾^(١)؟ قال المفسرون: لما

وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن

ضيافتكم؟ ونوف إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل

بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك

ولا ننتهم عليها غيركم. . . فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾^(٢) أى: التفتوا إليهم وسألوهم

ماذا ضاع منكم وماذا فقد؟

قال الجنود: ﴿تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾^(٣) .. ضاعت الكأس

الذهبية ولن يجىء بها مكافأة .. سنعطيه حمل بعير من الغلال.

﴿قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) قسم فيه

معنى التعجب أى قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها

القوم ما جئنا بقصد أن نُفسد فى أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا

(١) سورة يوسف: الآية: (٧١).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧١).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٧٢).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٧٣).

سَارِقِينَ ﴿١﴾ أَيْ: ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٢﴾ أَيْ: ما عقوبة السارق في شريعتكم إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فِي ادِّعَاءِ الْبَرَاءَةِ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ ﴿٣﴾ أَيْ: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أَنْ يُسْتَرْقَ وَيَصْبَحَ مَمْلُوكًا لِمَنْ سَرَقَ مِنْهُ ﴿٤﴾.

* **قال الحارس:** سوف نطبق عليكم قانونكم الخاص ولن نطبق عليكم القانون المصري فقد كان حكم من سرق في ظل القانون المصري أَنْ يُضْرَبَ وَيُدْفَعَ ضَعْفُ ثَمَنِ مَا سَرَقَهُ وَأَمَّا فِي شَرِيعَةِ يَعْقُوبَ (عليه السلام) فَمَنْ سَرَقَ فَإِنَّهُ يَصْبَحُ عَبْدًا رَقِيقًا عِنْدَ مَنْ سَرَقَهُ.

* ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفَ (عليه السلام) جُنُودَهُ بِتَفْتِيشِ إِخْوَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَشُوا أَخَاهُ بَنِيَامِينَ... حَتَّى لَا يَنْكَشِفَ الْأَمْرُ.

* وَلَمَّا فَتَشَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمْ يَجِدْ مَعَهُمْ شَيْئًا... ثُمَّ

(١) سورة يوسف: الآية: (٧٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧٤).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٧٥).

(٤) صفوة التفاسير (٦١/٢، ٦٢).

أوهمهم بأنه لن يفتش رجل بنيامين ولكنهم أصرّوا أن يفتش بنيامين كما فتشهم جميعاً.

فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجْهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾^(١) أى: استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكس الإخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل...
﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ﴾^(٢) أى: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقى أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾^(٣) أى: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر؛ لأن جزاء السارق عنده أن يضرب ويغرّم ضعف ما سرق ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٤) أى: إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾^(٥) أى: نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(٦) أى: فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٧٦).

ينتهي إلى ذى العلم البالغ وهو رب العالمين^(١).
 * وهكذا تم الحكم وصار بنيامين عبداً ليوسف (عليه السلام).

اتهموا يوسف عليه السلام ظلماً وعدواناً

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(٢).
 يعنون بذلك يوسف (عليه السلام) .. وكان يوسف عليه السلام قد اتهموه كذباً بالسرقة وهو صغير.
 والقصة باختصار أنه كانت له خالة تعبد صنماً من الذهب فأخذته يوسف من ورائها وأخفاه حتى لا تعبد من دون الله فاتهموه بأنه سرقة.

* **وقيل:** أنه كانت عمته تحبه حباً شديداً فأرادت أن يعيش معها فوضعت شيئاً من عندها بين ثيابه وهو لا يشعر حتى وجدوه عنده فأخذته عندها.

* فلما سمع يوسف (عليه السلام) اتهام إخوته له بذلك أحس بحزن شديد فكتّم أحزانه في نفسه وقال بينه

(١) الطبري (١٣ / ٢٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧٧).

وبين نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (١).
لم يكن هذا سبباً لهم، بقدر ما كان تقريراً حكيماً
لقاعدة من قواعد الأمانة.

أراد أن يقول بينه وبين نفسه: إنكم بهذا القذف شرُّ
مكاناً عند الله من المذوف، لأنكم تقدفون بريئين بتهمة
السرقه، والله أعلم بحقيقة ما تقولون، فلا أنا سرقت،
ولا أخى سرق، الله وحده أعلم بالحقيقة فى الحادثتين،
وأنا وأخى بريئان منهما.

ياله من موقف عصيب

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه.
عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ
يُحَاطَ بِكُمْ﴾ (٢). فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى،
الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم إن لم
يكن مطلقه لخاطر أبيه؛ . . . ويستعينون فى رجائه بتذكيره
بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا

(١) سورة يوسف: الآية: (٧٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٦٦).

شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .
ولكن يوسف كان يريد أن يُلْقَى عَلَيْهِمْ درسًا . وكان
يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده
وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرًا في النفوس : ﴿ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ . .
ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئًا بذنب سارق ؛ لأنه
كان يعلم أن أخاه ليس بسارق .
﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ ﴿٣﴾ . . . وما نريد أن نكون ظالمين .
وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف . وعرفوا أن لا
جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون في موقفهم
المحرج أمام أبيهم حين يرجعون ﴿٤﴾ .

بل سولت لكم أنفسكم أمراً

﴿ فَلَمَّا اسْتِيسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ﴿٥﴾ أى : ولما يسوا من

(١) سورة يوسف : الآية : (٧٨) .

(٢) سورة يوسف : الآية : (٧٩) .

(٣) سورة يوسف : الآية : (٧٩) .

(٤) الظلال (٤/ ٢٠٢٢ ، ٢٠٢٣) .

(٥) سورة يوسف : الآية : (٨٠) .

إجابة طلبهم يأساً تاماً، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء،
اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ (١) أى: قال
أكبرهم سنّاً وهو «روبيل»: أليس قد أعطيتكم أباكم عهداً
وثيقاً برّد أخيككم؟ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ (٢) أى:
ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم فى يوسف؟ فكيف
ترجعون إليه الآن؟ ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ (٣)
أى: فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لى أبى بالخروج
منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ (٤) أى: يحكم بخلاص أخى ﴿وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥) أى: وهو سبحانه أعدل الحاكمين، لأنه
لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا
إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ (٦) أى: ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة
ما جرى وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا
بِمَا عَلَّمْنَا﴾ (٧) أى: ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا
الصاع فى رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨) أى: ما علمنا

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٨٠).

(٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (٨١).

أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (١) أى: وأسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (٢) أى: وأسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهو قوم من كنعان كانوا بصحبته في هذه السفرة ﴿وإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٣) أى: صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ (٤) أى: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذوها... اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ﴾ (٥) أى: لا أجد سوى الصبر محتسباً أجرى عند الله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ (٦) أى: عسى أن يجمع الله شملهم بهم، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٧) أى: العالم بحالى الحكيم فى تدبيره وتصريفه (٨).

وابيضت عيناه من الحزن

لما عاد أولاد يعقوب (عليه السلام) إليه من غير ولديه (بنيامين

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٨٢).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧) سورة يوسف: الآية: (٨٣).

(٨) صفوة التفاسير (٢/ ٦٣، ٦٤).

وروبيل) تجددت الأحزان في قلبه لفقد يوسف (عليه السلام) وأحس أن قلبه يكاد أن يتمزق من الحزن على فقد أولاده. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١) . .

إنها صورة مؤثرة لهذا الوالد الذي تكررت مصيبته في ولديه بعد مُصابه في يوسف (عليه السلام) . . فأحس أنه منفردٌ بهممه وأنه وحده هو الذي يشعر بكل هذه الآلام والأحزان. . هو وحده الذي يبكي فراق يوسف منذ أربعين سنة. . هو وحده الذي يبكي فراق ولديه (بنيامين وروبيل). فاعتزل كل من حوله وجلس جانباً يبكي ويقول: ﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾ (٢) . . لقد جاء الحزن الجديد فذكره بحزنه على فراق يوسف (عليه السلام).

* ظل يبكي ويبكي إلى أن فقد بصره أو ما يشبه فقد البصر فصارت أمام عينيه غشاوة بسبب كثرة البكاء لا يمكن أن يرى بسببها.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٣) .

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٨٤).

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛
﴿قَالُوا﴾ (١) له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه:
﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٢).

يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف
قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو
بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣) يقول لبنيه
لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما
أشكوه إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا
فيه فرجاً ومخرجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا
بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى... ولهذا قال:
﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤).

ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه، وأن
يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ﴾ (٥) أى: لا تياسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا

(١) سورة يوسف: الآية: (٨٥).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٨٥).

(٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٨٦).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٨٧).

يأس من روح الله وفرجه، وما يقدره من المخرج في المضايق، إلا القوم الكافرون^(١).

* إنه يوضح لأولاده وهو في شدة حزنه أنه ما زال عنده أمل كبير في الله (جل وعلا) .. وأنه يعلم أن يوسف (عليه السلام) لم يمت بل ما زال حياً.

- فطلب من أولاده أن يذهبوا ليبحثوا عنه وليكن دليلهم حسن الظن وصدق الرجاء في الله (جل وعلا).

* وفعلاً أطاع الأولاد أباهم وشدوا الرحال إلى مصر مرة أخرى، وتحركت القافلة في طريقها إلى مصر .. إخوة يوسف (عليه السلام) في طريقهم إلى عزيز مصر وقد تدهورت أحوالهم الاقتصادية والنفسية .. أضف إلى ذلك حزن أبيهم .. كل هذه العوامل هدأت قواهم وأتعبتهم غاية التعب.

وتلاقت القلوب مرة أخرى

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاؤوا ببضاعة رديئة

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٤ ، ٢٩٥).

هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد.. يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يُعهد فى أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ﴾ (١)

أى: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجذب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ (٢) أى: وجئنا ببضاعة رديئة يرفضها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً.. أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ (٣) أى: أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ (٤) أى: برّد أحنينا إلينا أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٥) أى: يثيب المحسنين أحسن الجزاء.

وحان وقت المفاجأة الكبرى

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضييق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٨٨).

فى التّخفى عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ،
وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا
هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى
البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله :
﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (١) .
ورنّ فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته .
﴿ قَالُوا أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ (٢) . . أئنك لانت؟! فالآن . .
تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير
فى ذلك الرجل الكبير .
﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) . مفاجأة! مفاجأة عجيبة .
يعلمها لهم يوسف ويذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف
وأخيه فى دفعة الجهالة .

* إنه لم يعاتبهم ولم يقل لهم كلمة تخدش حيائهم
وإنما وقف يذكر فضل الله عليه وعلى أخيه .

أما هم . . فقد أخذوا يتذكرون ما فعلوه بيوسف وبدأوا

(١) سورة يوسف : الآية : (٨٩) .

(٢)، (٣) سورة يوسف : الآية : (٩٠) .

يشعرون بالحزى والحجل وهم يواجهونه الآن بعد كل ما فعلوه... وهو يكرمهم ويغدق عليهم بل ويسامحهم فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آتٰكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾^(١). وإذا بيوسف يقابل هذا الموقف بالصفح والعفو ﴿قَالَ لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢). لا مؤاخذه لكم ولا تأنيب اليوم. فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور. والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين.

سبحان من لا يخطئ

معجزة باهرة

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣). ذكر أن يوسف لما عرّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه^(٤).

(١) سورة يوسف: الآية: (٩١).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٩٣).

(٤) الطبري (١٣ / ٥٧).

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني أبيه، فإنه يرجع بصره بعد ما كان قد ذهب، بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات. ^(١) هذا الله يبارك وتعالى
ثم أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور ^(١).

إنى لأجد ريح يوسف

وأخذت العير تشق طريقها من مصر إلى أرض كنعان حيث يعقوب (عليه السلام) الذي ابتلى ابتلاءً شديداً فكان صابراً على البلاء راضياً عن رب الأرض والسما (جل وعلا) . . وبينما هو في تلك الهموم والأحزان وإذا به فجأة قد هدأت نفسه وانشرح صدره وجفت دموعه، ودخل روح على قلبه! ما هذا الشعور الغريب، والإحساس الوافد؟ إنه الآن يشعر بانسراح في أعماق نفسه.

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٦).

أحسن يعقوب (عليه السلام) بهذا، فصاح بملء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّي لِأَجْدُ رِيحَ يَوْسُفَ﴾^(١).
أى: قال يعقوب لمن حضر من قرابته إنى لأشم رائحة يوسف.
 لولا أنكم تقولون فى أنفسكم أنى أخرف لصدقتم ما أقول.
 وهكذا الشوق يجعل الإنسان يشم رائحة الأحباب من بعيد.
 ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾^(٢) أى: قال حفدته ومن عنده: والله إنك لفى خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك فى محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقاءه... وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾^(٣) أى: فلما جاء المبشر بالخبر السار... كان البشير أخاه يهوذا الذى حمل قميص الدم، فقال: أفرحه كما أحزنته^(٤): ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾^(٥) أى: طرح البشير القميص على وجه يعقوب

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٤).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٥).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٩٦).

(٤) الطبرى (٦٣/١٣).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٩٦).

﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾^(١) أى : عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أى : قال يعقوب لأبنائه : ألم أخبركم بأنى أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده على لتتحقق الرؤيا؟^(٣)

توبة وندم

وهنا أحسن أبناؤه بالندم على كل ما فعلوه فقالوا : ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾^(٤) . أى : مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف . ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ نَادِيَ السَّاجِدِينَ﴾^(٥) . وعدهم بالاستغفار
آخر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل : آخرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٦) أى : الساتر للذنوب الرحيم بالعباد .

(١)، (٢) سورة يوسف : الآية : (٩٦) .

(٣) الرازى (٢٠٩/١٨) .

(٤) سورة يوسف : الآية : (٩٧) .

(٥)، (٦) سورة يوسف : الآية : (٩٨) .

اجتماع الأحباب بعد الفارقة الطويلة

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ (١).

يخبر تعالى عن ورود يعقوب (عليه السلام) على يوسف - عليه السلام - هو وبنوه وأهله فقد تحملوا عن آخرهم من بلاد كنعان إلى مصر، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر الناس لتلقيهم.

وقوله تعالى: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ (٢) أى: قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، أى: اسكنوا مصر إن شاء الله آمين أى: مما كنتم فيه من الجهد والقحط.

وقدر الله تعالى دخول يعقوب فى السبع السنين المجدة ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع بقية السنين المجدة عن أهل مصر ببركة قدوم يعقوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٣) أى:

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

أجلسهما معه على السرير ﴿وَخَرُّوْا لَهُ سُجَّدًا﴾ (١) أى: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ (٢) أى: التى كان قصصها على أبيه من قبل: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ (٣).

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ (٤) أى: صحيحة صدقاً... يذكر نعم الله عليه.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِّى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ﴾ (٥) أى: أنعم الله علىَّ بإخراجى من السجن... ولم يذكر قصة الحب تكريمًا منه لئلا يُخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ (٦) أى: جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (٧) أى: أفسد ما بينى وبين إخوتى بالإغواء ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ (٨)

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٤).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

أى: لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١)
 أى: العليم بخلقه الحكيم فى صناعه .
 ويا له من مشهد! بعد كَرِّ الأعوام وانقضاء الأيام . . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . . وبعد الامتحان والابتلاء .
 يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع! (٢).

توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين

وبعد تلك الرحلة الطويلة المليئة بالجراح والأفراح وإذا بيوسف (عليه السلام) يدعو بهذا الدعاء المؤثر ويقول:
 ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٣).

دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته . وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك ،

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

(٢) الظلال (٢٠٢٩/٤).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، وأن يلحقه بال صالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين^(١).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن أجمل وأحسن القصص هو قصص القرآن وذلك لما فيه من العبر والعظات والدروس والفوائد التربوية.

(٢) أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

(٣) أن من رأى رؤيا صالحة فلا يخبر بها إلا من يحب ومن رأى رؤيا يكرهها فلا يحدث بها أحداً وليقم إلى الصلاة.

(٤) أن الرجل يتمنى أن يكون ولده أفضل منه.

(٥) أن الحسد منتشر بين كثير من الناس . . وقد يكون أحياناً بين الإخوة.

(٦) أن الحقد والحسد قد يحمل صاحبه على أن يقع

في أشياء محرمة وقد يحمل صاحبه على الظلم أو

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٠).

القتل . . كما حدث مع إخوة يوسف حينما ظلموا أخاهم يوسف (عليه السلام) وألقوه في الحب . . .

(٧) أن الإنسان لا بد أن يتذكر عند ظلمه غيره أن الله قادر عليه . . فإذا دعيت قدرتك على ظلم العباد فتذكر قدرة الله عليك .

(٨) أن النبوة والهداية هي محض فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده .

(٩) أن الله قادر على أن يحفظ عبده المؤمن من المهالك . . فلقد حفظ الله نبيه يوسف (عليه السلام) في الحب من الثعابين والعقارب وحفظه خارج الحب من الذئاب والوحوش . . وحفظه في كل مراحل حياته من أى مكروه . . لكن هذا لا يمنع أن يتلى الله عبده المؤمن ليرفع درجته .

(١٠) أن الله (عز وجل) يفضح الكذابين في الدنيا قبل الآخرة . . فلقد رأينا كيف أن إخوة يوسف لما كذبوا وقالوا لأبيهم: إن الذئب أكل يوسف (عليه السلام). نسوا أن يقطعوا القميص واكتفوا بذبح شاة وتلطيف القميص بدم الشاة فكشفهم الله . . وعلم يعقوب (عليه السلام) أنهم يكذبون .

(١١) إذا أراد الله شيئاً قدر أسبابه . . فلما أراد الله (عز وجل) أن يكون يوسف بعد ذلك عزيز مصر جعل عزيز مصر يشتريه ويربّيه في قصره ليتعلم يوسف على يديه علم الاقتصاد، وعلمه علم تأويل الرؤى لأن الملك سيحتاج إليه وسيجعله عزيز مصر.

(١٢) أن الاختلاط سبب كل بلاء وشر . . وقد رأينا كيف أن امرأة العزيز لما كانت تختلط بفتاها نبى الله يوسف (عليه السلام) كان ذلك سبباً في وقوعها في تلك الفتنة ومراودتها له ومحاولتها أن توقعه في فعل الفاحشة.

(١٣) أن المسلم الحقيقي هو الذى يغار على نسائه أما الذى لا يغار على نسائه فهو ديوث وقد حرم الله الجنة على الرجل الديوث الذى لا يغار على نسائه . . . وقد رأينا كيف أن عزيز مصر كان لا يغار على امرأته.

(١٤) أن المرأة لا بد أن تشغل بأى عمل فيه خير لنفسها ولأسرتها ولدينها ولوطنها . . وذلك لأن المرأة إذا كانت فارغة لا تعمل أى شىء فإنها تشغل بالقليل والقال فيضيع دينها بسبب الغيبة والنميمة وقد رأينا ذلك واضحاً في نسوة المدينة.

- (١٥) أن المؤمن يفضل أن يدخل السجن عن أن يقع في معصية الله (جل وعلا). وقد رأينا يوسف (عليه السلام) لما عُرِضَتْ عليه الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(١). (وكما جلدنا سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى)
- (١٦) أن المسلم لا يتوقف أبداً عن الدعوة إلى الله (جل وعلا) . . . ولقد رأينا كيف أن يوسف (عليه السلام) كان يدعو إلى الله في كل مكان حتى وهو في السجن . . .
- (١٧) أن المسلم لا يتعلق قلبه بغير الله . . . ولقد رأينا كيف أن يوسف (عليه السلام) لما اعتمد على ساقى الملك لكى يذكر قصته للملك حتى يرفع عنه الظلم نسي ساقى الملك أن يذكر قصته حتى لا يتعلق قلب يوسف (عليه السلام) بغير الله . . . فبشبهه رحمه الله تعالى
- وكان هذا من إكرام الله لنبيه يوسف (عليه السلام) فإنه لم يجعل قضاء حاجته على يد عبدٍ من عباده . . .
- (١٨) إذا اشتدت المحن فقد أوشك الفرج أن يأتي قريباً . . .
- (١٩) أن عاقبة الصبر دائماً كلها خير . . .
- (١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٢٠) كلما كان قلبك موصولاً بالله (جل وعلا) كلما جاءك الفرج من حيث لا تحسب . . فإنه لما أراد الله (عز وجل) خروج يوسف من السجن هياً له أسبابه التي لا تخطر على قلب يوسف (عليه السلام) . . لقد جعل الله ملك مصر يرى رؤيا وجعل حاشيته يعجزون عن تأويلها ثم جعل ساقى الملك يذكّر يوسف بعد سنوات طويلة فيخبر الملك أن يوسف هو الوحيد الذي يستطيع أن يفسر له تلك الرؤيا فيفسرها يوسف ويعطيهم الحلول ليحبه الملك ويُخرجه من السجن ويجعله بعد ذلك عزيز مصر .

(٢١) أن المؤمن يفعل الخير لله ولا ينتظر مقابلاً . . فقد رأينا كيف أن يوسف ذكر لهم تأويل الرؤيا ووضع لهم خطة اقتصادية لمدة خمس عشرة سنة دون أن يطلب منهم أن يُخرجوه من السجن أو يطلب مقابلاً مادياً .

(٢٢) أن المؤمن لا بد أن يحرص على سُمعته وسيرته أن تكون طيبة . . ولذلك رأينا يوسف (عليه السلام) عندما عرضوا عليه أن يخرج من السجن رفض الخروج قبل أن تظهر براءته حتى لا يظن أى إنسان به ظناً سيئاً .

(٢٣) ليس من العيب أن يُخطئ الإنسان لكن العيب أن يستمر على الخطأ ولا يعترف بخطئه .. ولقد رأينا كيف أن امرأة العزيز ونسوة المدينة اعترفوا جميعاً بخطئهم وشهدوا ببراءة يوسف (عليه السلام).

(٢٤) يجوز أن يزكى المسلم نفسه عند من لا يعرف قدره ومكانته .. وخصوصاً إذا كان يريد خدمة المسلمين .. فلقد رأينا يوسف (عليه السلام) يقول للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .. فيوسف (عليه السلام) لم يطلب ذلك لنفسه وإنما طلب ذلك ليقوم بإطعام كل الشعوب العربية بما لديه من خبرة اقتصادية عالية.

(٢٥) أن المسلم لا بد أن يُحسن إلى أقاربه وأرحامه .. ولقد رأينا كيف أحسن يوسف (عليه السلام) إلى إخوته وأقاربه .. (وكذلك نبيك) .. (٢٦) أن المسلم إذا أعطى عهداً لأحد فلا بد أن يكون صادقاً وفياً.

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

(٢٧) لا مانع أن يأخذ المسلم بالأسباب ليدفع عن نفسه الحسد. . فقد أمر يعقوب (عليه السلام) أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد خوفاً عليهم من الحسد. . وهذا من باب الأخذ بالأسباب. .

(٢٨) أن الحزن قد يهلك صاحبه ويصيبه بالآفات. . ولقد رأينا كيف أن يعقوب (عليه السلام) ابيضت عيناه من الحزن. .

(٢٩) أن المؤمن لا يعرف لغة الانتقام وإنما يتحلى دائماً بلغة العفو. . ولقد رأينا يوسف (عليه السلام) بعد كل ما فعله إخوته معه قال لهم: ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١).

(٣٠) أن الله يكرم الأنبياء والمرسلين بالمعجزات. . ولقد رأينا كيف أن قميص يوسف لما ألقى على وجه يعقوب (عليهما السلام) عاد مبصراً مرة أخرى بفضل الله (جل وعلا). .

(٣١) أن شدة شوق الإنسان لأحبابه يجعله وكأنه يشم

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

ريحهم من أبعد الأماكن... فقد رأينا كيف أن يعقوب (عليه السلام) وهو في فلسطين شم رائحة يوسف (عليه السلام) وهو في مصر.

(٣٢) الاعتراف بالخطأ فضيلة... فلقد اعترف إخوة يوسف (عليه السلام) بخطئهم وطلبوا من أبيهم يعقوب (عليه السلام) أن يستغفر لهم.

(٣٣) ما أجمل أن يجتمع الأحباب بعد طول غياب... فلقد رأينا هذا المشهد المؤثر عندما اجتمع يوسف (عليه السلام) بأبيه وأسرته بعد غياب أربعين سنة... فياليتنا نحرص على بر الوالدين وصلة الأرحام حتى تتألف القلوب مرة أخرى.

(٣٤) أن العبد مهما وصل لأعلى المراتب فلا بد أن يشاق للقاء الله (جل وعلا) وللجنة ولذلك لا بد أن نحرص على أن تسأل الله حسن الخاتمة... فيوسف (عليه السلام) بعدما أصبح نبياً كريماً وأصبح عزيز مصر، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١).

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

قصة أيوب (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان في بلاد حوران نبي كريم اسمه أيوب (عليه السلام). وكان الناس وما زالوا إلى يومنا هذا يضربون به المثل في الصبر والرضا بقضاء الله (جل وعلا). كان أيوب - عليه السلام - رجلاً كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة، فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفي مقدمتها الأراضي المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية، وقد كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام. وكان أيوب - عليه السلام - برّاً تقيّاً رحيماً، يُحسن إلى المساكين، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله عليه، مؤدياً لحق الله عز وجل. * وكان لأيوب - عليه السلام - أولاد وأهلون كثير،

وكانت زوجه (ليا) ترفل في هذا النعيم، شاكرة عابدة عارفة حق الله على العباد في الشكر، فقد كانت تكثر الحمد والشكر والثناء على الله عز وجل، إذ رزقها من البنين والبنات ما تقرّ به عينها ولا تحزن، وأوسع عليها وعلى زوجها من الرزق شيئاً مباركاً، وفضلهما على كثير من خلقه.

* كانت (ليا) تدرك أن سر بقاء النعمة هو شكر المنعم.. فكانت دائمة الذكر والحمد، تؤدي إلى كل ذي حقّ حقه، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتحسن إليهم، وتستشير بذلك في ضوء إرشاد زوجها نبي الله أيوب - عليه السلام - (١).

* وفي يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولداً من أولاده قد مات فصبر واحتسب ثم مات ولد آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

* بل وفي نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيل تموت أمامه حتى فئت جميعاً وهو صابر محتسب.

* وابتلى في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله (عز وجل) بهما،

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكراً لله عز وجل في ليله ونهاره، وصَبَّحَهُ ومَسَّاهُ.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهي صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى إن المثل ليُضرب بصبره عليه السلام، ويُضرب أيضاً بما حصل له من أنواع البلياء^(١).



(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧ ، ٢٥٨).

إنها نعمة الرضا

لقد امتلأ قلب أيوب (عليه السلام) رضا بقضاء الله ولم يتسخط لحظة واحدة بل كان يستحي أن يسأل ربه الشفاء. حتى كان يضرب به المثل في الصبر والرضا فيقال: صبر أيوب. * وأما ليا وزوجه، فقد أشفت عليه إشفافاً شديداً فلما رأت أن زوجها أيوب قد طال عليه البلاء، ولم يزد إلا شكراً وتسليماً، عندئذ تقدمت منه وقالت له: يا أيوب، إنك رجل مجاب الدعوة، فادع الله أن يشفيك. فقال: كنا في النعماء سبعين سنة، فدعينا نكون في البلاء سبعين سنة^(١).

فبذلك تبيّن لنا ربه أنه قد أعطانا الرضا نعمة عظيمة. **نعم العبد إنه أواب**

وعلى الرغم من هذا البلاء الشديد الذي تعرض له نبي الله أيوب (عليه السلام) إلا أن الله وجد قلبه راضياً وصابراً لم يتسخط لحظة واحدة فوصفه الله (عز وجل) بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢).

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/١٠٧).

(٢) سورة ص: الآية: (٤٤).

وقفة هامة

ولقد جاء في بعض المصادر الضعيفة أن أيوب (عليه السلام) ابتلى بمرض شديد كالجدام أو الجدرى أو سائر الأمراض المنفرة مما جعل الناس ينفرون منه ويخشون العدوى... وأنه ألقى على مزبلة خارج البلد... وهذا كله كذب على نبي الله أيوب (عليه السلام) وذلك لأن الله (عز وجل) لم يكن ليبتلى نبياً من أنبيائه بمرض يُبعد الناس عنه لأن ذلك يحول بين هذا النبي وبين تبليغ دعوة الله عز وجل وتبليغ الشرائع والأحكام... فكل ما جاء بهذا الصدد إنما هو من الإسرائيليات الضعيفة التي تخالف ما جاء في القرآن وصحيح السنة المطهرة.

الزوجة الوفية

لقد طال المرض على سيدنا أيوب (عليه السلام) حتى رفضه القريب والبعيد وانصرف عنه الناس ولم يبق معه إلا زوجته الوفية الصابرة التي كانت ترعاه وتخفف عنه حتى نفذ مالها ولم تجد عملاً إلا أن تخدم الناس لتحصل

على المال لتشتري به طعاماً لزوجها المريض .

* وكان أيوب (عليه السلام) يزداد ألماً وهو يرى زوجته وقد تبدل حالها من الغنى إلى الفقر ومن النعيم والرخاء إلى العذاب وخدمة الغرباء .

* وطالت سنوات المرض والبلاء على أيوب (عليه السلام) وهو مازال على حاله يذكر الله ويشكره ويصبر على قضائه .

* وكان الناس يعطفون على زوجته بعدما علموا ما حدث لزوجها أيوب (عليه السلام) . . إلى أن خاف الناس من مرضه وظنوا أنه مرضٌ مُعدٍ وأن المرض سينتقل من أيوب إلى زوجته وبالتالي فسوف ينتقل إليهم . . فخاف الناس منها ومنعوها من العمل عندهم .

* **أخذت الزوجة الوفية تفكر كثيراً:** ماذا تصنع لتُطعم زوجها المريض . . فكرت كثيراً حتى وصلت إلى حلٍّ في غاية الصعوبة لكن لا بد منه .

أمسكت بصفائر شعرها وقصتها وذهبت لتبيعها إلى إحدى بنات الأشراف مقابل الكثير من الطعام والشراب . .

قصص الأنبياء للأطفال

وعادت إلى زوجها وهي في قمة السعادة أنها استطاعت أن تأتي إليه بالطعام فسألها أيوب: من أين لك هذا الطعام؟ فخافت زوجته أن يغضب إذا علم أنها باعت ضفيرة شعرها فقالت له: خدمت به بعض الناس.

✳️ وطالت سنوات البلاء على سيدنا أيوب (عليه السلام) .. والمرض يزداد كل يوم وهو مازال يعيش في الفقر والمرض والحرمان وحيداً بلا أهل ولا إخوان سوى زوجته المخلصة الوفية.

ومع ذلك كان أيوب صابراً شاكراً راضياً بقضاء الله.

حوار بين رجلين

ولكن الشيء الذي أدخل الحزن على قلب أيوب (عليه السلام) هذا الحوار الذي سمعه من رجلين من أقرب الناس إليه.

لقد قال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنباً عظيماً، وإلا لكُشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب.

جاء الفرج الإلهي

* لقد تفكر أحد الرجلين في حال أيوب، وامتداد بلائه، فقد مضى على البلاء الذي حلَّ به ثماني عشرة سنة، ولم يكشف الله عنه ما أصابه به، وجال بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنب عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دار في خله، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فألم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفي تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر في حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يذكر الله إلا في حق.

أيوب (عليه السلام)

يقسم أن يضرب زوجته

* هكذا ظل أيوب (عليه السلام) في هذا البلاء وظلت زوجته تتبع صفاتها بعد أن رفض الناس أن تعمل عندهم. وفي يوم من الأيام ذهبت لتبيع ضفيرة أخرى وعادت بالطعام

والشراب لزوجها فأصر أيوب (عليه السلام) أن يعرف من أين تأتي زوجته بهذا الطعام وأقسم ألا يأكل حتى تخبره بذلك .
وأقسم أن يضربها مائة ضربة عندما يشفى .
فما كان من هذه الزوجة الوفية إلا أن أخبرته بالحقيقة بل وكشفت عن رأسها فرأى شعرها مخلوقاً فحزن لذلك حزناً شديداً وأدرك في تلك اللحظة أن هذه الزوجة الوفية ضحت بكل شيء من أجله فتألم لذلك ألماً شديداً .

وكان الشفاء بإذن الله (جل وعلا)

هنالك توجه إلى ربه بالدعاء، طالباً منه كشف البلاء
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١) ،
﴿أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٌ﴾^(٢) .

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شيء قدير، وإذا شاء شيئاً كان لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء^(٣) .

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣) .

(٢) سورة ص: الآية: (٤١) .

(٣) صحيح القصص النبوي (ص: ١٦٠) .

* جاء الفرج الإلهي .. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب؛ أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة في القرآن الكريم والذكر الحكيم في قوله عز وجل: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(١).

* كان الدواء كما لاحظنا بسيطاً، هيناً لينا .. أمر الله أيوب أن يضرب برجله الأرض .. امثل أيوب أمر ربه، ومس الأرض .. فنبع منها الماء نقياً عذباً فرائاً سائغاً، فشرب منه فبرئ ما كان في باطنه من دقيق السقم وجليله، واغتسل فبرئ من ظاهره أتم براءة، فما كان يرسل الماء على عضو إلا ويعود في الحين أحسن ما كان قبل بإذن الله تعالى.

* بدأت الصحة تدب في أيوب .. بدأ السقم يزول فوراً .. تمشى البرء في مفاصله وأوصاله .. طردت الأسقام من بدنه .. لم يعد يجد ألماً ظاهراً، ولا ألماً داخلياً. الله أكبر ما أعظم هذا الدواء!^(٢)

* وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضى حاجته جاءته زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى

(١) سورة ص: الآية: (٤٢).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ١٥٥).

المكان المقصود، تركته حتى يقضى حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تعينه على الرجوع إلى مكان إقامته، وقد أبطأ عليها فى ذلك اليوم الذى دعا فيه ربه، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الضعيفة الأرض، فانثق الماء من موضع ضربته، فأمره الله أن يشرب من ذلك الماء، ويغتسل منه، فأذهب الماء أمراضه التى فى ظاهر جسده وباطنه، وعادت إليه الحيوية والنشاط فى الحال، ورجعت له صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيوية ونشاطاً، كحاله قبل أن يداهمه المرض، فلما رآته لم تعرفه مع أنها رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحاً معافى، وسألته عن زوجها النبى المبتلى، وذكرت له ما لاحظته من شبهه به أيام كان سوياً صحيحاً، ولم تكن تتوقع أن يصلح حاله، ويشفى من مرضه فى هذه المدة الوجيزة التى غابها عنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيماً عندما رأت نعمة الله عليه فى رده عافيته وصحته إليه^(١).

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦٠).

وآتيناه أهله ومثلهم معهم

* وكما ردَّ الله عليه عافيته وصحته، ردَّ عليه ضعفى المال الذى فقده، ورزَّقه ضعفى ما كان عنده من الأولاد، فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطراً، بل ذهباً وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب فى بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة فى بيدر الشعير^(١).

خفة ظله (عليه السلام)

وكان أيوب عليه السلام، خفيف الظل، ندى الروح، فيه دعاة فى صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كان أيوب يغتسل عرياناً خرواً عليه رجل من جراد من ذهب، فجعل يحثى فى ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أغنك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لى عن بركتك»^(٢).

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٣٩١)، والرجل من الجراد: السرب من الجراد.

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يشب عرياناً، يجمع ذلك الجراد ويحثيه في ثوبه، ويناديه ربه، ألم أغنك عما ترى، أى: بما أفاضته السحابتان من الذهب والفضة في بيدريه، ويأتى الجواب: لا غنى لى عن بركتك يا رب^(١).

ومن يتق الله يجعل له مخرجاً

* وكان أيوب (عليه السلام) قد غضب على زوجته في مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة ضربة، وعز عليه بعد شفائه أن يكون جزاؤها منه على صبرها ورعايتها الضرب والجلد، وشق عليه أن لا يفى لربه بنذره، فجعل الله له فرجاً ومخرجاً، إذ أمره أن يأخذ حزمة من قش القمح أو الشعير، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد وفى بنذره، ولم يضر زوجته، قال تعالى لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾^(٢).



(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦٢).

(٢) سورة ص: الآية: (٤٤).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن العبد المؤمن لا بد أن يشكر الله على نعمه . .
والشكر لا يكون باللسان فقط بل يكون بالقلب واللسان
والجوارح وذلك بأن يعبد الله وبأن يستخدم هذه النعمة
فى طاعة الله (جل وعلا).
(٢) أن نعم الدنيا ومتاعها لا يدوم بل قد يزول فى
لحظة واحدة أما النعيم المقيم الذى لا يزول فهو نعيم الجنة
ولذلك يجب علينا أن نحرص على كل عمل يقربنا إلى
الجنة ويباعدنا عن النار.

(٣) أن المسلم لابد أن يحمد الله فى السراء والضراء
وأن يكون راضياً بقضاء الله إذا نزل به البلاء . . ولا بد
أن يعلم أن الله (عز وجل) يعطى الصابرين عطاءً بغير
حساب فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴾ (١).

(٤) أن الزوجة الوفية هى التى تعيش مع زوجها فى
السراء والضراء وهى التى تكون فى عونهِ إذا ضاق به

(١) سورة الزمر: الآية: (١٠).

الحال .. وها نحن نرى مثالا رائعا لوفاء الزوجة لزوجها في قصة زوجة أيوب (عليه السلام) .. وكذلك في قصة أمنا خديجة رضي الله عنها مع النبي محمد صلوات الله عليه وآله .

(٥) إذا امتد البلاء فقد اقترب الفرج ، وأشد ساعات الليل سواداً ما يعقبها طلوع الفجر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) **﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾** (١) ، ولن يغلب عسرٌ يسرين .

(٦) أن الله (عز وجل) يُعوض العبد خيراً مما أخذ منه ويلطف به ويرزقه من حيث لا يحتسب إذا صبر العبد واحتسب .

قصة ذي الكفل (عليه السلام)

كان ياما كان . .

لما كبر نبي الله اليسع قال في نفسه: لو أني استخلفت رجلاً على الناس فأنظر كيف يحكم ويعدل بين الناس فإن كان عادلاً رحيمًا جعلته خليفة على الناس من بعدى .

فقام وجمع الناس وقال: من يضمن لى أن يفعل ثلاثة أشياء أستخلفه من بعدى .

قال الناس: وما هي؟

فقال اليسع (عليه السلام): يصوم النهار ويقوم الليل ويعدل فلا يغضب .

فقام رجل بسيط - وهو ذو الكفل - فقال: أنا .

فقال اليسع (عليه السلام): أنت تصوم النهار، وتقوم

الليل، ولا تغضب؟! قال: نعم. قال: فردّهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك

الرجل، فقال: أنا. فاستخلفه. . فسماه الله ذا الكفل،
لأنه تكفل بأمر فوقى به^(١).

* فكان بعد ذلك من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم.
وكان ذو الكفل رجلاً صالحاً، وحكماً مقسطاً عادلاً،
وقد تعهد ذو الكفل أن يكفيهم أمرهم، ويقضى
مصالحهم، ويحكم بينهم بالعدل، وقد كان رجلاً صابراً
مؤمناً.

وقد أثنى الله عليه وأدخله في رحمته في الدنيا
والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ
(٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ
الْأَخْيَارِ﴾^(٣).



(١) البداية والنهاية (١/ ٢١٠ ، ٢١١).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٥ ، ٨٦).

(٣) سورة ص: الآية: (٤٨).

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) المسلم يحرص كل الحرص على نشر الخير وعلى نفع الناس وإيصال الخير لهم في حياته وبعد مماته . . فقد رأينا كيف كان اليسع (عليه السلام) حريصاً على أن يختار رجلاً يعدل بين الناس ويرحمهم من بعده . (مكتبة هبة)
- (٢) الوفاء بالعهد والوعد من صفات المؤمنين . . فقد رأينا كيف أن ذا الكفل وعد اليسع (عليهما السلام) بأن يعدل بين الناس وأن يكون عابداً لله فكان كما قال ووفى بوعده فأكرمه الله بعد ذلك بنعمة النبوة . (مكتبة هبة)
- (٣) أن العدل والصلاح والتقوى سبب لدخول الإنسان في رحمة الله (جل وعلا) . (مكتبة هبة)

هذا نص من كتاب (مكتبة هبة) الذي يتناول قصة نبي اليسع (عليه السلام) وكيف كان حريصاً على نفع الناس وإيصال الخير لهم في حياته وبعد مماته . . فقد رأينا كيف كان اليسع (عليه السلام) حريصاً على أن يختار رجلاً يعدل بين الناس ويرحمهم من بعده . (مكتبة هبة)

قصة يونس (عليه السلام)

كان ياما كان ...
كان في قرية يقال لها (نينوى) نبي كريم اسمه يونس
(عليه السلام) أرسله الله إلى أهل هذه القرية التي عاش
أهلها زماناً طويلاً على الجهل والشرك ... فأرسل الله إليهم
نبيه يونس (عليه السلام) ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد
وإلى عبادة الخالق (جل وعلا) ولكنهم رفضوا الإيمان
والتوحيد وأصرروا أن يعيشوا في ظلمات الشرك والكفران .
فلما يش منهم نبي الله يونس (عليه السلام) خرج من
تلك القرية ووعدهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام .

توبة قوم يونس (عليه السلام)

لم ينظر يونس (عليه السلام) أن يأتيه الأمر من الله
(جل وعلا) بالرحيل من هذه القرية الظالمة فتعجل الخروج
وهو في حالة من الحزن والغضب .
فلم يشعر أنه بذلك أخطأ وأنه ليس من مهمته هداية

الناس وإنما مهمته تقتصر على دعوتهم إلى الله وأما الهداية فلا يملكها إلا الله (جل وعلا).

* المهم أنه لما خرج يونس (عليه السلام) من بين أهل هذه القرية الظالمة وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا، وتضرعوا إليه، وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجارت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفُصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة، فكشف الله بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسبب توبتهم، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

فقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن قوم يونس

(١) البداية والنهاية: ٢٣٢/١.

(٢) سورة يونس: الآية: (٩٨).

قصص الأنبياء للأطفال

نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم، ورفع الله عنهم بعد إحاطته بهم.

ومضت الأيام الثلاثة التي وعد بها يونس قومه، فجاء ينظر موعود الله فيهم، ولعله كان معتزلاً لهم، لم يدر بما فعلوه من التوبة والإنابة، فوجدهم لما أطلَّ عليهم سالمين، فأغضبه ذلك، وكان جزاء الكاذب عندهم أن يُقتل، فخرج هارباً من قومه، خشية القتل.

وكان الواجب على يونس أن يرضى بقضاء الله تبارك وتعالى، ويُسلم لأمره، فليس للعبد أن يُغضبه فعل ربه، وما كان ليونس أن يخرج من غير إذن منه، ولذلك نهى الله رسولنا ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، وصاحب الحوت هو يونس لالتقام الحوت له، ... قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (١)(٢).



(١) سورة الفلم: الآية: (٤٨).

(٢) صحيح القصص النبوي (ص: ١٢٤، ١٢٥). (٨٦) ١٢٥.

وها هو (عليه السلام) فى بطن الحوت

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه، ركب سفينة فى البحر فلجّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقع عليه أيضاً، فشمّر ليخلع ثيابه، ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقع عليه أيضاً، لما يريد الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١)﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى

فى البحر، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس



(١) سورة الصافات: الآيات: (١٣٩، ١٤٢).

لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. **قالوا:** ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي فخرَّ لله ساجداً وقال: يا رب .. اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله ^(١).

* لقد فوجئ يونس (عليه السلام) أنه في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل وظلمة قاع البحر وظلمة بطن الحوت. . . وهنا أحس بذنبه وشعر أنه أخطأ عندما خرج من هذه القرية بغير أمر من الله (جل وعلا) فأخذ يصلي ويسبح ويستغفر الله (جل وعلا) في بطن الحوت.

كان من الممكن أن يظل في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولكن شيئاً واحداً كان سبب نجاته من هذا العذاب الأليم، هذا الشيء هو التسيب والذكر والدعاء. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُنْعَثُونَ﴾ ^(٢).

(١) قصص الأنبياء (ص: ٣٢٩).

(٢) سورة الصافات: (١٤٣، ١٤٤).

الملائكة تشفع له عند الله (جل وعلا)

إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة... فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك قالوا: يا رب ومن هو؟ قال (عز وجل): هذا عبدى يونس قالوا عبدك يونس... الذى لم يزل يُرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة قالوا: يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه فى البلاء، قال: بلى فأمر الحوت فطرحة بالعراء^(١).

* خرج يونس (عليه السلام) من بطن الحوت وهو فى غاية المرض والتعب وقد ضعف بدنه وتآكل جلده... قال تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾^(٢).

* وأنبت الله له على شاطئ البحر شجرة من يقطين وهو نبات له فوائد عظيمة للجسم وأوراقه عريضة فكان يونس (عليه السلام) يأكل منها ويحتمى بظل أوراقها

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ١٨، ١٩).

(٢) سورة الصافات: الآية (١٤٥).

العريضة من أشعة الشمس. **عند** هذا رجفت عريضة
وظل هكذا فترة من الزمان حتى استرد صحته وعافيته.

قصته مع الغلام

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن يونس كان يستظل بظل
هذه الشجرة، ويأكل منها، وأنها ليست بعد مدة من
الزمن، فبكى عليها نبي الله يونس حين يبست، فأوحى
الله إليه معاتباً: «أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على
مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم».

ولما صح جسده، وأصبح قادراً على المشي والحركة،
خرج يمشي، فوجد غلاماً يرعى غنماً، فسأله من أي
الأقوام هو، فقال: إنه من قوم يونس، فطلب منه أن
يسلم على قومه، ويخبرهم بأنه لقي يونس.

وكان الغلام حصيفاً نبيهاً عالماً بما عليه قومه في شأن
الكاذب، فقال ليونس: إن تكن يونس، فقد تعلم أنه من
كذب ولم يكن له بينة قُتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد
لك هذه الشجرة، وهذه البقعة.

فقال الغلام ليونس: مُرَّهْمَا، أَيْ: بالشهادة له. **فقال لهما يونس عليه السلام:** إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم. وهذا كله بقدره الله عز وجل. ورجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة لهم جاء ومكانة في قومهم يمتنع بهم ممن يريد إيذاءه، فأتى الملك، وبلغه بلقائه بيونس وبلغه سلامه عليه وعلى قومه، ويبدو أنه قد استقر عند الملك وقومه أن يونس هلك، خاصة وأن ركاب السفينة لا بد أنهم قد حدثوا بما كان من غرقه في البحر وابتلاع الحوت له، فكان إخبار الغلام بما أخبر به كذباً لا شك عندهم فيه، ولذا فإنه أمر بقتل الغلام في الحال. فأخبره الغلام أن عنده دليلاً يدل على صدقه، فأرسل معه بعض خاصته، فلما وصلوا إلى الشجرة والبقعة التي أمرهما يونس بالشهادة له، خاطبهما قائلاً: نشدتكما بالله، هل أشهدكما يونس، قالتا: نعم. فرجعوا خائفين وجلين، وأخبروا الملك بما سمعوه، فما كان من الملك إلا أنه نزل عن كرسيه، وأمسك بيد

ذلك الغلام، وأجلسه ملكاً في مكانه، وقال له: أنت أحق بهذا المكان مني. **وَأَرْسَلْنَاهُ بِرُسُولِهِمْ** وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ذلك الغلام حكم أربعين سنة، أقام لهم فيها أمرهم، وصلاح فيها حالهم. والذي يظهر أن يونس إنما أمر الغلام بالسلام على قومه وإخبارهم بحياته، وإشهاد البقعة والشجرة على ذلك، ليدل قومه على أنه لم يكذب عليهم، وأن كل ما كان إنما كان بأمر الله، فشهادة البقعة والشجرة للغلام شهادة ليونس بالنبوة، والنبى صادق لا يكذب^(١).

وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَّا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٢)﴾.

فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً. وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فأمنوا، واستغفروا وطلبوا العفو من الله فسمع

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ١٢٧ ، ١٢٨).

(٢) سورة الصافات: الآيتان: (١٤٧ ، ١٤٨).

لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وكانوا مائة ألف يزدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعون.

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) المؤمن الصادق يحزن ويتفطر قلبه حزناً وألماً عندما يرى قومه يعصون ربه (جل وعلا).
- (٢) أن الرفق مطلوب في كل شيء وبخاصة عند الدعوة إلى الله (جل وعلا).
- (٣) أن المؤمن عليه أن يدعو إلى الله ولا ينتظر النتائج فالهداية لا يملكها إلا الله (جل وعلا).
- (٤) ينبغي للمؤمن أن يكون وقفاً عند أمر الله، صابراً لحكمه، ولا ينبغي له أن يعجل فيما يعلم أن لله فيه أمر.
- (٥) أثر التوبة والإيمان في رفع غضب الله ومقتته وانتقامه، كما وقع من قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب.
- (٦) قد يتلى الله عباده الصالحين إذا وقع منهم شيء من المخالفة لأمر الله، كما ابتلى يونس عليه السلام

ولكنه ينجيهم بإيمانهم وصلاتهم ودعائهم، كما نجي
يونس من بطن الحوت.

(٧) أثر الدعاء والاعتراف بالخطأ في النجاة من
الاهوال، فقد نجي الله يونس بدعائه وتسبيحه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١).

(٨) فيه دلالة على قدرة الله العظيمة، فقد أسكن السفينة
ومنعها من الجريان، والسفن حولها تجرى، ومنع الحوت من
أن يهلك يونس عندما صار في بطنه، وأمره بالقائه على
شاطئ البحر، وأسمع يونس تسبيح الحصى في قعر البحر،
وأقدر الشجر والحجر على النطق والشهادة للغلام.

(٩) هذه المخالفات التي وقعت من نبي الله يونس لا
تغض من مكانته، ولا تنقص من قدره، فهو من أنبياء
الله ورسله الذين اختارهم واصطفاهم وفضلهم.

(١٠) فضل دعوة ذي النون، وقد أصبح دعاؤه هو
الدعاء الذي يطلقه المكروبون، ويدعو به المحزونون،
والذين أحاط بهم الغم والهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

(١) سورة الصافات: الآيتان: (١٤٣، ١٤٤).

قصة موسى (عليه السلام)

وتعالوا بنا لنعرف قصة نبي الله موسى (عليه السلام).
كان أهل مصر في أيام الفراعنة يعبدون الأصنام زماناً طويلاً.
فلما جاء نبي الله يوسف (عليه السلام) إلى مصر
وأصبح عزيز مصر لسنوات طويلة وكان يدعو الناس إلى
التوحيد وإلى عبادة الله (جل وعلا) فأمن أهل مصر.
* وبعد ذلك أرسل يوسف إلى أبيه يعقوب (عليهما
السلام) وإلى أهله وقرابته فجاءوا من فلسطين وعاشوا في
مصر واختلطوا بالمصريين فتعلم المصريون منهم التوحيد
وعاشوا زماناً طويلاً على الإيمان والتوحيد.
* ولكن بعد وفاة يوسف (عليه السلام) عاد أهل مصر
إلى الشرك مرة أخرى وأما بقية أبناء يعقوب (وهو
إسرائيل) فقد عاشوا في مصر.
وتكاثر أبناء إسرائيل وتزايد عددهم وأصبحوا من أمهر الناس
في كل أنواع الحرف والصناعات حتى اعتمد عليهم المصريون.
* وجاء في تلك الفترة ملك جبار حكم مصر وكان

المصريون يعبدونه - وهو فرعون المذكور في القرآن.

إن فرعون علا في الأرض

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾^(١).

أى: تجبر وعتا وطغى وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعاً، أى: قسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، ويستضعف طائفة منهم، هم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض.

وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

(١) سورة القصص: الآية: (٤).

(٢) سورة القصص: الآية: (٤).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٣٨).

عَلَّمَ أَنْ هَلَاكَ مُلْكُهُ

على يد غلام من بنى إسرائيل

وكان هذا الملك الجبار يفعل كل هذا في بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل كانوا يذكرون فيما بينهم أنه سيخرج من بنى إسرائيل غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه فوصل هذا الخبر لفرعون فأحس أن هناك خطراً على عرشه ومملكه من وجود بنى إسرائيل في مصر. ولم يكن يستطيع أن يطردهم لأن عددهم كان يزيد على مئات الألوف فلو طردهم لتحالفوا مع أعدائه ضده وفي ذلك خطر يهدد ملكه في مصر. فابتكر طريقة جهنمية للقضاء على بنى إسرائيل وهي أن يُسخرهم في الأعمال الشاقة الخطيرة من ناحية .. ومن ناحية أخرى قرر أن يُذبح كل طفل يولد في بنى إسرائيل ويترك الإناث حتى لا يتكاثر الرجال وبذلك تضعف قوتهم وينقص عدد الذكور ويزداد عدد الإناث.



إنها العناية الإلهية

ولكن القبط (أهل مصر) قالوا لفرعون: لو أنك قتلت كل ذكور بنى إسرائيل فإننا لن نجد بعد ذلك من يخدمنا ويقوم بتلك الأعمال الشاقة... فأصدر فرعون قراراً جديداً بأن يقتلوا الأطفال الذكور عاماً ويتركوا عاماً. فحملت أم موسى (عليه السلام) بهارون في العام الذي لا يُقتل فيه الذكور وولدت له علانية بلا خوف... فلما كان العام الذي يُقتل فيه الذكور وكُد موسى (عليه السلام) فخافت عليه من القتل فكانت تُرضعه في السر واتخذت له تابوتاً فربطته في حبل وكانت دارها على النيل مباشرة فكانت تُرضعه فإذا خافت عليه وضعت في ذلك التابوت (الصندوق الخشبي) وأرسلته في البحر وهي تمسك بطرف الحبل حتى لا يضيع منها.

لا تخافى ولا تحزننى

في ظل هذا الجو المشحون بالخوف وكُد موسى (عليه السلام)... فكانت أمه في غاية الخوف عليه لا تدري ماذا تصنع إلى أن جاء الأمر من الله (جل وعلا).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

* إن جنود فرعون ينتشرون في كل مكان ولو رأوا موسى (عليه السلام) لقتلوه في التو واللحظة.

* وهنا قامت أم موسى لتمثل أمر الله (جل وعلا) فأخذت موسى وأرضعته ثم ألقت في هذا الصندوق الخشبي وكلها يقين وثقة في الله أنه سيرد إليها ولدها مرة أخرى.

ألقت أم موسى الصندوق في النهر وفيه موسى (عليه السلام) . . . وهي تعلم أن الله (عز وجل) أرحم بموسى منها.

* سقط الصندوق في الماء . . . وجاء الأمر من الخالق (جل وعلا) لماء النيل أن يحمل هذا الصندوق بكل رحمة وحنية لأن هذا الطفل الرضيع سيكون بعد ذلك رسولا من أولى العزم الخمسة.



وكما أمر الله النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم فكذلك أمر النيل أن

(١) سورة القصص: الآية: (٧).

يحمل موسى بكل رحمة ورفق وهدوء حتى يوصله إلى قصر فرعون.

موسى (عليه السلام) يصل إلى قصر فرعون

ووصل الصندوق إلى الشاطئ أمام قصر فرعون.
وفي تلك اللحظة كانت زوجة فرعون تمشى في حديقة قصرها الكبير . . وكانت تختلف تماماً عن فرعون فهي امرأة رقيقة ورحيمة وهو كان جباراً . .
* وكانت تتمنى أن يرزقها الله ولداً يملأ عليها حياتها فلقد كانت لا تُنجب ولم تكن تعلم أنها ستسعد في هذا اليوم بأعظم مفاجأة في حياتها.
فعندما ذهبت الجوارى



ليأتين بالماء من النهر وجدن هذا الصندوق فأخرجنه من النهر وحملنه إلى زوجة فرعون ففتحت الصندوق وما إن رأت موسى (عليه

السلام) حتى أحست بحبه يملأ قلبها .. ولا عجب في ذلك فقد قال تعالى عن موسى (عليه السلام): ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (١). فلا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يراه ولا يحبه لأن الله ألقى عليه محبة منه.

* أمسكت زوجة فرعون بموسى (عليه السلام) وهي في غاية السعادة والسرور وذهبت به إلى فرعون فسألها: من أين جاء هذا الطفل الرضيع؟ فأخبرته بالقصة كلها فقال لها: لا بد من ذبحه فإنه من ذكور بنى إسرائيل وهذا العام هو عام الذبح.

صرخت زوجته وهي تضم موسى إلى صدرها أكثر:
﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (٢) تذكر فرعون عدم قدرة زوجته على الإنجاب، فاستجاب لرغبتها وسمح لها أن تربي هذا الطفل في قصره.

أم موسى (عليه السلام) تبكى لفراقه

وفي تلك الفترة كانت أم موسى (عليه السلام) على الرغم من ثققتها في وعد الله (جل وعلا) بأن يرد إليها

(١) سورة طه: الآية: (٣٩).

(٢) سورة القصص: الآية: (٩).

ابنها إلا أنها كانت تبكى لفراق طفلها الرضيع لكن الله برحمته ثبتها وربط على قلبها وألهمها الصبر والثبات .

الله (جل وعلا) يرد موسى إلى أمه

بعد ساعات معدودات بدأ موسى (عليه السلام) فى البكاء من شدة الجوع فأمرت زوجة فرعون بإحضار المراضع فجاءت مرضعة من القصر وأخذت موسى لترضعه فرفض أن يرضع منها . . فأمرت زوجة فرعون بإحضار مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وهو يرفض فى كل مرة أن يرضع فاحتارت زوجة فرعون وخافت عليه أن يموت .

* وفى تلك اللحظة كانت أم موسى فى بيتها تبكى على فراق طفلها وكاد قلبها أن يذوب حزناً وكمدًا على فراق ابنها حتى كادت أن تذهب إلى قصر فرعون لتخبرهم بأنها أمه . . لولا أن الله ربط على قلبها فهدأت وسكنت نفسها واطمأنت .
* لكنها أمرت أخت موسى (عليه السلام) وقالت لها: اذهبي بكل هدوء وحذر إلى مكان قريب من قصر فرعون وحاولي أن تعرفي أخبار موسى واحذري أن يشعر أحد بك .

* وهنا ذهبت أخت موسى بكل حذر وهدوء لتعلم ما الذى حدث، وهناك سمعت بكاء موسى فسألت بعض الحرس فأخبروها بأن هذا الطفل يرفض كل المراضع . .
فقالت أخت موسى لحرس فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يُرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره على أكمل وجه؟
ففرحوا بذلك وذهبوا ليخبروا زوجة فرعون التى جاءت وهى فى قمة سعادتها وطلبت منها أن تذهب فوراً لتُحضر المرضعة .
* عادت أخت موسى إلى أمها لتبشرها بهذه البشرى الغالية وأحضرت أمها معها إلى قصر فرعون .
واستأذنت الحرس فأذنوا لها ودخلوا إلى قصر فرعون .
وجاءت زوجة فرعون وقدمت موسى إلى أمه وقالت لها: أرضعيه .

فقامت أمه لتُرضعه فوضع منها وهنا تهلل وجه زوجة فرعون وقالت: خذيه عندك فى البيت وأرضعيه حتى تفتطميه ثم أعيديه إلينا بعد ذلك وسنعطيك على ذلك أجراً عظيماً . . فوافقت أم موسى على ذلك .

* عادت أم موسى تحمل طفلها الحبيب وهى لا تصدق نفسها . . يكاد قلبها أن يطير من شدة الفرح .

* وهكذا ردَّ الله (جل وعلا) موسى لأمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

موسى (عليه السلام)

يتربى فى قصر فرعون

وبعدما أتمت أم موسى رضاعته ذهبت به إلى زوجة فرعون وأسلمته لها فكان من أحب الناس إلى قلب زوجة فرعون . . وليس هذا فحسب بل كان كل من يراه لا بد أن يحبه لأن الله (عز وجل) قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (١).

* عاش موسى (عليه السلام) فى قصر فرعون حتى كبر . . وكان بيت فرعون يضم أعظم خبراء فى التربية والتدريس لأن مصر فى هذا الوقت كانت أكبر دولة فى الأرض وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض.

فشاء الله أن يتلقى موسى (عليه السلام) أفضل أنواع التدريس والتربية وأن يتم ذلك كله فى بيت عدو الله فرعون.

(١) سورة طه: الآية: (٣٩).

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) أن لكل بداية نهاية . . . ولكن نهاية الظلم دائماً تكون وخيمة، فهذا هو فرعون الذى علا فى الأرض وطغى وقال: أنا ربكم الأعلى سنرى كيف كانت نهايته .
- (٢) أنه لا يحدث شئ فى هذا الكون إلا بمشيئة الله (جل وعلا) . . . فهذا هو موسى (عليه السلام) يولد فى العام الذى يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر من بنى إسرائيل ولكن الله نجاه وجعل التابوت يصل إلى قصر فرعون وألقى محبته فى قلب امرأة فرعون ليتربى موسى فى قصر فرعون .
- (٣) لقد ورد ذكر أم موسى وأخته ولم يرد ذكر أبيه لأن الدور الكبير قامت به الأم المباركة . . . وهذا يوضح منزلة الأم ودورها العظيم فى تربية أولادها .
- (٤) أن الآلهة الباطلة لا تنفع ولا تضر . . . فهذا هو فرعون الذى كان يدعى الألوهية ويقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾^(١) عجز أن يجعل زوجته تحمل بولد .
- (٥) أن من أطاع الله (جل وعلا) فإن الله يكرمه فى الدنيا

(١) سورة القصص : الآية : (٣٨) .

والآخرة... فيها هي أم موسى لما أطاعت أمر ربها وألقت موسى في النهر ثبتها الله وربط على قلبها وأعاد إليها ولدها.

نشأة موسى (عليه السلام)

لقد نشأ موسى (عليه السلام) في قصر فرعون وهو يعلم يقيناً أنه ليس ابناً لفرعون... وكان يتعجب من الكبر والبطش الذي كان يراه من فرعون تجاه بني إسرائيل.

فالناس في هذه الآونة كانوا قسمين: أبناء يعقوب (عليه السلام) وهم بنو إسرائيل الذين جاءوا من فلسطين أيام أن كان يوسف (عليه السلام) عزيز مصر. والأقباط الفراعنة وهم أهل مصر الأصليون.

الله يُشرفه بنعمة النبوة والرسالة

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك

(١) سورة القصص: الآية: (١٤).

وامتثانه عليها، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

* لقد ورث موسى - عليه السلام - فقه الدين الذى ورثه من آبائه الأطهار الذين ينتمون إلى أبى الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن - عليه السلام -.

* كرم الله موسى (عليه السلام) بأشياء كثيرة، فقد كرم الله وجهه، فلم يسجد لآله من آلهة القصر! ومما أكرمه الله به أيضاً أن آتاه بسطة فى القوة والجسم، جعلته لا يخشى أحداً سوى الله عز وجل، وألقى محبته فى قلوب الناس، وهذا من أعظم المن (٢).

قصة قتله للرجل القبطى

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِّن

(١) سورة القصص: الآية: (٧).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ١٦١).

شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقصى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين^(١).

* ففي ذات يوم دخل موسى مدينة مصر على حين غفلة من أهلها، حيث كان النهار قد انتصف، وأغلقت الأسواق من شدة الحر، والناس في قيلولة، وبينما هو يمشى في ناحية المدينة إذ وجد رجلين يقتتلان ويتصارعان، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي من قصر فرعون حاكم مصر.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾^(٢) وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجهة.

* فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجداً به على عدوهما القبطي. فكيف وقع هذا؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر، أو من الحاشية. إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلاً

(١) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٢) سورة القصص: الآية: (١٥).

بالقصر. وأنه قد عرف أنه من بنى إسرائيل. وأنه ناقد على الملك والحاشية، ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ (١).

والوكر: الضرب بجمع اليد. والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها موت القبطى.

ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ولكنه لم يكن يقصد قتل القبطى، ولم يعمد إلى

القضاء عليه. فما كاد يراه جثة هامة بين يديه حتى

استرجع وندم على فعلته، وعزاها إلى الشيطان وغوايته،

فقد كانت من الغضب، والغضب نفخ من الشيطان:

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (٢).

ويتوجه إلى ربه، طالباً مغفرته وعفوه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (٣).

واستجاب الله إلى ضراسته، وحساسيته، واستغفاره:

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤).

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف أن ربه غفر له. والقلب

(١) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٢) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٣)، (٤) سورة القصص: الآية: (١٦).

المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى، وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى - عليه السلام - وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً، يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾^(١) . .

فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً ومُعِيناً . . وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها^(٢) .

فأصبح في المدينة خائفاً يترقب

أصبح موسى (عليه السلام) يمشى في المدينة خائفاً يترقب . . لقد كان يخشى أن يصل إلى فرعون خبر قتله لهذا الرجل القبطى فيسعى فرعون لقتله بسببه . فكان يسير في المدينة وهو يتوقع الشر من فرعون وجنوده في أى لحظة .

(١) سورة القصص: الآية: (١٧).

(٢) الفلال (٥ / ٢٦٨١ ، ٢٦٨٢) باختصار.

* وكان موسى (عليه السلام) قد وعد ربه بالأمس ألا يدخل في المشاجرات وألا يكون ظهيراً للمجرمين . . وبينما هو يسير بشوارع المدينة فوجئ بنفس الرجل الذي أنقذه بالأمس وهو ينادى عليه ويستصرخه اليوم لينصره على رجل قبضي آخر فقد كان الرجل مشتبكاً في عراك مع أحد الأقباط الفراعنة . فأدرك موسى أن هذا الرجل الإسرائيلي مشاغب فانفعل عليه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

* لقد قال موسى هذه الكلمة ثم اندفع نحوهما يريد أن يضرب الرجل القبضي فاعتقد هذا الرجل الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو وبخاصة بعدما قال له موسى (عليه السلام): ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ .

فقام هذا الرجل الإسرائيلي وقال له أمام القبضي: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٢).

فتوقف موسى (عليه السلام) وتذكر ما فعله بالأمس

(١) سورة القصص: الآية: (١٨).

(٢) سورة القصص: الآية: (١٩).

وكيف أنه أعطى العهد والوعد لله (جل وعلا) ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

فلما سمع هذا الرجل القبطى قول الإسرائيلى لموسى أنه قتل الرجل القبطى الآخر بالأمس . . أخذ هذه الكلمة وذهب وأخبر فرعون بأن موسى هو الذى قتل الرجل القبطى الذى قُتل بالأمس . . فلما علم ذلك فرعون اشتد حقه وغِيظه على موسى (عليه السلام) وعزم على قتله وأرسل جنوده ليُحضروه .

وجاء رجل من أقصى المدينة

قال تعالى: ﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ (٢) أى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع فى مشيه . هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (٣) أى : قال له يا موسى :

(١)، (٢)، (٣) سورة القصص : الآية : (٢٠) .

إن أشراف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(١) أى: فإخرج قبل أن يدركوك فانا ناصح لك من الناصحين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(٢) أى: فخرج من مصر خائفًا على نفسه يترقب ويتنظر أن يدركه أحد من جنود فرعون فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) أى: خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه^(٤).

نجاة موسى (عليه السلام) من القتل

خرج موسى من مصر مُسرِعًا، لم يذهب إلى قصر فرعون ولم يغير ملابسه ولم يأخذ طعامًا للطريق ولم يعد للسفر عدته، لم يكن معه دابة تحمله على ظهرها وتوصله، ولم يكن فى قافلة، إنما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج، اختار طريقًا غير مطروق وسلكه،

(١) سورة القصص: الآية: (٢٠).

(٢)، (٣) سورة القصص: الآية: (٢١).

(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٤٣٠) بتصرف.

دخل في الصحراء مباشرة واتجه إلى حيث قدر له الله أن يتجه، لم يكن موسى يسير قاصداً مكاناً معيناً، هذه أول مرة يخرج فيها من مصر وحده، ويعبر الصحراء وحده.

ظل موسى عليه السلام يسير بنفسية المطارد حتى وصل إلى مكان، كان هذا المكان هو مدين، دخل مباشرة يبحث عن ماء يشرب، ووجد بئراً كبيرة، جلس يستريح عند هذه البئر وكان الناس يسقون منها دوابهم، وكان خائفاً طوال الوقت، يخشى أن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليه.

لم يكد موسى يصل إلى مدين حتى ألقي بنفسه قريباً من البئر، تحت شجرة واستراح، نال منه الجوع والتعب، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير على الرمال والصخور والتراب، لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة، ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب^(١).

في أرض مدين

سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان خائفاً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء

(١) ابن الإسلام (ص: ١٧٨ ، ١٧٩).

وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه
للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرى من
داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة.

هكذا كانت مروءة الرجال

في مدين جلس موسى - عليه السلام - عند بئر
عظيمة يسقى الناس من مائها أنعامهم ومواشيهم، وكان
من عادة الناس أن الغريب إذ قدم بلدة ما، وليس لديه
فيها أحد يعرفه فإنه يتوجه إلى المكان الذي يجتمعون فيه
لسقيهم، وهناك يتعرف على أحدهم ويكون نزيلاً عنده.
* وحين بلغ موسى - عليه السلام - الماء في مدين،
وجد هناك جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم،
لكنه وجد من دونهم، وفي مكان أسفل من مكانهم
امرأتين تحبسان وتكفان غنمهما عن الماء كيما تختلط بغنم
القوم، وكيما تذهب عن الماء ومواشى الناس، ومن ثم
تبدأ هاتان المرأتان تسقيان ماشيتهما بعد ذلك... وما فعلا
هذا إلا لضعفهما ووجود من هو أقوى منهما على الماء،
ناهيك بأنهما كانتا تكرهان مخالطة الرجال.

* رأى موسى - عليه السلام - هذه الصورة من حياة أهل مدين على تلك البئر، نسي جوعه، ونسى عطشه وتعبه، وأثاره ذلك المشهد، وأحسَّ بما يشبه الإلهام أن تلكما الفتاتين بحاجة إلى من يساعدهما في عملية سقاية الغنم، وثار في نفسه دافع حب لحماية المستضعفين.

* إن الرحمة بالناس، والإحسان إلى من يعرف الإنسان، وإلى من لا يعرف... من أخلاق الأنبياء والصالحين والصادقين.

عندئذ تقدم موسى - عليه السلام - من الفتاتين وسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾^(١) وما شأنكما؟ ولماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء؟

قالتا: لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرعاة، ولهذا السبب فإننا نتأخر عن السقي.

قال موسى: ولم ترعيان؟! (نرى أن التفتا شعبي لهما)

قالتا: إن أبانا شيخ كبير لا يستطيع أن يأتي هو ليرعى ويسقى لضعفه ووهن عظمه وكبره.

وعندما سمع موسى ما قالتا المرأتان، لم يتوان في

(١) سورة القصص: الآية: (٢٣).

تقديم المساعدة لهما وقال: سأسقى لكما إن أحببتما.

* ونظر موسى، فوجد أن الرعاة قد وضعوا على قم
البئر صخرة ثقيلة لا يقدر على رفعها إلا بضعة رجال،
فرفع موسى تلك الصخرة ثم سقى لهما غنمهما، وردَّ
الصخرة كما كانت، وبعد أن سقى موسى لهما، أوى إلى
ظل شجرة قريبة من بئر الماء، جلس إلى ظل الشجرة
بجسمه البليل الذي أضناه التعب والجوع، أخذ يناجي ربه
بلسانه وقلبه، وكان يقول: رب إنى فى هذه الهاجرة،
رب إنى فقير، رب إنى وحيد، ضعيف، رب إنى فقير
إلى فضلك وكرمك^(١).

فجاءته إحداهما نقشى على استحياء

لما رجعت الفتاتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما.. تعجب
الأب وقال لهما: لقد عدتما اليوم سريعاً على غير العادة.
فقالت إحداهما: لقد وجدنا اليوم رجلاً كريماً وقوياً
سقى لنا الغنم ولم يطلب أى مقابل لهذا العمل.

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٦٣، ١٦٤).

فقال الرجل الصالح لابنته: اذهبي إلى هذا الرجل وقولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (١) .. وهكذا يكون أهل الصلاح والتقوى لا يتركون أحداً من البشر يُحسن إليهم إلا ويكافئوه على عمله.

* ذهبت الفتاة إلى موسى (عليه السلام) وسارت على استحياء وخجل شديد ثم قالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (٢).

فقام موسى (عليه السلام) وبصره في الأرض.

* وفي لحظات سريعة وومضات كالبرق، استعرض موسى - عليه السلام - ما فعله قبل قليل؛ إنه لم يسق لهاتين المرأتين غنمهما وهو ينتظر منهما أو من أبيهما أجراً، إنه عمل ما عمل ابتغاء وجه الله ليس غير، نعم لا يبتغي إلا وجه الله، فالله سيجزيه خير الجزاء.

* طلب منها موسى (عليه السلام) أن تسير خلفه حتى لا يرى أن شيء منها وظل هكذا حتى وصل إلى منزل هذا الرجل الصالح.

(١)، (٢) سورة القصص: الآية: (٢٥).

ويستجيب موسى (عليه السلام)

لدعوة الرجل الصالح

لقد استجاب نبي الله موسى (عليه السلام) لدعوة هذا الرجل الصالح وذهب إليه في بيته فأحسن الشيخ استقباله وقدم له الطعام والشراب وأكرمه غاية الإكرام ثم سأله: من أين أنت قادم وإلى أين ستذهب؟ فأخبره موسى (عليه السلام) بقصته كاملة بكل صدق وصراحة.

فطمأنه الشيخ وقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).
فهذه البلاد غير تابعة لأرض مصر فلن يصلوا إليك.

وهنا اطمأن موسى (عليه السلام) وهدأت نفسه وحمد الله (جل وعلا) ثم شكر هذا الرجل الصالح على كرم الضيافة.
* وبهذا أزال الرجل الصالح الخوف عن موسى، وأخبره بأنه أصبح في مأمن من أن تصل إليه يد فرعون أو يناله أحد من أعوان فرعون، لأن بلاد مدين ليست في سلطان فرعون، وإنما هي تابعة لملك الكنعانيين، وهم أهل قوة ونجدة، وأولوا بأس شديد.

(١) سورة القصص: الآية: (٢٥).

إن خير من استأجرت القوي الأمين

فلما أراد موسى (عليه السلام) أن ينصرف قامت ابنة هذا الرجل الصالح وهمست في أذن أبيها وقالت له: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾^(١).

يا أبي بدلاً من أن أذهب أنا وأختي لنسقى الغنم فاستأجر هذا الرجل القوي الأمين ليكفيها هذا العناء.

سألها الأب: كيف عرفت أنه قوي؟

قالت: رفع وحده الصخرة التي يغطي بها الرعاة البئر، لا يرفعها غير عشرة رجال.

سألها: وكيف عرفت أنه أمين؟

قالت: رفض أن يسير خلفي وسار أمامي حتى لا ينظر إلى وأنا أمشي، وطوال الوقت الذي كنت أكلمه فيه كان يضع عينيه في الأرض حياءً وأدباً، فهو أمين لا يعرف الخيانة.

وإذا بهذا الرجل الصالح يقول لموسى (عليه السلام):

أريد أن أعرض عليك أمراً.

فقال موسى (عليه السلام): وما هو؟

(١) سورة القصص: الآية: (٢٥).

قال الرجل الصالح: أريدك أن تتزوج إحدى ابنتي هاتين وأنا أعلم أنك لا تمتلك شيئاً الآن ولذلك سأجعل مهرها أن تعمل عندي في رعى الغنم ثمان سنين وإن أتممت عشر سنين فهذا كرم منك لن أنساه أبداً... فوافق نبي الله موسى (عليه السلام) وقال له: هذا اتفاق بيني وبينك والله شاهد على هذا الاتفاق... فإذا قضيت عندك في رعى الغنم تلك السنوات الثمانية فهذا هو الاتفاق وإن أتممت عشر سنين فأنا حرٌّ بعد ذلك في أن أمكث معك أو أذهب إلى أي مكان.

فوافق الرجل الصالح على ذلك... ومكث موسى (عليه السلام) عشر سنين عند هذا الرجل الصالح ثم استأذنه بعد ذلك في أن يرحل بأهله إلى عشيرته فأذن له الرجل الصالح.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن من المعاني الإيمانية الجميلة التي نحتاج إليها في كل زمان ومكان: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(١) فإن وجدت أخاك مظلوماً فانصره بدفع الظلم عنه وإن وجدته ظالماً فامنع من الظلم... فهذا نصرك إياه.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣).

(٢) أنه لا بد للمسافر من زاد .. فإن كان الزاد في

الدنيا هو الطعام والشراب والمال والدابة .. فإن زاد
الآخرة هو التقوى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (١).

(٣) أن المسلم لا بد أن يحذر أخاه من أى خطر يحيط
به .. ولقد رأينا كيف جاء الرجل من أقصى المدينة
ليحذر موسى من هؤلاء القوم الذين أرادوا قتله.

(٤) أن من أعظم معانى الرجولة إغاثة الملهوف
ومساعدة الضعيف .. فقد رأينا كيف أن موسى (عليه
السلام) سقى الغنم للفتاتين بلا مقابل وإنما فعل ذلك
ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا).

(٥) أنه لا يجوز للمرأة أن تخالط الرجال حتى
تستطيع أن تحافظ على نفسها .. ولا تخرج للعمل إلا إذا
كانت تحتاج للعمل وليس هناك من ينفق عليها .. فإذا
خرجت للعمل تلبس حجابها ولا تتزين أو تتعطر ولا
تخالط الرجال سواء كان ذلك فى المواصلات أو العمل.

(٦) أن زينة المرأة الحياء .. ولذلك قال تعالى عن ابنة

(١) سورة البقرة: الآية: (١٩٧).

الرجل الصالح حينما ذهبت إلى موسى (عليه السلام) لتخبره بدعوة أبيها ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾^(١).

(٧) أن المسلم لا بد أن يراقب ربه ويعلم أن الله مطلع عليه . . وقد رأينا كيف أن موسى (عليه السلام) لما ذهب مع الفتاة للقاء أبيها طلب منها أن تمشي خلفه حتى لا يراها .

(٨) أن من إكرام الضيف أن نجعله يشعر بالأمان وأن نزيل عنه الإحساس بالوحشة والغربة وأن نبشره بالخير . . ولذلك قال الرجل الصالح لموسى (عليه السلام) : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

(٩) يجوز للمرأة أن تعرض نفسها على الرجل الصالح ولكن بشكل غير مباشر لا يחדش حيائها . . وقد رأينا كيف أن ابنة الرجل الصالح قالت لأبيها : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٣) ففهم أبوها كلامها وقصدها فقال لموسى (عليه السلام) : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾^(٤).

(١)، (٢) سورة القصص : الآية : (٢٥) .

(٣) سورة القصص : الآية : (٢٦) .

(٤) سورة القصص : الآية : (٢٧) .

(١٠) «إذا أناكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه» هكذا قال النبي ﷺ... ولذا عرض الرجل الصالح ابنته على موسى رغم أنه كان لا يملك درهماً ولا ديناراً لأنه رضى دينه وخلقه.

الطريق إلى الوادى المقدس

* وتزوج موسى - عليه السلام - ووفى للشيخ بما عاهده عليه ومكث يعمل عنده وكان كما وصفته زوجته: القوى الأمين، ووفى بأوفى الأجلين وهو عشر سنين، وبهذا أكد صدق وعده، ووفاء عهده، ونحسب أنه تفانى فى سبيل تحقيق القوة والأمانة.

* وظل موسى - عليه السلام - يرعى الغنم ولكنه صنع فى تلك الفترة على عين الله فكان يسجد بقلبه وجوارحه فى محراب الوجود وتنطلق روحه فى الأفق البعيد لتتصل بنور النور وتسرح فى رحاب السماوات والأرض.

* وفى موافقة موسى - عليه السلام - على رعى الغنم دليل من الحديث الشريف، عن النبي ﷺ قال:

«ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أُرعاها على قراريط لأهل مكة»^(١).

* جاء يومٌ من الأيام على موسى وهو في مدين، فإذا به يتحرك في صدره الحنين إلى الوطن، فقد انتهت الفترة المحددة بينه وبين الرجل الصالح، واستيقظ في قلب موسى الحنين إلى مصر، .. إلى أمه التي ربط الله على قلبها مرةً أخرى عندما فارقها موسى مهاجراً إلى مدين، اشتاق موسى إلى أمه وأخته التي قصّت خبره وهو رضيع، ودلت آل فرعون على من يُرضعه ويكفله .. اشتاق إلى أخيه هارون ذلك الأخ التقى الوفي.

حكى موسى ما بنفسه إلى زوجه قال: إنني اشتقت إلى أمي وأختي وأخي هارون .. وأودُّ أن تستعدّي للرحيل إلى مصر فإن أهلي وشيعتي هنالك.

* كانت زوجته - كما أسلفنا - من أكمل نساء عصرها ديناً ووفاء، فسرعان ما استجابت لرغبة زوجها، وأعدت متاعها، وما تحتاج إليه من أدوات السفر، وخرجت مع موسى

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٦٢).

إلى مصر وكانت حاملاً وكانت قد ولدت لموسى ولدين^(١).
على أية حال ها هو ذا عائد في طريقه، ومعه أهله،
والوقت ليل، والجو ظلمة؛ وقد ضل الطريق، والليل شاتية.
فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعد نارا تأجج في جانب
الطور - وهو الجبل الغربى منه - عن يمينه ف﴿قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾^(٢) وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم،
لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل
أحد: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾^(٣) أى: لعلي أستعلم من
عندها عن الطريق: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٤).

يا موسى إني أنا الله رب العالمين

لقد سار موسى (عليه السلام) غير بعيد فأبصر من الجهة
التي تلى الطور نارا فامتلاً قلبه بالسعادة والسرور والتفت إلى
زوجه وقال لها: إني آنست نارا سأنطلق لعلي آتيكم منها
بخبر أو لعلي أجد أحداً أسأله عن الطريق الموصلة إلى مصر.
* أمر موسى أهله أن يجلسوا مكانهم ليحضر لهم ما

(١) نساء الانبياء (ص ١٧٦ - ١٧٨) بتصرف.

(٢)، (٣)، (٤) سورة القصص: الآية: (٢٩).

يذهب عنهم البرد ويطرد عنهم الظلام، ذكر الله هذا المشهد الدقيق في تلك الساعة الحرجة: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (١).
 * انطلق موسى مسرعاً في الوادي المقدس يتوكأ على عصاه باتجاه النار التي تراءت له عن بعد، كان الماء قد بلل جسمه، وظل يسير في وادي طوي، بعد دقائق لاحظ شيئاً غريباً في هذا الوادي، لم يكن هناك رعد ولا برق ولا رياح، كان الكون قد لفَّه خشوع عجيب، وسكون مفعم بالتسبيح، وصمت عظيم ساكن خاشع.
 * أحس موسى بشيء ما يحرك نفسه، لكنه لم يعرف ماهية هذا الشيء. **ابن النار! ابن النار!**
 * اقترب من النار... لم يكذب يقترّب منها حتى نودي من رب العزة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).
 * ارتعدت فرائض موسى، وتسلسل الخوف إلى نفسه، وشعر برغبة ملحة في الفرار مما سمع ورأى، لكنه تماسك

(١) سورة النمل: الآية: (٧).

(٢) سورة النمل: الآية: (٨).

رغم أنه مرتعش من ذلك الموقف، كان الصوت يجيء من كل مكان، ولا يأتى من مكان محدد، أو من جهة محددة، لم يستطع موسى تحديد جهة الصوت.

* مرة أخرى، دنا موسى من النار، ليأخذ منها قبساً لأهله، فإذا المكان يتسم بالخشوع والرهبة والنور^(١).

* نظر موسى فى النار وعاد يرتعش، وجد شجرة خضراء داخل هذا النور وكلما زاد تأجج النار زادت خضرة الشجرة، المفروض أن تتحول الشجرة إلى اللون الأسود وهى تحترق، لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد، راح موسى يرتجف رغم الدفء، كانت الشجرة فى جبل غربى عن يمينه، وكان الوادى الذى يقف فيه هو وادى طوى.

* وفجأة .. وإذا بالحق (جل وعلا) ينادى عليه: ﴿يَا مُوسَى (١١) إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾^(٢).

وكان موسى فى وادى اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالوادى المقدس طوى، فأمره أولاً

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٧٩ ، ١٨٠) باختصار.

(٢) سورة طه: الأيتان: (١١، ١٢).

بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة،
ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

* ازدادت دهشة موسى، فإذا بالنداء العلوي من رب
العالمين يناديه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ
أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (١٦).

عصا موسى (عليه السلام)

لقد كان جسد موسى (عليه السلام) يتفusus من هيبة
وجلال هذا الموقف العظيم إنه يستمع إلى فاطر السماوات
والأرض وهو يخاطبه.

وفجأة قال الحق (جل وعلا) لموسى: ﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ
يَا مُوسَىٰ﴾ (٢)؟!

تعجب نبي الله موسى (عليه السلام) . . فآله يسأله

(١) سورة طه: الآيات: (١٣ - ١٦).

(٢) سورة طه: الآيات: (١٧).

وهو الذى يعلم كل شىء فلماذا يسأله؟ لا شك أن هناك
حكمة جليلة لا يعلمها موسى (عليه السلام) فأجابه
وصوته يرتعش: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (١).

* وكان يكفى موسى (عليه السلام) أن يجيب بكلمة
واحدة ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ (٢) لكنه أطال الحديث لأنه يشعر بمتعة
عجيبة وهو يتكلم مع ربه (جل وعلا) ويسمعه وهو يتكلم.
* قال الله له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ (٣) فألقى موسى عصاه
بسرعة وخوف وإذا به يرى العصا وقد تحولت إلى حية
عظيمة ضخمة لها أنياب وتتحرك بسرعة كأنها جان ..
فما كان من موسى إلا أن ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ (٤) هارباً منها
وأخذ يجرى بسرعة ولم يلتفت خلفه فناده ربه قائلاً له:
﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (٥)، ﴿يَا مُوسَى لَا
تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦).

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (١٨).

(٣) سورة طه: الآية: (١٩).

(٤)، (٥) سورة القصص: الآيات: (٣١).

(٦) سورة النمل: الآية: (١٠).

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾^(١) فيقال إنه خاف منها فوضع يده في كُم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها.. فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين!

معجزة اليد

ثم أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلأل كالقمر بياضاً من غير سوء، أى: من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^(٢) قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يذهب خوفك.

* وفي تلك اللحظة جاء نداء من العلى الحكيم لموسى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٣).

* عرف موسى أنه أمر بالرسالة من رب العالمين،

(١) سورة طه: الآية: (٢١).

(٢)، (٣) سورة القصص: الآية: (٣٢).

وعليه تبليغ ما أمر به، فقد اصطفاه الله لنفسه، وكفى... وسيتم أمر الله بإذن الله.

موسى (عليه السلام)

يستعد للقاء فرعون

* والآن، فقد تركنا زوج موسى في خيمتها تنتظر عودة زوجها، لا ندري ما الوقت الذي استغرقه موسى في مناجاته، ولا ندري ماذا دار بذهن زوجته... كل ما نتوقعه أن الله سبحانه قد ربط على قلبها... ولم تساورها المخاوف إلى أن عاد زوجها موسى وزفَّ إليها بشارة النبوة والرسالة، ثم انحدر بها إلى مصر^(١).

* وهنا أمره الله (جل وعلا) بعد هاتين المعجزتين - العصا واليد - أن يذهب إلى فرعون الطاغية الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٢) من أجل أن يدعوه برفق ولين ويأمره أن يتركه يخرج بني إسرائيل من مصر ليدخلوا الأرض المقدسة فراراً من بطش فرعون وإيذائه.

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٨٢).

(٢) سورة النازعات: الآية: (٢٤).

وهنا أحس موسى (عليه السلام) بخوف شديد لأنه قتل رجلاً من أقباط مصر فيخشى أن يقتلوه . . فسأل الله (عز وجل) أن يرسل معه أخاه هارون ليكون عوناً له على ذلك .
وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين: ﴿ قَالَ سَنُشَدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

* بل وطمأنه الله (عز وجل) بأنه سبحانه سيكون معهما يسمع ويرى كل شيء وطمأنه بأن فرعون رغم بطشه وقسوته إلا أنه لن يمسهما بسوء .

واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي

لما قال تعالى لموسى (عليه السلام): ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢) ، دعا موسى ربه وابتهل: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٣) .
 قيل إنه (عليه السلام) لما كان طفلاً صغيراً ضرب

(١) سورة القصص: الآية: (٣٥) .

(٢) سورة طه: الآية: (٢٤) .

(٣) سورة طه: الآيات: (٢٥ - ٢٨) .

فرعون على لحيته فأراد فرعون قتله فقالت امرأة فرعون: إنه طفل صغير لا يعرف الفرق بين التمرة والجمرة. فأراد فرعون أن يختبره حتى يعرف هل كان يقصد ضربه على لحيته أم أنه فعلاً لا يفهم في هذا السن الصغير. فأمر بإحضار طبق فيه تمر وطبق فيه جمر ثم أمره أن يأخذ منهما فأراد موسى (عليه السلام) أن يأخذ من التمر فأخذ جبريل بيده إلى الجمرة فأخذها ووضعها على لسانه فأصابه لثغة في لسانه. فلما كبر وأراد الله منه أن يذهب إلى فرعون . . . سأل الله أن يُذهب بعض هذه اللثغة حتى يستطيع أن يتكلم مع فرعون فيفهم كلامه فاستجاب الله له.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿(١)﴾

أى: قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم.

(١) سورة طه: الآيات: (٢٩ - ٣٦).

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا

بعد ما جاء الأمر من الله (عز وجل) لموسى (عليه السلام) أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون من أجل دعوته ومن أجل إنقاذ بني إسرائيل من بطش فرعون وتعذيبه .. أخذ موسى طريقه إلى أرض مصر ليواجه بطش أخطر جبابرة عصره وهو يعلم أن فرعون لن يعطيه بني إسرائيل بغير صراع مرير .

* إن موسى (عليه السلام) ذاهب لدعوة فرعون الطاغية وهو مع ذلك لا ينسى أن يدعو برحمة كما أمره الله : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ .

قال الفضل بن عيسى الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه وينادي به^(١).

وقال قتادة: يا رب إن كان هذا حلمك برجلٍ قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴾^(٢) فكيف يكون حلمك بعبدٍ سجد لك وقال: «سبحان ربي الأعلى»!!؟

(١) سورة طه: الآيات: (٤٢ - ٤٤).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٣، ٣٦٤) باختصار.

(٣) سورة النازعات: الآية: (٢٤).

لا تخافا إنتي معكما أسمع وأرى

وصل موسى (عليه السلام) إلى مصر ودخل على أمه وأخيه فلم يعرفاه في بادئ الأمر ثم عرفاه وسلموا عليه. ثم قال موسى لهارون (عليه السلام): إن ربي قد أمرني أن أذهب إلى فرعون لأدعوه إلى الله .. وأمرك ربي أن تعاونني.

فقال هارون (عليه السلام): سمعاً وطاعة لأمر ربي.

* فذهب موسى وهارون (عليهما السلام) إلى فرعون وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال: من يجترئ على هذا الصنيع الشديد، فأخبره السدنة والبوابون بأن ها هنا رجلاً مجنوناً يقول إنه رسول الله فقال: على به فدخل عليه موسى وهارون فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ^(١) أى قد جئناك بمعجزة من ربك والسلام عليك إن اتبعت الهدى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيْنَا مِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ^(٢) أى: قد

(١) سورة طه: الآية: (٤٧).

(٢) سورة طه: الآية: (٤٨).

أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته^(١).

أمام فرعون .. وجهها لوجه

بدأ موسى (عليه السلام) يخاطب قلب فرعون بكلمات رقيقة لعل قلبه أن يلين وأن يؤمن برب العالمين. بدأ موسى يحدثه عن رحمة الله وجنته وأنه لا يريد منه أن يتنازل عن ملكه بل يريد أن يضيف له ملكاً أعظم من ملكه في جنات النعيم إن آمن وأسلم لله (جل وعلا). * ومع ذلك كان فرعون يستمع إلى كلام موسى (عليه السلام) بازدراء واستهزاء ثم سأل موسى (عليه السلام): ماذا تريد؟

قال موسى: أريد أن ترسل معي بنى إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) أى: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربهم وربك، فإنهم من سلالة نبي كريم، إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن^(٣).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٠٥).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٧).

* فلما قال موسى ذلك ازدراه فرعون وامتن عليه قائلاً له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟!

وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم، ولم تُخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟!

ويذكره بحادث مقتل القبطى فى تهويل وتحجيم: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ (٢). فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣) أى: من الجاحدين.

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه رداً قاتلاً لا يملك موسى - عليه السلام - معه جواباً، ولا يستطيع مقاومة.

(١) سورة الشعراء: الآية (١٨، ١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٩).

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٩).

وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من قصاص،
يتهدده به من وراء الكلمات!

ولكن موسى - وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة
لسانه - انطلق يجيب: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
(٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾.

فعلت تلك الفعل وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع
العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتھا اليوم بما
أعطاني ربي من الحكمة ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (٢٢) على
نفسى. فقسم الله لى الخير، ووهب لى الحكمة ﴿وَجَعَلَنِي
مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٣)، ثم يجيبه تهكمًا بتهكم. ولكن بالحق
﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٤) . . فما
كانت تربيتى فى بيتك وليدًا إلا من جراء استعبادك لبنى
إسرائيل، وقتلك أبناءهم، مما اضطر أُمى أن تلقينى فى

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٢٠ ، ٢٢).

(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٢١).

(٤) سورة الشعراء: الآية: (٢٢).

التابوت، فتقذف بالتابوت في الماء، فتلتقطونني، فأرْبِي في بيتك، لا في بيت أبوي. فهل هذا هو ما تمنَّه عليَّ، وهل هذا هو فضلك العظيم؟! ^(١)

لقد أحسنت إلى رجلٍ واحد واستعبدت الأمة كلها.

فرعون يجادل موسى (عليه السلام)

ولما علم فرعون أن موسى (عليه السلام) جاءه بالحُجج القوية التي لا مفر منها بدأ يجادله ليصرفه عن مهمته ولكن هيهات هيهات.

قال تعالى حاكياً عن مجادلة فرعون لموسى (عليه السلام) أنه قال: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ ^(١) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ^(٢).

أى: هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له.

(١) الظلال (٥ / ٢٥٩١).

(٢) سورة طه: الآيتان: (٤٩، ٥٠).

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾^(١) يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلاق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾^(٢) أى: هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم من صغير وكبير، وسيجزئهم عن ذلك ربى عز وجل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده فى كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربى شيئاً^(٣).

الداعية الصادق لا يغضب لنفسه أبداً

وها هو الحوار مازال مفتوحاً والجدال ما زال قائماً بين فرعون وموسى (عليه السلام) .. فلما أحس فرعون أنه لن يستطيع أن

(١) سورة طه: الآية: (٥١).

(٢) سورة طه: الآية: (٥٢).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٦).

يواجه موسى (عليه السلام) بمثل كلماته وعباراته الصادقة بدأ يتهمه بأشنع التهم لكي يغضب موسى لنفسه ويترك دعوته وما جاء إليه ليدافع عن نفسه ولكنه (عليه السلام) لم يلتفت إليه بل مضى يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين. **قال تعالى حاكياً هذا المشهد المهيّب: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)**

أى: من هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى؟ **قال موسى:** ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٢) **أى:** خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له، فالجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٣) **أى:** إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة ﴿قَالَ﴾^(٤) **فرعون على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله:** ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾^(٥) **أى:** ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلهاً غيرى؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(٦)

(١) سورة الشعراء: الآية: (٢٣).
(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٢٤).
(٤)، (٥) سورة الشعراء: الآية: (٢٥).
(٦) سورة الشعراء: الآية: (٢٦).

أى: خالفكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ﴿قال﴾^(١) فرعون لقومه: ﴿إن رُسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾^(٢) أى: ليس له عقل فى دعواه أن ثم رباً غيرى ﴿قال﴾^(٣) موسى لقوم فرعون مجيباً ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾^(٤) أى: هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب فإن كان فرعون يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً،... ولما انقطعت حجة فرعون وبُهِت، عدل إلى استعمال قوته وسلطانه^(٥).

لم ينتفع فرعون بتلك الآيات

ولجأ فرعون إلى القوة والسلطان وهدد موسى (عليه السلام) إن اتخذ إلهاً غيره فعند ذلك قال موسى: ﴿أولو جنتك بشئ مبين﴾^(٦) أى: ببرهان قاطع واضح ﴿قال فأت به

(١)، (٢) سورة الشعراء: الآية: (٢٧).

(٣)، (٤) سورة الشعراء: الآيتان: (٢٨).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩).

(٦) سورة الشعراء: الآية: (٣٠).

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١)

أى: ظاهر فى غاية الجلاء والعظمة، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروع ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ (٢) أى: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٣) أى: تتلأأ كقطعة من القمر (٤).

وقال فى موضع آخر: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٥).

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٦) الثعبان هو الذكر من الحيات فاتحة فاهها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها دُعر منها ووُثب، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٣١، ٣٢).
(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٣٣).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠).
(٥) سورة الأعراف: الآيات: (١٠٦ - ١٠٨).
(٦) سورة الأعراف: الآيات: (١٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١) أى :

أخرج يده من درعه تتلألأ من غير برص ولا مرض .
ومع هذا كله لم يستفح فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر ، وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتى بيانه فى موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملته ، وأهل دولته وملته . . ولله الحمد والمنة (٢) .

موعدكم يوم الزينة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٣) .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ،

(١) سورة الأعراف : الآيات : (١٠٨) .

(٢) قصص الأنبياء (ص : ٣٦٢) يتصرف .

(٣) سورة طه : الآيات : (٥٦ - ٥٩) .

فى تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم. وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يظهر آيات الله وحُججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. ولهذا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾^(١) وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾^(٢) أى: من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لآئه على بصيرة من ربه، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه^(٣).

* ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾^(٤) أى: والله لقد بصرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا، واليد، والظوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾^(٥) أى: كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر،

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (٥٩).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٧).

(٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٥٦).

وَأَبَى الْإِيمَانَ وَالطَّاعَةَ لِعَتْوِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ ^(١) أَيْ قَالَ فِرْعَوْنُ: أَجِئْتَنَا يَا مُوسَى بِهَذَا السِّحْرِ لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ ^(٢) أَيْ: فَلَنُعَارِضَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِ الَّذِي جِئْتَ بِهِ لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ سَاحِرٌ وَلَسْتَ بِرَسُولٍ ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ ^(٣) أَيْ: حَدِّدْ لَنَا وَقْتَاجْتِمَاعٍ ﴿لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ^(٤) أَيْ: لَا نَخْلِفُ ذَلِكَ الْوَعْدَ لَا مِنْ جِهَتِنَا وَلَا مِنْ جِهَتِكَ وَيَكُونُ بِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتُ مُعَيَّنٍ ^(٥) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ ^(٦) أَيْ قَالَ مُوسَى: مَوْعِدُنَا لِلْاجْتِمَاعِ يَوْمَ الْعِيدِ - يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ أَعْيَادِهِمْ - وَأَنْ يَجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ضُحَى ذَلِكَ النَّهَارِ ^(٧).

(١) سورة طه: الآية: (٥٧).

(٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٥٨).

(٤) سورة طه: الآية: (٥٨).

(٥) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ واختار الطبري أن المراد مكانًا تستوى مسافته على الفريقين.

(٦) سورة طه: الآية: (٥٨).

(٧) القرطبي (١١ / ٢١٤).

وها هو فرعون يجمع السحرة

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ (١).

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء في فئهم فجُمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌ غفير.

كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصى. وحضر فرعون وأمرأؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ السُّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السُّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠).

*** قالوا للناس:** هل لكم في أن تجتمعوا ولا تتأخروا حتى تشاهدوا فوز السحرة على موسى؟ ... والجماهير تحب أن ترى كل ما هو مثير.

(١) سورة طه: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (٣٨ - ٤٠).

* أما السحرة فقد كانوا في غاية الحرص على المال والقرب من فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لُمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿ (١) .
فهؤلاء السحرة كانوا لا يشغلهم دين ولا عقيدة وإنما كان كل ما يشغلهم الأجر والمصلحة . . فوعدهم فرعون بالمال وبما هو أهم من المال . . وعدهم أن يكونوا من المقربين إليه .

في ساحة المواجهة

وهناك في ساحة المواجهة وقف فرعون وحاشيته وحضر موسى وهارون (عليهما السلام) واجتمع الناس من كل مكان وكان يوماً مشهوداً.
وحضر السحرة ومعهم من فنون السحر الكثير والكثير وكانوا في غاية الثقة أنهم سيغلبون موسى (عليه السلام) .
ولذلك بدأوا كلامهم مع موسى بأن خيروه وقالوا له: ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ (٢) .

وهنا تظهر ثقة موسى بنصر ربه (جل وعلا) فقال

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٤١ ، ٤٢) .

(٢) سورة طه: الآية: (٦٥) .

لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ (١) فألقى السحرة عصيهم وحبالهم وأقسموا بعزة فرعون الطاغية. ﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٢). رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فإذا المكان يمتلئ بالشعابين فجأة.

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (٣). * لقد سحروا أعين الناس فجعلوها ترى شيئاً خلاف الحقيقة وأثاروا الرهبة والخوف في قلوب الناس حتى إن موسى (عليه السلام) أحس بخوف شديد. * وفي تلك اللحظة يثبت به ربه (جل وعلا) ويذكره بأن معه القوة الكبرى.



﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ (٦٨) ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (٤).

(١) سورة طه: الآية: (٦٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٤٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١١٦).

(٤) سورة طه: الآية: (٦٨ ، ٦٩).

لا تخف إنك أنت الأعلى . فمعك الحق ومعهم
الباطل . معك العقيدة ومعهم الحرفة . معك الإيمان
بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم
الحياة . أنت متصل بالقوى الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً
بشرياً فانيأ مهما يكن طاغية جباراً .

وهكذا سجد السحرة لفاطر السماوات والأرض

وألقي موسى . . ووقعت المفاجأة الكبرى . والسياق
يصور ضخامة المفاجأة بوقعها فى نفوس السحرة الذين
جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها ، والذين
كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم
بعضاً . والذين بلغت بهم البراعة فى فنهم إلى حد أن
يخاف موسى ويُخيل إليه - وهو الرسول - أن حبالهم
وعصيتهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة فى
نفوسهم فى صورة تحول كامل فى مشاعرهم ووجدانهم ،

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (١) (٢).

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدتهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهناك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذي ابتعث موسى (عليه السلام) وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخرروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا

(١) سورة طه: الآية: (٧٠).

(٢) الظلال (٤/ ٢٣٤٢).

بلوى: ﴿أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (١).

أمنتُم له قبل أن آذن لکم!!

فلما رأى فرعون أن هؤلاء السحرة قد أسلموا وجعلوا سيرة موسى وهارون (عليهما السلام) على كل لسان واشتهر أمرهم بين الناس أراد فرعون أن يصد الناس عن سبيل الله بطريقة مأكرة.

قال فرعون: ﴿أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (٢). . كأنه يقول: كان يجب عليكم أن تستأذنوني عندما أردتم أن تؤمنوا بآله موسى.

ثم قال لهم: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (٣)، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤).

* وهذا الذي قاله كله كذب في كذب . . وذلك لأن الناس جميعاً يعلمون أن موسى (عليه السلام) لم ير هؤلاء السحرة قبل ذلك أبداً وأن الذي جاء بهؤلاء السحرة هو

(١) سورة طه: الآية: (٧٠).

(٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٧١).

(٤) سورة الاعراف: الآية: (١٢٣).

فرعون نفسه فكيف يكون موسى هو الذى علمهم السحر .

البطش والتعذيب .. سلاح من لا حجة له

فلما وجد فرعون أنه لا يملك حجة أمام هذا الموقف العصيب وإذا به يلجأ إلى البطش والتعذيب والقتل فقال لهم: ﴿فَلأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾^(١) أى: فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾^(٢) أى: لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شر قتلة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾^(٣) أى: ولتعلمن أيها السحرة من هو أشد منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم رب موسى الذى صدقتم به وآمنتم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾^(٤) أى قال السحرة: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذى جاءنا من الله على يد موسى ولو كان فى ذلك هلاكنا ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾^(٥) قسم بالله أى: مقسمين بالله الذى خلقنا

(١)، (٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٧١).

(٤) سورة طه: الآية: (٧٢).

(٥) سورة طه: الآية: (٧٢).

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(١) أى: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٢) أى: إنما ينفذ أمرك فى هذه الحياة الدنيا وهى فانية زائلة ورغبتنا فى النعيم الخالد.

لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة فلذلك قالوا ما قالوا:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾^(٣) أى: آمنا بالله ليغفر الذنوب التى اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصى ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾^(٤) أى: ويغفر لنا السحر الذى عملناه لإطفاء نور الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^{(٥)(٦)}.

* والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم عليهم السلام. فكانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء برة! ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^{(٧)(٨)}.

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (٧٢).

(٣)، (٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٧٣).

(٦) صفوة التفاسير (٢/ ٢٣٨ - ٢٤٠) بتصرف.

(٧) سورة الاعراف: الآية: (١٢٦).

(٨) قصص الأنبياء (ص: ٣٧٣ ، ٣٧٤) بتصرف.

استعينوا بالله واصبروا

لقد تحير فرعون فلا يدري ماذا يصنع مع نبي الله موسى (عليه السلام).

وإذا بالملأ والأكابر من قوم فرعون يتآمرون مع فرعون على موسى وقومه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾^(١).

إنهم يتآمرون ويحرضون فرعون الطاغية على موسى ومن آمن معه فيقولون له: هل ستترك موسى وقومه يعبدون الله ويتركون عبادة آلهتك وأنت الإله العظيم. . إن هذا سيمثل خطراً كبيراً على مملكك وسيكون سبباً في انتشار الفساد في بلادك فلا بد أن تسعى لإيجاد حل في أسرع وقت!!

إنهم يرون أن عبادة فرعون هي عين الصلاح وأن عبادة الله تجلب الفساد إلى البلاد والعباد!!

* فما كان من فرعون إلا أن انفعّل وأحس بأن دعوة موسى (عليه السلام) تمثل خطراً عظيماً على ملكه فأصدر هذا القرار الوحشي: ﴿قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

(١) سورة الاعراف: الآية: (١٢٧).

وإنا فوقهم قاهرون ﴿١﴾. **﴿١﴾** هذا كذبهم عند الله.

* ولم يكن هذا التعذيب جديداً على بنى إسرائيل فقد كان فرعون يقتل ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم.

* وهنا بدأ موسى (عليه السلام) يوصي المؤمنين بالصبر والاحتساب والاستعانة بالله (جل وعلا) ويخبرهم بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة لمن يتقى الله ويخشاه.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **﴿٢﴾**.

* ولكن المشكلة أن أكثر الذين آمنوا مع موسى (عليه السلام) بعد قتل السحرة هم مجموعة من الشباب الصغير وقد امتلأت قلوبهم خوفاً من البطش والتعذيب.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ **﴿٣﴾**.

* حاول موسى (عليه السلام) تثبتهم كثيراً ليُخرج الخوف من قلوبهم إلا أنهم كانوا قد نفد صبرهم وبدأوا

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٢٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٢٨).

(٣) سورة يونس: الآية: (٨٣).

يشتكون من العذاب الذي حلَّ بهم. ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ (١).

وكانهم يقولون: لقد أوزينا كثيراً قبل مجيئك فلما جئتنا لم يتغير أى شيء فما زال العذاب يحل بنا فى كل وقت وحين. فأخذ موسى (عليه السلام) يُصبرهم ويُذكرهم بالله ويفتح أمامهم باب الأمل فى أن يُهلك الله فرعون ومن معه ويستخلفهم فى الأرض. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وقال فرعون ذرونى أقتل موسى

وهل كان فرعون عاجزاً عن ذلك حتى يقول لمن حوله ذرونى أقتل موسى؟! - أى: اتركونى أقتل موسى - . إنه لا يقصد بهذا الكلام أن يتركوه ليقتله وإنما أراد منهم أن يهيئوا له المناخ العام حتى إذا قتله لا يحزن الشعب لقتله فيثأروا له . . فما كان من بطانة السوء إلا

(١)، (٢) سورة الاعراف: الآية: (١٢٩).

أن قامت بحملة إعلامية خبيثة .. الهدف منها التشكيك في رسالة موسى (عليه السلام).

قال تعالى موضحاً هذه الصورة: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١).

*** قال تعالى:** ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ (٢) **أى** قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (٣) **أى:** وليناد ربه حتى يخلصه مني.

*** وإنما قال فرعون ذلك على سبيل الاستهزاء ..** وكأنه يقول: لا تظنوا أن هناك أى إله غيرى فأنا ربكم الأعلى وليس هناك إله ينفع أو يضر غيرى!!

صار فرعون واعظاً!!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٤).

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٢٧).

(٢)، (٣) سورة غافر: الآية: (٢٦).

(٤) سورة غافر: الآية: (٢٦).

لقد ذكر فرعون السبب الذي دعاه لقتل موسى (عليه السلام) وهو أن وجوده سيُفسد على الناس دينهم ودنياهم!!
فأما فساد الدين: فإن الناس سيتبعون موسى (عليه السلام) ويعبدون رب العالمين (جل وعلا) ويتركون عبادة فرعون!!
وأما فساد الدنيا: فإنه سيجتمع الناس حوله وستحدث الفتن بينهم وبين قوم فرعون . . وهذا كما قال المثل: «صار فرعون واعظاً».

موازين الباطل مقلوبة

إن فرعون يعتقد من داخله أنه هو الذي يهدي الناس إلى طريق الرشاد وأن موسى (عليه السلام) هو الذي يُظهر في الأرض الفساد!!
هكذا قالها صريحة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾^(١). فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله - عليه السلام - :
 ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾!!؟^(٢).

(١)، (٢) سورة غافر: الآية: (٢٦).

فهل أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية
مصلح؟^(١) .

مؤمن آل فرعون

لما أصر فرعون على قتل موسى (عليه السلام) ما كان
من نبي الله موسى إلا أن التجأ إلى الله (جل وعلا)
ليحميه من بطش فرعون. ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(٢) .

* وبينما كان فرعون يجلس في ديوانه مع الملائ والخاصية
يدبرون لقتل موسى (عليه السلام) وإذا بالحق (جل وعلا) يُقيض
لنبيه موسى (عليه السلام) رجلاً صالحاً مؤمناً يكتُم إيمانه فدافع
عن موسى أشد الدفاع فقال في اجتماعه مع فرعون وحاشيته:

* إن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه، وجاء بعد
ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولاً، وهناك احتمالان
لا ثالث لهما: أن يكون موسى كاذباً، أو يكون صادقاً،

(١) الظلال (٥/ ٧٨-٣).

(٢) سورة غافر: الآية: (٢٧).

فإذا كان كاذباً ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾^(١)، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله، وإذا كان صادقاً وقتلناه، فما هو الضمان لنجاتنا من العذاب الذى يعدنا به؟

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾^(٢).

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتُم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه.

* والمقصود أن هذا الرجل كان يكتُم إيمانه، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب.

* ثم وضع لهم هذا الرجل المؤمن أنهم اليوم فى مركز الحكم والقوة ولكن إذا كان موسى نبياً فقتلتموه فمن ينصركم من عذاب الله وبأسه وعقابه إذا نزل بكم فقد يزول ملككم إذا قتلتم موسى فإنه ما من دولة

(١) سورة غافر: الآية: (٢٨).

(٢) سورة غافر: الآية: (٢٨).

تعرضت للدين إلا كان ذلك سبباً في زوال ملكهم .
 * كانت كلمات هذا الرجل المؤمن مقنعة جداً . .
 وخصوصاً أنه لا أحد يعلم بإيمانه فهو في الظاهر يتكلم
 هذا الكلام خوفاً على فرعون وملكه . . ولكنه في الحقيقة
 رجل مؤمن يدافع عن نبي الله موسى (عليه السلام) .

وها هو يخوفهم بيوم الأحزاب

وما زال الرجل المؤمن يحذرهم من بأس الله تعالى في
 الدنيا والآخرة: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ
 يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ (١) .

* ثم يطرق على قلوبهم طريقة أخرى، وهو يذكرهم
 بيوم آخر من أيام الله . يوم القيامة . يوم التنادي: ﴿ وَإِنِّي
 قَوْمٌ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٢) .

(١) سورة غافر: الآيتان: (٣٠ ، ٣١) .

(٢) سورة غافر: الآيتان: (٣٢ ، ٣٣) .

وفى ذلك اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . . وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . . وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة . . فالتنادى واقع فى صور شتى . وتسميته ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾^(١) تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام . . وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن .

﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾^(٢) . . وقد يكون ذلك عند فرارهم من هول جهنم، أو محاولتهم الفرار . . ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار .

وصورة الفرع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٣) . . ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٤) . . وتلميحا بأن الهدى هدى الله . . وأن من أضله الله فلا هادى له والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق

(١)، (٢)، (٣) سورة غافر: الآيتان: (٣٢ - ٣٣).

(٤) سورة غافر: الآية: (٢٩).

الهدى ومن يستحق الضلال^(١).

وكذلك زين لفرعون سوء عمله

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظل فرعون في ضلاله، مُصرّاً على التكرار للحق. ولكنه تظاهر بأنه أخذ في التحقق من دعوى موسى، ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها. فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾^(٢) يا هامان ابن لي بناءً عالياً لعلّي أبلغ به أسباب السماوات، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾^(٣).. هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور، كنى لا يواجه

(١) الظلال (٥ / ٣٠٨٠).

(٢) سورة غافر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٣) سورة غافر: الآية: (٣٧).

الحق جهرة، ولا يعترف بدعوة الوحداية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

وان الآخرة هي دار القرار

وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة، بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد . وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذرهم عذاب الآخرة، وبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان^(١).

*** قال تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾.



(١) الظلال (٥ / ٣٠٨٢).

(٢) سورة غافر: الآيات: (٣٨ - ٤٠).

ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة

وتدعونني إلى النار

* ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (١)

أى: ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ (٢) أى: تدعونني للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لى علم بربوبيته، وما ليس بآله كفرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (٣)، أى: وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذى لا يُغلب، الغفار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (٤) أى: حقًا إنما تدعونني لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ (٥) أى: لا يصلح أن

(١) سورة غافر: الآية: (٤١).

(٢)، (٣) سورة غافر: الآية: (٤٢).

(٤)، (٥) سورة غافر: الآية: (٤٣).

يُعبَد لآنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج
كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾^(١)
أى: وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازى كلاً بعمله ﴿وَأَنْ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٢) أى: وأن المسرفين فى الضلال
والطغيان سيُخلَّدون فى النار.

فستذكرون ما أقول لكم

* ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾^(٣) أى: فستذكرون صدق
كلامى عندما يحل بكم العذاب،... وهو تهديد ووعد
﴿وَأَقْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٤) أى: أتوكل على الله، وأسلم
أمرى إليه .. وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله ﴿إِنْ
اللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾^(٥) أى: مطلع على أعمالهم، لا تخفى
عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا﴾^(٦) أى:
فنجاه الله من شذائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذى
أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾^(٧) أى: ونزل

(١)، (٢) سورة غافر: الآية: (٤٣).

(٣)، (٤)، (٥) سورة غافر: الآية: (٤٤).

(٦)، (٧) سورة غافر: الآية: (٤٥).

بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسره بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(١) أى: النار يُحرقون بها صباحاً ومساءً... والمراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢) أى: ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا^(٣).

إقامة الحجة قبل الهلاك

لقد مضى فرعون في غيّه وضلاله وتهديده... فقتل الرجال واستحيا النساء وسلط على بنى إسرائيل أشد أنواع القهر والعذاب.

وفي نفس الوقت كان موسى (عليه السلام) يُصبر قومه الذين آمنوا معه.

وهكذا ظل فرعون في ضلاله وظلمه لهؤلاء المؤمنين... وفي المقابل ظل موسى وقومه يصبرون على الابتلاء

(١)، (٢) سورة غافر: الآية: (٤٦).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ١٠٤).

ويرجون الفرج من عند الله (جل وعلا).
 * فجاء الفرج من عند الله فابتلى فرعون وقومه بأشد
 أنواع البلاء لعلهم يتذكرون أو يفيقون . . قال تعالى:
 ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ
 (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا
 بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
 (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
 مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (١).

* لقد قدر الله (جل وعلا) أن يشدد على آل فرعون
 البلاء لأنهم يستحقون ذلك . . ولكي يصرفهم الله عن
 تدبير المكائد لموسى (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين
 الذين عذبهم فرعون وأذاهم أشد الإيذاء.
 فسلط الله على فرعون وأتباعه من الفراعنة، أعوام
 الجذب والقحط . . فلقد أجذبت مياه النيل وأجذبت
 الأرض من حوله ونقصت الثمار وجاع الناس.

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٠ - ١٣٣).

لكن العجيب في هذا الأمر أن آل فرعون كانوا إذا جاءهم الخصب والثمار الكثيرة قالوا: هذا من حسن حظنا فنحن نستحق ذلك وهذا الذي يليق بنا.

وإذا اشتد القحط والجذب قالوا: هذا من شؤم موسى ومن معه.

* فشدد الله عليهم البلاء وسلط عليهم أنواعاً جديدة من البلاء لا تخطر على بالهم أبداً لعلهم يرجعون إلى الله ويطلقون بنى إسرائيل ويرسلونهم مع موسى (عليه السلام).

* **قال الله تعالى:** ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ^(١).
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ^(٢) كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار.

﴿وَالْجَرَادَ﴾ ^(٣) وأما الجراد فمعروف مشهور وهكذا فإن الجراد جند الله أرسله الله على فرعون وقومه، حتى إنه كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، وأكل الشجر والثمر والزروع.

(١)، (٢)، (٣) سورة الاعراف: الآية: (١٣٣).

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وقد أرسل الله عليهم القمل .
 وأما القُمَّل فهو السوس .
 فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم
 يمكنهم معه الغمض ولا العيش .
 ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ ثم أرسل الله عليهم الضفادع فملأت
 البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً
 إلا وجدوا فيه الضفادع قد غلبت عليه حتى إن الرجل إذا
 همَّ أن يتكلم وثب الضفدع في فيه - في فمه - .
 ﴿وَالدَّمَ﴾^(١) ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل
 فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من
 إناء إلا عاد دماً .
 ﴿آيَاتُ مُفْصَّلَاتٍ﴾ أى : كل هذه الآيات الظاهرات
 أرسلها الله عليهم ، ليؤمنوا فما آمنوا . . هذا كله ولم ينل
 بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية .

(١) فتلك هي التسع آيات التي ذكرها الله (جل وعلا) في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء: ١٠١) هي: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وهذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل، فلما بلغهم ذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١).

* وهنا طلب آل فرعون من نبي الله موسى أن يدعو لهم ربه (جل وعلا) من أجل أن ينقذهم من هذا البلاء.. وكانوا يعطوه العهود والمواثيق في كل مرة أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا رفع عنهم هذا البلاء.

* فأخذ موسى (عليه السلام) يدعو الله بأن يكشف ويرفع عنهم البلاء والعذاب.. وما إن ينكشف البلاء حتى ينقضوا العهود والمواثيق ويرجعوا إلى ما كانوا عليه. **قال تعالى:** ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٢).

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٣٥).

والجهل، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله، مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً.

وكلما شاهدوا آية وعاینوها، وتعبوا بسببها، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم من الحق ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى . . فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل﴾^(١) فيكشف عنهم ذلك العذاب الويل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا، . . . والله العظيم الحليم القدير، لا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، . . . ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالا وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين^(٢).

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٤).

(٢) قصص الأنبياء (ص ٣٨٦ : ٣٨٨) بتصرف.

*** قال تعالى:** ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ
مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى
عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا
كَانُوا يَعْرِشُونَ (١)﴾

لَمْ يُؤْمِنْ مَعَهُ إِلَّا الْقَلِيلُ

لما تمالى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة
ملكهم فرعون، ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن
عمران عليه السلام، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة
القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول،
وهم مع ذلك لا يرجعون ولا يتوبون، ولا يتزعجون ولا يرجعون.
ولم يؤمن منهم إلا القليل . . قيل: ثلاثة: وهم امرأة
فرعون ومؤمن آل فرعون الذى تقدمت حكاية موعظته
ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذى جاء
يسعى من أقصا المدينة، فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

(١) سورة الاعراف: الآيتان: (١٣٦ ، ١٣٧).

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١﴾ .

وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون،
والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل، ويدل على
هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢) .

فالضمير في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ (٣) عائد على
فرعون لأن السياق يدل عليه، وإيمانهم كان خفية
لمخافتهم من فرعون وسطوته، وجبروته وسلطته.

وعند ذلك قال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٤) فَأَمَرَهُمْ
بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِ، فَأَمَرُوا
بِذَلِكَ فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ فَرْجًا وَمَخْرَجًا (٥) بكَثْرَةِ

(١) سورة القصص: الآية: (٢٠).

(٢)، (٣) سورة يونس: الآية: (٨٣).

(٤) سورة يونس: الآية: (٨٤ - ٨٦).

(٥) قصص الأنبياء (ص: ٣٩٠ ، ٣٩١).

الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (١) وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى. وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حيث يشذّ يقدرّون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمرّوا أن يصلّوا في بيوتهم، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان، الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه.

دعاء من القلب

ولما تيقن موسى (عليه السلام) من أن فرعون وأتباعه لن يقبلوا الحق الذي جاء به وأنهم جحدوا بآيات الله ظُلماً وعُلوّاً وتكبراً وإذا به يدعو عليهم بهذا الدعاء. ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أى: من أثاث الدنيا

(١) سورة البقرة: الآية: (٤٥).

(٢) سورة يونس: الآيات: (٨٨ ، ٨٩).

ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أى: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أى: ليفتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك؛ ليظن من أغريته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾^(١) أى: أهلكها. ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٢) أى: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٣) وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا﴾^{(٤)(٥)}.

* وهكذا توجه نبي الله موسى (عليه السلام) إلى الله بهذا الدعاء.. فما كان منه (سبحانه وتعالى) إلا أنه استجاب دعاءه، وقال له: ﴿قَدْ أَجَبْتُ دُعَوْتُكَمَا﴾^(٦) ثم أمره الحق (جل

(١)، (٢)، (٣) سورة يونس: الآية: (٨٨).

(٤) سورة نوح: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢١).

(٦) سورة يونس: الآية: (٨٩).

وعلا) بأن يستقيم هو وأخوه هارون (عليهما السلام) فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وجاء الأمر بالخروج ليلاً

إلى أرض فلسطين

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة، ليصل إلى قرب النهاية. حين وصلت التجربة إلى نهايتها، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته؛ ولن يسأله أو يعتزلوه. وبدا له إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أمل في تخليهم عنه. عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ (٢).

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالخصيلة التي جتها يده؟ وإلا أن ينفذ أمره بين يديه، ويدع له التصرف بما يريد؟ وتلقى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما وصف به القوم.. حقاً إنهم مجرمون..

(١) سورة يونس: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الدخان: الآية: (٢٢).

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ (٢٢) وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِنْهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾ .

* جاء الأمر الإلهي إلى موسى (عليه السلام) ومن معه بالخروج ليلاً من أرض مصر إلى أرض فلسطين . . وكانت هذه الخطوة هي بداية النهاية حيث كان بعدها هلاك فرعون وأتباعه فتعالوا بنا، لنرى كيف كانت نهاية هذا الطاغية الذي ادّعى الألوهية .

* أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج من مصر مع بنى إسرائيل ، وأن يكون رحيلهم ليلاً ، بعد تدبير وتنظيم لأمر الرحيل ، ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده ، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات) .

وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد سحب قومه وخرج ، فأرسل أوامره في مدن المملكة لحشد جيش عظيم ، ليدرك موسى وقومه ، ويفسد عليهم تدبيرهم : ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

(١) سورة الدخان: الآيتان: (٢٣ ، ٢٤) . (٢) سورة القصص: الآيتان: (٢٠ ، ٢١) .

(٣) الظلال (٥ / ٣٢١٣) . (٤) سورة القصص: الآية: (٢٠) .

(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿١﴾

إن فرعون هنا يعلن التعبئة العامة، وهذا من شأنه أن يشكل صورة في الأذهان، أن موسى وقومه يشكلون خطراً فعلياً على فرعون وملكه، فكيف يكون إلهاً من يخشى فئة صغيرة يعبدون إلهاً آخر؟! لذلك كان لا بد من تهوين الأمر وذلك بتقليل شأن قوم موسى وحجمهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٢) لكننا نظاردهم لأنهم أغاظونا، وعلى أى حال، فنحن حذرون مستعدون بمسكون بزمام الأمور.

فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين

وهكذا خرج موسى عليه السلام وأتباعه امتثالاً لأمر الله (عز وجل) .. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حُلِيًّا كثيراً. هذا الحلي هو ما كان فرعون قد وصى وضلوا الطريق فتعجب نبي الله موسى، وقال لمن معه: ما هذا؟ فأخبروه أن يوسف (عليه السلام) كان قد أوصى

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٥٣ - ٥٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٥٤).

بنقل جثمانه بعد موته من أرض مصر إلى الأرض المقدسة فسأل موسى (عليه السلام) فهل هناك من يعرف أين جسده؟ فقالوا: نعم امرأة عجوز تعيش هنا .. فدلتهم المرأة على قبره، فأخذوا جسده معهم إلى الأرض المقدسة. * جيش فرعون الجيوش، وجمع الجموع، وخرج مسرعاً بجيشه يطارد موسى وقومه .. لقد خرجوا يتبعون خطأ موسى وقومه ويقفون أثرهم، فكان خروجهم هذا هو الأخير، وكان إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير عقب خروجهم من أجل قتل المؤمنين، تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغى.

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ (١).

وقطع موسى الطريق حتى وقف أمام البحر، وبدأ جيش فرعون يقترب، وظهرت أعلامه، وامتلا قوم موسى بالرعب، كان الموقف حرجاً وخطيراً، إن البحر أمامهم والعدو وراءهم

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٥٧ - ٥٩).

وليس معهم سفن أو أدوات لعبور البحر، كما أنه ليست أمامهم فرصة واحدة للقتال، إنهم مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين، سيذبحهم فرعون عن آخرهم.

صرخت بعض الأصوات من قوم موسى: سيدركنا فرعون ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (١١) (٢).

موسى (عليه السلام) ..

وثقته بربه (جل وعلا)

لقد بلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!

ولكن موسى الذى تلقى الوحي من ربه، لا يشك لحظة، وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة وإن كان لا يدرى كيف تكون. فهي لا بد كائنة والله هو الذى يوجهه ويرعاه.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٣).

كلا .. فى شدة وتوكيد .. كلا لن نكون مدركين ..

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦١).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٠٥ ، ٢٠٦).

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٦٢).

كلا لن نكون هالكين .. كلا لن نكون مفتونين .. كلا لن نكون ضائعين ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾^(١).

بهذا الجزم والتأكيد واليقين^(٢).

لم يكن موسى يدرى كيف ستكون النجاة، لكن قلبه كان ممتلئاً بالثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، فإله هو الذى يوجهه ويرعاه، وفى اللحظة الأخيرة، يجيء الوحي من الله ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾^(٣) فضربه، فوقعت المعجزة ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾^(٤) وتحقق المستحيل فى منطق الناس، لكن الله سبحانه وتعالى إن أراد شيئاً قال له: كُنْ فيكون.

ظهر طريق يابس وسط البحر، الأمواج كالسورين على جنبتي الطريق، وهرع موسى وقومه يسرون فى هذا الطريق الممهد داخل البحر والأمواج من حولهم، سبحان الملك!! ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾^(٥).

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦٢).

(٢) الظلال (٥/٢٥٩٨).

(٣)، (٤) سورة الشعراء: الآية: (٦٣).

(٥) سورة الشعراء: الآية: (٦٣).

غرق فرعون .. فهل من معتبر؟

ووصل فرعون إلى البحر، شاهد هذه المعجزة، شاهد في البحر طريقًا يابسًا يشقه نصفين، وموسى وقومه يسرون في هذا الطريق اليبس في وسط البحر في أمان تام، ووقف فرعون يتأمل موسى وقومه والأمواج من حولهم والأرض يابسة تحت أقدامهم، ولم يفكر لحظة، أسرع خلفهم يطاردهم، وطمع فرعون في إدراكهم، فأمر جيشه بالتقدم، وحين انتهى موسى من عبور البحر، وأوحى الله إلى موسى أن يترك البحر على حاله ﴿وَأَتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾^(١)، وكان الله سبحانه وتعالى قد قدر إغراق فرعون وإنهاء أمره، فما أن صار فرعون وجنوده في منتصف البحر، حتى أمر الله سبحانه وتعالى البحر، فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه، وغرق فرعون وجيشه، غرق العناد ونجا الإيمان بالله.

ولما عاين فرعون الغرق، ولم يعد يملك النجاة قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)

(١) سورة الدخان: الآية: (٢٤).

(٢) سورة يونس: (٩٠).

سقطت عنه كل الأقنعة الزائفة، فلم يكتف بأن يعلن إيمانه، بل والاستسلام أيضاً ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) لكن بلا فائدة، فليس الآن وقت اختيار، بعد أن سبق العصيان والاستكبار.

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢) !؟

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلك، انتهى الأمر ولا نجاة لك، سينجو جسدك وحده، لن تأكله الأسماك، ولن يحمله التيار بعيداً عن الناس، بل سينجو جسدك، لتكون آية لمن خلفك، وكان جبريل عليه السلام يضع في فم فرعون الطين وهو يحاول النجاة من الغرق حتى لا ينجو، . . . فعن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»^(٣).

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٤).

(١) سورة يونس: (٩٠).

(٢) سورة يونس: (٩١).

(٣) صحيح: رواه الترمذی (٣١٠٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٠٦).

(٤) سورة يونس: (٩٢).

أسدل الستار على طغيان فرعون، ولفظت الأمواج جيشه إلى الشاطئ، بعد ذلك، نزل الستار تمامًا على الفراعنة، لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام فرعون وغرقه مع جيشه، لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يُشيدون، لا نعلم عنهم شيئًا أبدًا، وكأنهم سقطوا تمامًا من التاريخ والأحداث: ويتحدث فقط عن المؤمنين الذين صاحبوا موسى خطوة بخطوة^(١).

فاليوم ننجيك ببدنك

لتكون لمن خلفك آية

قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٢). ويا لها من آية والله.



(١) ابن الإسلام (ص: ٢٠٦ ، ٢٠٧).

(٢) سورة يونس: (٩٢).

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه . . ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى: مصاحباً درعك المعروفة بك، ﴿لِتَكُونَ﴾ أى: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ أى: من بنى إسرائيل ومن بعدهم، ودليلاً على قدرة الله الذى أهلكك^(١).

قلت: وفرعون الذى نذكر قصته مازالت جثته موجودة فى المتحف المصرى بالتحرير ولقد رأيت صورة له عندما تسرب لجسده بعض العطب والعفونة فخافوا عليه من العطب فنزعوا الأغطية من على وجهه وصوروه صورة فوتوغرافية ونشروها فى إحدى المجلات ثم أرسلوا جثته لمعالجتها فى فرنسا فلما نظرت إلى صورته التى فى المجلة قلت: والله لو نظر إليه أى إنسان لظن أنه لم يمّت إلا من ساعة واحدة فقط فما زال الشعر فى رأسه وحواجه كما هو لم يسقط.

(١) تفسير عبد الرزاق (١١٦٨)، تفسير الطبرى (١١ / ١١٣ ، ١١٤).

وهكذا ظل جسده باقياً إلى تلك الساعة، بقدرة الخالق جل وعلا.

ليكون ذلك آية للناس في كل زمان... فهو القائل سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(١).

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء.

* **عن ابن عباس قال:** قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»^(٢).

آسيا امرأة فرعون

كانت امرأة فرعون تعيش في نعيم لا يخطر على قلب بشر في قصر فرعون الطاغية.. وكانت تبغض استكباره وتجبره وقسوة قلبه.

(١) سورة يونس: الآية: (٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).

* وفي يوم من الأيام لما وجدوا موسى (عليه السلام) وهو طفل رضيع وذهبوا به إلى امرأة فرعون أحبته حباً شديداً .

يقول الله تعالى في شأنها: ﴿ وَقَالَتْ امْرِأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ (١).

* فلما أراد فرعون أن يقتله دافعت عنه وقالت له: أريده لنفسى . . . وكانت لا تنجب فوهبه لها فرعون .

* وتأمل معي قولها عن موسى (عليه السلام) .

﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ . . . وقد أنالها الله ما رجحت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها بسببه جنته (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه (٤).

(١) سورة القصص: الآية: (٩).

(٢) البداية والنهاية / للحافظ ابن كثير (١/٢٢٤).

(٣) سورة التحريم: الآية: (١١).

(٤) فتح الباري (٦/٥١٦).

كانت امرأة فرعون تُعَذِّبُ في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. **قال ابن جرير:** كانت امرأة فرعون تسأل: مَنْ غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها (١).

* ولذا أثنى عليه النبي ﷺ كثيراً.

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بَارِعُ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد^(١).
 * ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على
 عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة؛ فقد كانت امرأة
 فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، في قصر فرعون أمتع
 مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا
 بالإيمان، ولم تُعرض عن هذا النعيم فحسب، بل اعتبرته
 شراً وذنساً وبلاءً، تستعيز بالله منه، وتطلب النجاة منه،
 وهي امرأة واحدة، في مملكة عريضة قوية.

ماشطة ابنة فرعون

قال رسول الله ﷺ: «لما كانت الليلة التي أُسرى بي
 فيها أتت عليّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هذا الرائحة
 الطيبة؟» فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.
 قال: قلت: «وما شأنها؟» قال: بينما هي تمشط ابنة
 فرعون ذات يوم إذ سقط المدرى - المشط - من يدها
 فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبى؟ قالت: لا
 (١) صحيح: رواه أحمد (١١٩٨٣) والترمذي (٣٨٧٨)، وصححه الألباني في
 صحيح الجامع (٣١٤٣).

ولكن ربى ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة! وإن لك رباً غيرى؟ قالت: نعم ربى وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لى إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامى وعظام ولدى فى ثوب واحد وتدفننا.

قال: ذلك لك علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها يرضع، وكأنها تقاعست من أجله. قال: يا أمه! اقتحمى، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت.

وهكذا يكون حال أهل التوحيد والإيمان يشهد عليهم البلاء فى الدنيا ليسعدوا بالراحة الأبدية فى جنة الرحمن (جل وعلا).

وهكذا يكون ثبات أهل التوحيد والإيمان .. فهم أكثر الناس ثباتاً أمام المحن والفتن والابتلاءات وهم أكثر الناس رضاً بقضاء الله لأنهم ينظرون إلى الدنيا كلها بنظرة

أهل الإيمان الذين يعلمون يقيناً أن الدنيا بكل ما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. ويعلمون أن الله سيجبر كسر المؤمن مع أول غمسة فى الجنة عندما يحط المؤمن رحله فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* الدروس المستفادة من هذه القصة:

- (١) أن المسلم إذا وعد فلا بد أن يفي بوعدته .. ولقد رأينا كيف أن موسى (عليه السلام) طلب منه الرجل الصالح أن يتزوج ابنته مقابل أن يرعى غنمه لمدة لا تقل عن ثمان سنوات ولا تزيد عن عشر سنوات فاختار موسى أكمل الأجلين ومكث عنده عشر سنوات.
- (٢) أن المسلم لا ينسى أمه وأبيه وأسرته الغالية .. ولقد رأينا كيف أخبر موسى زوجته بشوقه للقاء أمه وأخته بعد هذا الغياب الطويل.
- (٣) أن الله يخلق ما يشاء ويختار .. وأنه يصطفى من عباده من يشاء ولقد اختار الله (جل وعلا) نبيه موسى (عليه السلام) ليكلمه وليكون منذ هذه اللحظة كلهم الله.

- (٤) أن المسلم لا بد أن يختار الرفيق قبل الطريق ..
ولذا لما أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون سأل الله أن
يُعينه بأخيه هارون فاصطفى الله هارون ليكون نبياً فكانت
أعظم هدية يقدمها موسى لأخيه هارون (عليهما السلام).
(٥) أنه ما كان الرفق في شيء إلا زانه .. فالداعية
لا بد أن يكون رفيقاً ورحيماً في دعوته .. ولقد رأينا
كيف أن الله (عز وجل) لما أرسل موسى وهارون (عليهما
السلام) إلى فرعون الطاغية .. قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا
لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١).
(٦) أن المهمات الضخمة لا يقوم بها إلا أهل الإيمان
والتقوى وأصحاب الهمة العالية الذين استعانوا بالله (جل
وعلا) وتأهلوا لتحمل المشاق ..
(٧) أن من كان الله معه فلا ينبغي أن يخشى أحداً من
البشر ولذا لما خاف موسى وهارون من بطش فرعون قال
لهما تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٢).

(١) سورة طه: الآية: (٤٤).

(٢) سورة طه: الآية: (٤٦).

(٨) أن الأنبياء والعلماء هم أشجع الناس قلوبًا وذلك لأنهم يعلمون حقيقة الدنيا وضعف ومهانة أهل الباطل فلا يخافون من تهديدهم ولا من تخويفهم.

(٩) أن الداعية الصادق لا يغضب لنفسه أبدًا . . فلقد رأينا كيف كان موسى (عليه السلام) يعرض قضية التوحيد على فرعون . . وفرعون يستهزئ به ويريد أن يصرفه عن هذه القضية لكن موسى (عليه السلام) لم يلتفت لاستهزاء فرعون بل استمر في عرض قضية التوحيد بكل ثقة ويقين .

(١٠) أن اللجوء إلى البطش والعنف سلاح من لا سلاح له . . فلقد رأينا كيف أن فرعون لما عجز عن مواجهة موسى (عليه السلام) قال له : ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (١).

(١١) أن من استشعر حلاوة الإيمان هانت عليه التضحيات واستعذب العذاب في سبيل الله . . ولقد رأينا سحرة فرعون كيف كانوا في غاية الحرص على المال والقرب من فرعون . . فلما آمنوا وذاقوا حلاوة الإيمان

(١) سورة الشعراء : الآية : (٢٩).

آثروا أن يُقتلوا عن أن يعودوا إلى الكفر مرة أخرى .

(١٢) أن المؤمن لا بد أن يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم . . وقد رأينا مؤمن آل فرعون كيف بذل النصيحة خالصة لوجه الله ولم يخش من بطش فرعون وجبروته .

(١٣) أنه لا بد للظالم من نهاية تجعله عبرة لمن يعتبر . . ولقد رأينا كيف كان هلاك فرعون عبرة إلى يوم القيامة لكل من بغى وتكبر وادّعى أنه إله من دون الله .

(١٤) أن الحياة الحقيقية وأن النعيم الحقيقي لن يكون في الدنيا وإنما يكون في الجنة . . ولذا رفضت امرأة فرعون أن تعيش في قصر فرعون الذي كفر بالله (جل وعلا) وسألت الله أن يبني لها قصراً في الجنة فجعلها الحق (جل وعلا) ترى قصرها في الجنة قبل أن تموت .

- ورأينا كيف ضحت ماشطة ابنة فرعون بنفسها وأولادها ليكونوا صحبة يوم القيامة في جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .



معاناة موسى (عليه السلام)

مع بنى إسرائيل

وعلى الرغم من أن فرعون قد مات إلا أن جرائمه تركت آثارها في نفوس بنى إسرائيل كما تركت آثارها من قبل في نفوس الأقباط المصريين .. فأما بالنسبة للأقباط المصريين فلقد استخف فرعون بعقولهم ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (١) .. لقد استخف بحريتهم وعقولهم وأدميتهم فأطاعوه .. لماذا؟ قال الله تعالى عن سبب ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٢) . فالفسق يجعل الإنسان لا يعلم مصلحته الدينية والدينية وقد يوقع صاحبه في المهالك .. وهذا الذى حدث لقوم فرعون . ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ﴾ (٣) .

* وأما بالنسبة لبنى إسرائيل فلقد تعودوا على الذل لغير الله فأفسد فرعون فطرتهم فكانوا بعد ذلك سبيًا فى

(١)، (٢) سورة الزخرف: الآية: (٥٤) .

(٣) سورة الزخرف: الآيتان: (٥٥، ٥٦) .

معاناة نبي الله موسى (عليه السلام).
وسنرى فيما يلي كيف كانت معاناة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل.

اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة

لقد عانى نبي الله موسى (عليه السلام) أشد المعاناة في دعوته لبني إسرائيل فلقد علمنا كيف أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في ذل وهوان من فرعون وقومه فأكرمهم الله بهلاك فرعون أمام أعينهم وأخرجهم إلى الأرض الطاهرة ليعيشوا وينعموا بالعزة والحرية والكرامة مع نبي الله موسى (عليه السلام).

* وكانوا منذ لحظات قد شاهدوا بأنفسهم كيف أن الله (عز وجل) قد أنجاهم من البحر وأغرق فرعون وقومه أمام أعينهم .. وما إن أنجاهم الله وشق لهم البحر حتى مروا على قوم يعبدون الأصنام .. وبدلاً من أن يأمرهم بالمعروف وينهوا عن المنكر، وإذا بهم يقولون لموسى (عليه السلام): اجعل لنا إلهًا مثل هذا.

قال تعالى مصوراً هذا المشهد: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾.

* لقد اشتاقوا وعادوهم الحنين لأيام الشرك التي عاشوها في ظل فرعون فما كان من نبي الله موسى (عليه السلام) إلا أن أنكر عليهم ذلك قائلاً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

لا بد من الإعداد الصحيح

لقد كانت مهمة سيدنا موسى (عليه السلام) تتم على مراحل متعددة.

فأول مرحلة هي تخليص بني إسرائيل من بطش فرعون

(١) سورة الاعراف: الآيات: (١٣٨ ، ١٣٩).

(٢) سورة الاعراف: الآيات: (١٣٩ - ١٤١).

وقد تمت بفضل الله (عز وجل) وسار بهم موسى (عليه السلام) إلى الأرض المقدسة لكنهم لم يكونوا على استعداد للمهمة الكبرى ألا وهي مهمة إقامة هذا الدين العظيم في الأرض. والدليل على أنهم لم يكونوا على استعداد لهذه المهمة.. أنهم فشلوا في أول اختبار.. فما إن رأوا قوماً يعبدون صنماً حتى سألوا موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنماً يعبدونه مثله.. لقد اهتزت عقيدتهم من أول لحظة فكان لا بد من فترة للإعداد والتربية. ومن أجل ذلك كانت مواعدة الله لنبيه موسى (عليه السلام) ليلقاه فقد كانت هذه المواعدة إعداداً نفسياً لموسى لتهيأ للمهمة الكبرى.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

* لقد كانت فترة الإعداد هذه ثلاثين ليلة وأضيف إليها عشر ليالٍ فأصبحت أربعين ليلة ينعزل فيها نبي الله موسى

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٤٢).

(عليه السلام) عن شواغل الدنيا فتصفوا روحه وتتقوى عزيمته ويروض فيها نفسه على هذا اللقاء الموعود.

* لقد ذكر الله تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة فصامها موسى (عليه السلام) فلما تم الميقات استاك بقشرة شجرة فأمره الله تعالى أن يكملها أربعين.

* وذهب موسى (عليه السلام) واستخلف في قومه أخاه هارون (عليه السلام)، وجعله أميراً عليهم . . وكان هارون نبياً أرسله الله مع موسى.

* لقد كان موسى (عليه السلام) بصيامه أربعين ليلة يقترب من ربه أكثر وأكثر وكان يزداد حباً لله (جل وعلا) بتكليمه إياه . . . وقد كان موسى (عليه السلام) يشعر بفضل ربه وكرمه ووجه إياه مما دفعه إلى أن يسأل الله الرؤية.

موسى (عليه السلام)

يطلب رؤية ربه (جل وعلا)

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (١).

(١) سورة الاعراف: الآية: (١٤٣).

هكذا يطلب موسى (عليه السلام) من ربه (جل وعلا) أن يراه . . . يطلب ذلك بكل بساطة وتلقائية وعفوية من شدة حبه لله (جل وعلا).

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾^(١) أى: فى الوقت الذى أمر بالمجيء فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٢) أى: كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعته الخطاب، فناداه وناجاه، وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع. ولما أعطى هذه المنزلة العالية والمرتبة السنية، وسمع الخطاب، سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾^(٣) ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى؛ لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمن . ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾^{(٤)(٥)}.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾^(٦) اندك الجبل وتفتت وصار تراباً.

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة الاعراف: الآية: (١٤٣).

(٥) قصص الأنبياء (ص: ٤١٧).

(٦) سورة الاعراف: الآية: (١٤٣).

﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾^(١) أى: مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾^(٢) تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات... ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾^(٣) أى: تببت إليك من سؤالك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، أى: أول المؤمنين من بنى إسرائيل^(٥).

الله يصطفى موسى (عليه السلام)

ثم خاطب الله (عز وجل) نبيه وكليمه موسى (عليه السلام) قائلاً له: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾^(٦) أى: اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾^(٧) أى: خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٨) واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم... والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٧).

(٦)، (٧)، (٨) سورة الأعراف: الآية: (١٤٤).

أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين
فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ﴾^(١) أى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين
إليه فى دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبينة للحلال
والحرام كل ذلك فى ألواح التوراة ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ
شَيْءٍ﴾^(٢) أى: ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل
التكاليف الشرعية ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾^(٣) أى: خذ التوراة بجد
واجتهاد شأن أولى العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾^(٤)
أى: وأمر بنى إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ
بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص،
والصبر أفضل من الانتصار^(٥).

* لقد انتهى ميقات موسى (عليه السلام) مع ربه (جل
وعلا) . . ولم يكن على وجه الأرض إنسان أسعد من
نبي الله موسى فلقد كلمه ربه (جل وعلا) واصطفاه
وأكرمه غاية الإكرام.

(١)، (٢) سورة الأعراف: الآية: (١٤٥).

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٥).

(٥) صفوة التفاسير (١/ ٤٧٠).

قصة موسى (عليه السلام) والسامري

لما انتهى موسى (عليه السلام) من ميقات ربه وانحدر من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة التي كتبها الله له وكان في قمة سعادته بتكليم ربه وتكريمه له وإذا به يعلم من ربه (جل وعلا) نبأ يسؤوه فعاد إلى قومه غضبان أسفاً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَغْجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا (١).

* لقد تذكر موسى (عليه السلام) المعاناة التي عاشها مع بني إسرائيل وكيف أنه تعب في تعليمهم وتربيتهم وتثبيتهم . . وكان يظن أنهم يسIRON على أثره .

* وكانت فتنة السامري قد وقعت بمجرد خروج موسى إلى ميقات ربه وتفصيل هذه الفتنة أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر أخذوا معهم الكثير من حُلَى الفراعنة وذهبهم .

فقد كانت نساء بني إسرائيل قد استعرن هذا الذهب

(١) سورة طه: الآيات: (٨٣ - ٨٦).

للتزين به فلما أرادوا الخروج حملوه معهم فلما كتب الله لهم النجاة من بطش زمرعون وتعذيبه سألوا علماءهم عن حكم هذا الذهب الذى أخذوه من الفراعنة بغير حق فأمرهم العلماء بالتخلص من الذهب . . فاستجابت النساء وألقوا بهذا الذهب والحلى وقذفوا بها لأنها حرام . . فأخذها السامرى وكان أحد علمائهم وصنع منها تمثالا على شكل عجل وكان السامرى عنده مهارة عجيبة فى النحت فصنع عجلاً مجوفاً من الداخل وأخذه ووضعته فى اتجاه الريح فإذا دخل الهواء من الفتحة الخلفية وخرج من الأنف أحدث صوتاً يشبه صوت خوار العجول الحقيقية .

ويقال: إن السر فى هذا الخوار أن السامرى كان قد رأى جبريل (عليه السلام) عندما نزل إلى الأرض وكان راكباً فرساً - وذلك فى معجزة شق البحر - فأخذ قبضة من التراب الذى سار عليه الفرس وخلطها بالذهب الذى صنع منه العجل الذهبى فلما صنعه خار العجل كالعجول الحقيقية .
وخرج السامرى على بنى إسرائيل ليريههم هذا العجل الذهبى .
فسألوه: ما هذا الذى صنعه يا سامرى؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى .

قالوا: كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه .

قال السامري: لقد نسي موسى . . . ، ذهب للقاء ربه

هناك ، بينما ربه هنا .

وهبت موجة من الرياح فدخلت من دُبر العجل الذهبي
وخرجت من فمه فخار العجل ، وصاح بنو إسرائيل
مهللين كالأطفال ، وعبد بنو إسرائيل هذا العجل .

* وفي يوم من الأيام خرج هارون (عليه السلام) على
بنى إسرائيل فوجدهم يعبدون العجل الذهبي فغضب غضباً
شديداً ، وأخذ ينهأهم عن هذا المنكر الأكبر ويحذرهم
ويهددهم ويذكرهم بالله (جل وعلا) ولكن القوم انقسموا



إلى فريقين: فمنهم القلة المؤمنة
الصابرة الذين ثبتوا على الحق
وعلموا أنه ليس هناك من يستحق
العبادة إلا الله (جل وعلا) . .
ولكن أكثر الناس عبدت العجل
الذهبي من دون الله (جل وعلا) .

* وظل هارون (عليه السلام) ينصح لهم ويقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (١).
هذا ليس ربكم ولا رب موسى . . فربكم هو الرحمن الرحيم .

ولكن القوم لم يستجيبوا لهارون (عليه السلام) . . فأخذ هارون يذكرهم بما أكرمهم الله به من إنقاذهم من بطش فرعون وإنقاذهم من البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لكنهم رفضوا كل ذلك وقالوا كلمتهم الأخيرة .
﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٢).

* كان من الواضح أن هارون (عليه السلام) كان سهلاً لنا ولذلك كان القوم لا يخافون منه . . وكان من الممكن أن يقوم هارون بتعطيم العجل الذهبي لكنه خشى أن تثار فتنة كبيرة بين القوم فأثر هارون أن ينتظر حتى يرجع موسى (عليه السلام) فهو قادر بقوته وشخصيته القوية أن يقف أمام هؤلاء القوم ويمنعهم من هذا الشرك الذي وقعوا فيه دون أن يكون هناك فتنة أو أى إراقة للدماء .

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٩١).

* وقف القوم يرقصون حول العجل الذهبي .. وإذا بموسى (عليه السلام) يرجع وهو في قمة الغضب والحزن فسمع صياح القوم وهم يرقصون حول العجل وما إن رأوه حتى توقفوا جميعاً ودبَّ الرعب في قلوبهم وساد صمت عجيب فصرخ فيهم موسى قائلاً: ﴿بَشِّرْهُمْ بِبُشْرَةٍ يَسْتَمِعُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ (١) .
بش ما صنعتُم في غيابي .. بثت الخيانة أن تغيروا دينكم بهذه السهولة .

* وفي تلك اللحظة من الغضب العارم الذي انتاب موسى (عليه السلام) وإذا به يُلقى الألواح غضباً على قومه الذين أشركوا بالله (جل وعلا) .
ثم اتجه موسى نحو هارون وهو في قمة الغضب لله (سبحانه وتعالى) وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وجذبه بشدة قائلاً له: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٢) أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٢) .
كأنه يريد أن يقول: حتى أنت يا هارون!!... كيف عصيت

(١) سورة الاعراف: الآية: (١٥٠) .

(٢) سورة طه: الآيتان: (٩٢ ، ٩٣) .

أمري؟ .. كيف تسكت على هذه الفتنة الكبيرة؟ .. كيف تركتهم يعبدون العجل ولم تنكر عليهم أو تخرج وتتركهم؟ * وإذا بهارون يتحدث إلى أخيه موسى ويرجو منه أن يترك رأسه ولحيته وهو يذكره بأنهما أبناء أم واحدة ليكون ذلك أدعى لاستحضار كل مشاعر الرحمة والحنان. ﴿قَالَ يَا بُنُومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(١). وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً وأملك لانفعاله من موسى، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة. ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره؛ وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً. فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى^(٢).

(١) سورة طه: الآية: (٩٤).

(٢) الظلال (٤ / ٢٣٤٨).

* وهنا استطاع هارون أن يوضح موقفه لموسى (عليهما

السلام).

وأخبره بأن القوم استضعفوه وكادوا أن يقتلوه عندما أنكر عليهم ذلك وطلب من أخيه موسى أن يترك لحيته ورأسه حتى لا يُشمت به الأعداء ويستخف به القوم. ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وهنا أدرك موسى أنه قد تعجل في حكمه على أخيه هارون وأنه نسي في غضبه أن هارون نبي كريم لا يمكن أن يرضى بوقوع القوم في الشرك وأنه قد أنكر عليهم لكنه لم يستطع وحده أن يوقف هذا الطوفان من الشرك. فترك موسى رأس أخيه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢).

* ثم نظر موسى إلى القوم الذين عبدوا العجل الذهبي وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفْتَالُ عَلَىٰكُمْ الْغِيءُ﴾

(١) سورة الاعراف: الآية: (١٥٠).

(٢) سورة الاعراف: الآية: (١٥١).

أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿١﴾ .

كأنه يريد أن يقول لهم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .. لقد أنعم الله عليكم وأكرمكم ونصركم على أعدائكم وأنجاكم من بطش فرعون ووعدكم بالجنة والنعيم المقيم إن عبدتموه فلماذا فعلتم كل هذا؟

ثم أخبرهم بالعاقبة الوخيمة لهذه الفعلية الشنيعة فقال:
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (٢) .

* وهنا أحس القوم بتلك الجريمة التي وقعوا فيها وكيف أن موسى (عليه السلام) بذل معهم الكثير والكثير من أجل أن يكونوا مؤمنين صالحين ومن أجل أن يحملوا أمانة التوحيد في الأرض .. ثم يرى الثمرة المريرة منهم بأن يعبدوا العجل لمجرد غياب موسى عنهم أربعين يوماً .
لقد أحسوا بأنهم أخطأوا خطأ كبيراً وندموا على ما فعلوه .

(١) سورة طه: الآية: (٨٦) .

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٢) .

جزاء السامري

وهنا علم موسى (عليه السلام) أنه لا بد أن يقضى على الفتنة من جذورها ولذلك توجه إلى السامري الذي صنع لهم العجل الذهبي ليعبدوه وهو في قمة الغضب ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾^(١)؟ .. ما حملك على ما صنعت؟

قال السامري بكل عجب وغرور: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾^(٢) .. وهذه هي لغة أهل الكبر .. بصرت ولم يبصروا .. وفهمت ولم يفهموا .. وعرفت ولم يعرفوا!! * ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾^(٣) .. زعم أنه رأى جبريل (عليه السلام) وهو راكب فرساً فلا تضع قدمها على شيء إلا دبَّت فيه الحياة .. وأنه قبض حفنة من التراب الذي سار عليه جبريل وألقاها على الذهب ﴿فَبَدَّتْهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾^(٤).

* هكذا يعترف السامري أن نفسه الأماراة بالسوء هي التي سولت له أن يصنع هذا العجل الذهبي حتى يوقع الناس في الشرك بالله (جل وعلا).

(١) سورة طه : الآية : (٩٥).

(٢)، (٣)، (٤) سورة طه : الآية : (٩٦).

* ولذلك لم يناقشه نبي الله موسى (عليه السلام) في هذا الكلام لأنه كلام لا يستحق الرد عليه وإنما أخبره بثمره هذا العمل الخبيث والجريمة المنكرة وأخبره بحكم الحق في هذه الجريمة: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١).

حكم موسى على السامري بالوحدة في الدنيا.

يقول بعض المفسرين: إن موسى دعا على السامري بأن لا يمس أحداً، معاقبة له على مسه ما لم يكن ينبغي له مسه. ونعتقد أن الأمر أخطر كثيراً... إن السامري أراد بفتنته ضلال بني إسرائيل وجمعهم حول عجله الوثني والسيادة عليهم، وقد جاءت عقوبته مساوية لجرمه، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة، هل مرض السامري مرضاً جلدياً بشعاً صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه؟ هل جاءه النبذ من خارج جسده؟ لا نعرف ماذا كان من أمر في الأسلوب الذي تمت به وحدة السامري ونبذ

(١) سورة طه: الآية: (٩٧).

المجتمع له، ... كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبة، كان أهون منها القتل، فقد عاش السامري منبوذاً محتقراً لا يلمس شيئاً ولا يمس أحداً ولا يقترب منه مخلوق، هذه هي عقوبته في الدنيا، ويوم القيامة له عقوبة ثانية أخطر وأرعب، إنه أراد أن يكون زعيماً مخترعاً مشهوراً يتبعه الناس ويطيعونه ويعظمونه، فعوقب بنقيض قصده: الوحدة والانفراد .. وألا يقترب منه أحد .. (١).

* ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ (٢) أى: معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ (٣) أى: أقمت على عبادته - يعنى: العجل - ﴿لُنَحْرِقَهُ﴾ (٤) قال ابن عباس: سحله بالمبرد وألقاه على النار ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعُ فِي يَوْمٍ نَسْفًا﴾ (٥) فى شاطئ النهر.

وفى هذا الحديث بيان للكيفية التى نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كى يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذى عبدوه، وتحول العجل إلى مسحوق دقيق كان يُذرى فى النهر الذى كانوا بجانبه، ومن عجيب صنع الله

(١) ابن الإسلام (ص: ٢١٨).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٩٧).

أن كل الذين عبدوا العجل اصفرت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب^(١).

وهكذا كانت توبتهم

لقد أثبت لهم موسى (عليه السلام) أن العجل الذى كانوا يعبدونه من دون الله (جل وعلا) لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه الأذى . . والدليل على ذلك أن موسى (عليه السلام) جعله رماداً ونسفه فى البحر أمام أعينهم فكيف يكون إلهاً!!
ثم قال لهم موسى (عليه السلام) بصوت مرتفع:
﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(٢).

* وبعد أن نسف موسى (عليه السلام) ذلك الصنم وأبلغ السامرى بعقوبته فى الدنيا والآخرة أخبر الذين عبدوا العجل أن أمامهم حلٌّ واحد للتوبة وهو أن يقتل المطيع من بنى إسرائيل كل من عصى وعبد العجل من دون الله .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٨).

بَاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ
عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١).

فيقال: إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في
أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضرباً حتى لا يعرف
القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه
فقتلوه وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة
سبعين ألفاً، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضُّ أَخَذَ
الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهُونَ﴾^{(٢)(٣)}.

رفع الجبل فوق بنى إسرائيل

لقد عاد نبي الله موسى (عليه السلام) إلى دعوته
وجهاده وبدأ يقرأ ألواح التوراة على بنى إسرائيل وأمرهم
أن يأخذوا بأحكام التوراة بكل قوة؛ ولكن القوم بدؤوا في
مساومته. وقالوا: انشر علينا الألواح فإن كانت أوامرها
سهلة قبلناها.. فيا ترى ما الذي حدث؟

(١) سورة البقرة: (٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٤).

(٣) قصص الأنبياء: (ص ٤٢٥ ، ٤٢٦) بتصرف.

قال تعالى مصوراً هذا المشهد المهيّب: ﴿وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم. فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها. فقال: بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أي: غمامة - على رؤوسهم، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك... وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشوق وجوهرهم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب (٢).

* وهكذا تعرف من طبيعة بنى إسرائيل أنهم قوم فى غاية العناد والاستكبار وأنهم لا يُسلمون وجوهرهم لله إلا بالشدة ودق الأعناق.

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧١).

(٢) قصص الأنبياء: (ص: ٤٣٥).

واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۝﴾ (١)

اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً.

وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم.

فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتي إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

الحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل.

فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (١)(٢).

❖ بعد كل هذه الآيات والمعجزات يقولون: لن نؤمن

لك حتى نرى الله جهرة!!

❖ هنا غضب الله عليهم فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه، ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ (٣) أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإننا برآء مما عملوا.

قال ابن عباس: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل. وقوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ (٤) أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك، يعنى أنت الذى قدرت هذا، وخلقته ما كان من أمر العجل اختباراً، تختبرهم به كما

(١) سورة البقرة: الآية: (٥٥).

(٢) صحيح القصص النبوي (ص: ٤٢٧).

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

﴿ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ (١) أَى اخْتَبَرْتُمْ .

ولهذا قال: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ (٢) أَى

من شئت أضللت به باختبارك إياه، ومن شئت هديته، لك الحكم والمشية لا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت (٣).

﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ﴾ (٤).

البشرى بنبوۀ محمد ﷺ

لما توجه نبى الله موسى (عليه السلام) إلى الله (عز وجل) بهذا الدعاء وبذلك الكلمات ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ﴾ (٥) يعنى تبنا إليك ورجعنا وندمنا على ما فعلنا .. رضى الله عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم .

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦).

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة الاعراف: الآية: (١٥٥).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٤٢٧).

(٤)، (٥) سورة الاعراف: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

(٦) سورة البقرة: الآية: (٥٦).

* ولأول مرة يستمع السبعون - الذين اختارهم موسى (عليه السلام) فأخذتهم الصاعقة ثم أحياهم الله - إلى تلك البشرى بنبوة محمد بن عبد الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) ۝ ﴾

* فهكذا كانت البشرى بنبوة سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ .

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الفسق يجعل الإنسان لا يعلم مصلحته الدينية والدينية بل قد يقع صاحبه في المهالك، كما حدث لقوم فرعون: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٢) ۝ ﴾ .

(١) سورة الاعراف: الآيتان: (١٥٦، ١٥٧) .

(٢) سورة الزخرف: الآية: (٥٤) .

- (٢) أن من طبيعة بنى إسرائيل الغدر والخيانة وعدم الوفاء .. فبعد أن أكرمهم الله بنعمة الحرية وأهلك فرعون أمام أعينهم وشق لهم البحر حتى مروا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنماً يعبدونه من دون الله .
- (٣) أن هذا الموقف يحتاج إلى حزم وصرامة وشدة حتى لا يعود هؤلاء القوم إلى الشرك مرة أخرى .
- (٤) أن الصيام مدرسة عظيمة لإعداد الروح لترتقى إلى أعلى درجات الإيمان والتقوى .. ولذا صام موسى (عليه السلام) أربعين يوماً لتصفو روحه وتقوى عزيمته ويزداد إيماناً وتقوى ليتهيأ لهذا اللقاء الموعود .
- (٥) أن أعظم نعمة فى الآخرة هى النظر إلى وجه الله (جل وعلا) ولذا سأل موسى ربه أن يجعله يفوز برؤيته ولكن موسى (عليه السلام) لم يكن يعلم أن رؤيته لربه فى الدنيا مستحيلة وأنه لن يراه إلا فى الجنة .
- (٦) الأنبياء يغضبون كما يغضب البشر ولكنهم لا يغضبون لأنفسهم وإنما يغضبون لله (جل وعلا) .. ولذلك

غضب موسى (عليه السلام) لما علم أن السامري صنع لبني إسرائيل عجلاً ليعبدوه من دون الله (جل وعلا).

(٧) أن المجرم يكون جزاؤه من جنس عمله . . فلقد رأينا كيف أن السامري لما مسَّ التراب الذي سار عليه فرس جبريل (عليه السلام) ووضعه على الذهب الذي صنع منه العجل الذهبي . . كان جزاؤه أن يعيش وحيداً منبوذاً في الدنيا لا يمسُّ أحداً ولا يمسه أحد.

(٨) أن من نعم الله على أمة الإسلام أن جعل توبتهم سهلة ميسورة فلو أذنب العبد ذنباً كالجبال ثم تاب واستغفر فيما بينه وبين الله لتاب الله عليه وبذل سيئاته حسنات . . أما توبة الله على بني إسرائيل لما عبدوا العجل فلقد كانت توبته عليهم أن يأخذ المؤمنون الذي رفضوا عبادة العجل سيوفهم ليقتلوا بها كل من عبدوا العجل فقتلوا في يوم واحد سبعين ألفاً . . فالحمد لله على نعمة الإسلام.

(٩) أن بني إسرائيل لا تنفع معهم الرحمة ولا الرفق . . ولذا لما عرض عليهم موسى (عليه السلام) التوراة ليأخذوا بأحكامها رفضوا، فأمر الله الملائكة فرفعوا

الجبل فوق رؤوسهم وقيل لهم: إن لم تقبلوا التوراة سيسقط الجبل فوق رؤوسكم فوافقوا وقبلوا التوراة.

(١٠) أن البشرى بنبوة محمد ﷺ جاءت في الكتب السابقة لتكون حجة على أصحابها إذا أدركوا بعثة محمد ﷺ.

قصة بقرة بنى إسرائيل

وها هي قصة بقرة بنى إسرائيل التي توضح لنا كيف كانت نفوس بنى إسرائيل خبيثة ملتوية عنيدة . . فكلما جاءهم الأمر من الله (جل وعلا) كانوا أحرص الناس على مخالفة أوامر الله (جل وعلا).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هَذَا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا أَوْثَقْنَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ

وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لِأَشْيَةٍ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ
مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾.

* والقصة تتلخص في أنه كان رجل في بني إسرائيل
كثير المال، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ، وكانوا يتمنون
موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في
مجمع الطرق، ويقال على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل
يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟
فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام.

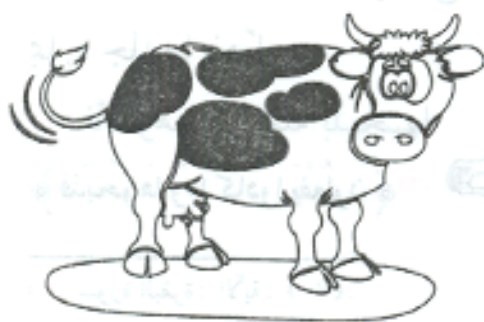
فقال موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم
من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به» فلم يكن عند أحد منهم
علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل.

فسأل ربه عز وجل في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم
بذبح بقرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتُخَذْنَا

(١) سورة البقرة: الآيات: (٦٧ - ٧٣).

هَزُّوا^(١) يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) أى: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلىّ، وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى أن أسأله فيه. فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكن شددوا فشدد عليهم.

فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سننها، فأجيبوا بما عزَّ وجوده عليهم والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهى الوسط النصف بين الفارض - وهى: الكبيرة - والبكر - وهى: الصغيرة - ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها، أى: مُشَرَّب



بحمرة تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضاً ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُسِّينَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٦٧).

تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿١﴾ (٢).
 ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَّا شَيْءَ فِيهَا﴾ (٣).

وهذه الصفات أضيق من الأولى فقد أمرهم موسى (عليه السلام) بذبح بقرة ليست مُذْلَلَةٌ أو مُعْدَةٌ لِحَرْثٍ وَلَا لِسَقْيِ الْأَرْضِ بِالسَّاقِيَةِ . . سائلة من العيوب .

﴿لَّا شَيْءَ فِيهَا﴾ (٤) أى: ليس فيها أى لون يخالف لونها بل هي صفراء خالصة الصفرة، فلما حددها بهذه الصفات، وخصها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ (٥).

ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه، فطلبوها منه .

فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً .



فأمرهم نبي الله بذبحها
 ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٦)

(١) سورة البقرة: الآية: (٧٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧ - ٢٧٠) وتفسير البغوي (١/ ٨١ - ٨٣).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة البقرة: الآية: (٧١).

أى: وهم يترددون فى أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها... قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالعظم الذى يلى الغضروف وقيل: بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربه ببعضها أحياء الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله موسى: من قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى، ثم عاد ميتاً كما كان.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

أى: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره فى سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياءهم فى ساعة واحدة كما قال: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^{(٢)(٣)}.

قصة موسى والخضر (عليهما السلام)

قام موسى (عليه السلام) فى يوم من الأيام يخطب فى بنى إسرائيل ليدعوهم إلى الله ويذكرهم ويرقق قلوبهم بالمواعظ الغالية فكان حديثه شيئاً رائعاً جذب قلوب الناس من حوله.

(١) سورة البقرة: الآية: (٧٣).

(٢) سورة لقمان: الآية: (٢٨).

(٣) قصص الانبياء (ص: ٤٣٨).

وبعد أن انتهى من موعظته قام واحد من بنى إسرائيل وسأله: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟!

فقال موسى (عليه السلام): لا.

وإذا بجبريل (عليه السلام) ينزل فى تلك اللحظة ليخبر موسى (عليه السلام) بأن الله (عز وجل) يعتب عليه أنه لم يرد العلم إلى الله ويقول: الله أعلم.

ثم أخبره أن الله يقول له: إن عبداً من عبادى بمكان يقال له: مجمع البحرين هو أعلم منك يا موسى.

هنا اشتاق موسى (عليه السلام) لرؤية هذا الرجل الذى هو أعلم منه . . واشتأقت نفسه للتزود من العلم، وقال: يا رب كيف أصل إلى هذا الرجل؟ فأمره الله (عز وجل) أن يحمل حوتاً فى مكمل - أى: يحمل سمكة فى سلة - ويسير فى البحر فإذا جاءت اللحظة التى تعود فيها الحياة للحوت ويقفز فى البحر فسوف يجد هناك هذا العبد العالم.

* وانطلق موسى (عليه السلام) بعدما أخذ الحوت فى المكمل وأخذ معه فتاه يوشع بن نون - الذى صار نبياً بعد موسى (عليه السلام) - وحمل الفتى السلة التى فيها

الحيوت وانطلقا لبحثا عن هذا الرجل العالم .
وليس لديهم أى علامة على مكان هذا العالم سوى أن
تعود الحياة للسمة وهروبها إلى البحر .

* وكان موسى (عليه السلام) عنده عزم وإصرار على
أن يصل إلى هذا العالم ولو ظل مسافراً سنوات طويلة .
قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ
الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا﴾ (١) .

* المهم أنه وصل موسى (عليه السلام) وفتاه يوشع إلى
صخرة كبيرة بجوار البحر وقد تعبوا من السفر . . ونام
موسى (عليه السلام) وبقي يوشع سهرًا يحرس نبي الله
موسى (عليه السلام) .
وفجأة سافت الرياح موجة عالية على الشاطئ فجاء رذاذ الماء
على الحيوت فذبَّت فيه الحياة وقفز إلى البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٢) . . وكانت عودة الحياة إلى الحيوت وهروبه إلى
البحر علامة أعلم الله بها موسى (عليه السلام) لتحديد المكان

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٠) .

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦١) .

الذى سيجد فيه هذا العالم الجليل الذى جاءه موسى ليتعلم منه .
 * قام موسى (عليه السلام) من نومه ولم يعرف أن
 الخوت قد دبت فيه الحياة وهرب إلى البحر . . ونسى فتاه
 يوشع أن يخبره بما حدث .

وسار موسى وفتاه ليلتهما ويومهما حتى إذا كانا من الغد
 قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا فقد شعرت بالتعب الشديد .
 وهنا تذكر الفتى تلك اللحظة التى دبت فيها الحياة فى
 الخوت فهرب إلى البحر وذلك عندما كانا عند الصخرة . .
 فأخبر موسى بما حدث واعتذر إليه بأن الشيطان هو الذى
 أنساه أن يذكر له ما حدث رغم غرابة ما حدث أمام يوشع
 فقد رأى الخوت يشق الماء فيترك علامة على الماء وكأنه
 يتلوى على الرمال فيترك عليها أثراً .

* هنا أحس موسى (عليه السلام) بسعادة غامرة عندما
 علم أن الخوت هرب إلى البحر لأن معنى ذلك أنه قد
 وصل إلى المكان الذى يريده ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى
 آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١) .

وعاد موسى (عليه السلام) وفتاه يبحثان عن المكان

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤) .

الذي هرب فيه الخوت. وبعد بحث طويل وصل موسى إلى المكان الذي هرب فيه الخوت في البحر.

وصل هو وفتاه إلى الصخرة التي نأما عندها وهناك وجدا رجلاً مُسجى بثوب ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ مَا عَلَّمْنَا﴾ (١).

فسلم عليه موسى (عليه السلام).

فقال له الخضر: وهل بأرضك سلام؟ .. من أنت؟

فقال موسى: أنا موسى.

فقال الخضر: موسى نبي بني إسرائيل .. عليك

السلام يا نبي بني إسرائيل.

ثم قال له الخضر: وماذا تريد مني يا موسى؟

قال موسى: أتيتك لتعلمني مما علّمت رشداً.

فقال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك يا موسى؟!

ثم قال له: يا موسى إني على علم من علم الله لا

تعلمه أنت .. وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا.

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٥).

فقال له موسى: هل اتبعك على أن تعلمني مما علّمت
رُشدًا؟.

فقال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ
تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (١).

أى أنك ستجد في تصرفاتي أشياء لا تفهم لها سببًا
ولا تدري لها علة ولذلك فلن تصبر معي يا موسى.

* فاحتمل موسى تلك الكلمات وعاد يرجوه أن يأذن
له بصحبته ليتعلم على يديه فقال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٢).

- وتأمل معي كيف كان تواضع موسى (عليه السلام)
للخضر (عليه السلام).

* وهنا اشترط الخضر على موسى (عليهما السلام) شرطًا
من أجل أن يكون في صحبته وهو ألا يسأله عن أى شيء
حتى يحدثه هو عنه . . فوافق موسى على هذا الشرط .
﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ
ذِكْرًا﴾ (٣).

(١) سورة الكهف: الآيةان: (٦٧، ٦٨).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٠).

* وانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر يتكلمان وفجأة مرت أمامهما سفينة فكلما أصحابها أن يحملوهما فوافق أصحاب السفينة وبخاصة أنهم عرفوا الخضر (عليه السلام) فحملوهما بغير أجر إكراماً للخضر. فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

* وبعد أن وصلوا جميعاً إلى الشاطئ فوجيء موسى (عليه السلام) بأن الخضر (عليه السلام) أخذ فأساً حين غادر الناس السفينة وأخذ يخرق السفينة فاقتلع لوحاً من ألواحها وألقاه في البحر. فتعجب نبي الله موسى (عليه السلام) وقال للخضر (عليه السلام) لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر وأكرمونا غاية الإكرام ثم أنت تخرق لهم سفيتهم التي يعملون عليها لتغرقهم في البحر فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

- لقد كان هذا التصرف الذي فعله الخضر عجيباً من وجهة نظر موسى (عليهما السلام).

* وهنا قام الخضر ليذكر موسى بالعهد الذي أخذه عليه .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ^(١) .

وهنا اعتذر موسى للخضر لأنه فعل ذلك نسياناً وطلب منه ألا يؤاخذه على ذلك ﴿ قَالَ لَا تَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ^(٢) . فطلب منه أن يصبر عليه .

* ومرة أخرى يسير موسى مع الخضر (عليهما السلام) فمرّاً على حديقة يلعب فيها الصبيان .. ولما شيع الأطفال من اللعب وتعبوا جلسوا جانباً وناموا .. وفجأة قام الخضر بقتل غلامٍ منهم فثار موسى وظل يسأل الخضر: ما ذنب هذا الغلام وما جريمته حتى تقتله؟!

فقام الخضر ليذكر موسى للمرة الثانية بالعهد الذي أخذه عليه ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ^(٣) .

- ويعتذر موسى للمرة الثانية بأنه فعل ذلك نسياناً وأعطاه العهد بأن لن يسأله مرة أخرى .. فإذا سأله مرة أخرى فله الحق أن يفارقه هذه المرة .

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٢) .

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٣) .

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٥) .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِك عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (١).

❖ وللمرة الثالثة والأخيرة يسير موسى مع الخضر (عليهما السلام)، فدخلوا قرية كان أهلها على درجة عالية من البخل.. فلما نفذ الطعام الذي معهم طلبا من أهل القرية أن يقدموا لهما طعاماً فرفضوا أن يضيفوهما أو يقدموا لهما طعاماً.. ومرت الساعات عصيبة عليهما بلا طعام ولا شراب.. فجلس موسى والخضر (عليهما السلام) بجوار جدار مائل يكاد أن يسقط وفجأة قام الخضر ليصلح هذا الجدار ويبنيه من جديد..

فتعجب موسى من فعل الخضر.. كيف يقوم ويبني الجدار في تلك القرية التي بخل أهلها أن يقدموا لهم الطعام والشراب قال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٢). وهنا انتهى الأمر.. وكان الفراق بين موسى والخضر (عليهما السلام)..

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٧).

قال الخضر لموسى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ^(١).

* لقد حذر الخضر موسى (عليه السلام) من السؤال عن أى شيء يراه حتى وإن كان أمراً غريباً ولكن موسى (عليه السلام) كان لا يتمالك نفسه من السؤال وبخاصة أنه يرى أشياء غريبة. ولكنه لم يعلم أن الخضر كان لا يفعل أى شيء إلا بوحى من الله (جل وعلا) ولم يكن يفعل أى شيء من تلقاء نفسه.

* وبدأ الخضر يكشف لموسى (عليهما السلام) أسرار تلك الأشياء والأفعال التى كان يتعجب منها.

* فأخبره أولاً عن أمر السفينة التى خرقها رغم أن أصحاب السفينة أكرموها وحملوها بدون أجر. فقد يظن موسى (عليه السلام) أن خرق السفينة مصيبة كبيرة لأصحابها لكن الخضر (عليه السلام) أخبره أنه فعل ذلك لأن الملك الظالم الذى كان يحكم البلاد كان فى هذه الأيام يستولى على كل سفينة سليمة خالية من العيوب فأراد الخضر أن يخرقها حتى يتركها الملك ثم يصلحها

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٨).

أصحابها بعد ذلك . . ومن المعلوم أن إصلاح لوح في السفينة خير من ضياع السفينة كلها . . وبذلك استطاع الخضر أن يكون سبباً في حفظ السفينة من الضياع وبذلك يبقى مصدر رزق هذه الأسرة كما هو فلا يموتون من الجوع ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (١) .

* ثم وضح له السر في قتل هذا الغلام . . فقد يعتبر موسى (عليه السلام) أن قتل الغلام مصيبة كبيرة بالنسبة لوالديه غير أن الخضر* (عليه السلام) وضح له أن هذا الغلام طُبع كافراً وأنه كان سيرهق والديه عندما يكبرا وسيكون عاقباً لهما وأن موته سيكون رحمة لهما وأن الله (عز وجل) سيرزقهما بدلاً منه غلاماً يرعاهما ويحسن إليهما في سن الشيخوخة والضعف .

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (٢) .

* ثم وضح السر في بناء الجدار من غير أن يطلب

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٩).

(٢) سورة الكهف: الآيتان: (٨٠، ٨١).

أجرًا من أهل القرية. فلما جاءهم ذلك سمعوا لصًا
فأخبره أن الجدار الذي بناه بدون أجر كان تحته كنز
لغلامين يتيمين في المدينة وكان الجدار يكاد أن يسقط ..
ولو سقط الجدار لظهر الكنز الذي تحته فأخذاه أهل القرية
البُخلاء ولم يستطع الغلامان أن يحصلوا على كنزهما
فلذلك بنى لهما الجدار ليحفظ لهما كنزهما حتى يكبرا
فيستخرجا الكنز بإذن الله (جل وعلا).

ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه في
طفولتهما وضعفهما، فأراد ربهما أن يكبرا ويشهد عودهما
ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ
فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَلْفِغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (١).

* ثم وضح له الخضر أن هذا كله لم يفعله من تلقاء
نفسه، وإنما كان ذلك كله بوحي من الله (جل وعلا) .. ولذا
قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٢).

* ثم اختفى هذا العالم العابد الخضر (عليه السلام) بعد

(١)، (٢) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

أن تعلم منه موسى (عليه السلام) درسين في غاية الأهمية:

١- تعلم منه ألا يغتر بعلمه فإنه فوق كل ذي علم عليم.

٢- تعلم منه ألا يتسرع ولا يتكلم إلا بما يعلم.

الطريق إلى بيت المقدس

ها هو موسى (عليه السلام) يحرض بنى إسرائيل على الجهاد في سبيل الله ودخول بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزلوا فيها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشرهم بالظفر عليهم فنكلوا وعصوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه، والتمادى في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين عاماً عقوبة لهم، على تفريطهم في أمر الله ^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤ ، ٣٥) بتصرف.

ذكرهم بالنعمة

قبل أن يأمرهم بالتكليف

ولكنه (عليه السلام) قبل أن يأمرهم بالتكليف ذكرهم بنعم الله عليهم.

قال تعالى مُخْبِرًا عن هذا المشهد المهيّب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ^(١).

أى: كلما قبض نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده حتى عيسى عليه السلام الذى هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء من الرسل كافة: محمد بن عبد الله ﷺ.

*** وقوله تعالى:** ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ ^(٢) قال ابن عباس: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سُمى ملكًا.

وقد ورد فى الحديث: «من أصبح منكم معافى فى جسده، آمنًا

(١)، (٢) سورة المائدة: الآية: (٢٠).

في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُم مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

يعنى: عالمى زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس فى زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بنى آدم.

* ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾^(٣) أى: المطهرة - وهى

بيت المقدس - ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٤) أى: التى وعدكموها

الله على لسان أبيكم إسرائيل أنها وراثه من آمن منكم، ﴿وَلَا

تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾^(٥) أى: لا تنكولوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا

خَاسِرِينَ﴾^(٦) قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى

يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴿أى: اعتذروا بأن

فى هذه البلده قوماً جبارين أهل قوة هائلة شديدة، فلا نقدر

على حربهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن

يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

(١) حسن: رواه الترمذى (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١)، وحسنه العلامة الألبانى

رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٠٤٢). (٢) سورة المائدة: الآية (٢٠).

(٣) سورة المائدة: الآية (٢٠). (٤) سورة المائدة: الآية (٢١).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢١). (٦) سورة المائدة: الآية (٢٢).

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أُنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ (١) أى : فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ، ومتابعة رسول الله ﷺ ، حرصهم رجلان - لله عليهما نعمة عظيمة - ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه ، ويقال إنهما يوشع بن نون ، وكالب ابن يوفنا . . فقالا : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) أى : إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله ، نصركم الله على أعدائكم ، ودخلتم البلد التى كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذاك فيهم شيئا ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٣) وهذا نكول منهم عن الجهاد ، ومخالفة لرسولهم ﷺ (٤) .

فلما نكل بنو إسرائيل عن القتال ، غضب عليهم موسى عليه السلام وقال داعيا عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ (٥) أى : ليس أحد يطيعنى منهم فيمثل أمر الله

(١)، (٢) سورة المائدة: الآية: (٢٣) . (٣)، (٤) سورة المائدة: الآية: (٢٤) .

(٣) سورة المائدة: الآية: (٢٤) .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤ ، ٣٥) بتصرف . (٥) سورة المائدة: الآية: (٢٥) .

(٥) سورة المائدة: الآية: (٢٥) .

ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(١) يعنى: اقض بينى وبينهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن
الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة
فوقعوا في التيه يسIRON دائماً لا يهتدون للخروج منه...
وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة.

وانزلنا عليكم المن والسلوى

وفي فترة التيه امتن الله على بنى إسرائيل بنعمه التى
لا تُعد ولا تُحصى.

فكان من بين ذلك أنه أرسل لهم الغمام ليظللهم من حر
الشمس وأكرمهم بالمن والسلوى والصخرة التى تتفجر منها المياه.
وكانت صخرة صماء تُحمل معهم على دابة فإذا ضربها
موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل
شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها موسى بن

(١) سورة المائدة: الآية: (٢٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢٦).

عمران... وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام^(١).

قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْغَمَامَ﴾^(٣) أى: سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلة ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾^(٤) أى: أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب، والمن كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، والسلوى: طير يشبه السمانى لذيذ الطعم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٥) أى: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٦) أى: أنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم^(٧).

*** وقال تعالى:** ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣٦/٢).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة البقرة: الآية: (٥٧).

(٧) صفوة التفاسير (١/ ٦٠).

(٨) سورة البقرة: الآية: (٦٠).

يُذَكِّرُ الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بنعمته عليهم بإجابة موسى عليه الصلاة والسلام حين استسقى لهم فيسّر الله الماء. وأخرجه سبحانه لهم من الحجر وفجّر لهم منه اثنتى عشرة عيناً لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها. وقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾^(١) أى: كلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعه الله بلا سعى منكم ولا كدّ، واعبدوا الله الذى سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢) أى: ولا تقابلوا النعم بالعصيان، فتسلبوها.

أتستبدلون الذى هو أدنى

بالذى هو خير

وما زلنا نرى العجب العُجاب من بنى إسرائيل . . وكيف كان صبر نبي الله موسى عليهم . .
قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٦٠).

فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾

يُذَكِّرُ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمَتِهِ فِي أَنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا.

وَرِغْمَ ذَلِكَ تَضَجَّرُوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ وَهَذَا الطَّعَامِ الشَّهَى الْجَمِيلِ وَاشْتَاقُوا إِلَى الْبَصْلِ وَالشُّومِ وَالْفَوَلِ وَالْعَدَسِ. . . وَكَانَتْ كُلُّهَا أَطْعَمَةٌ مِصْرِيَّةً بَسِيطَةً جَدًّا.

فَأَخَذَ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يُوْضِحَ لَهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَظْلَمُونَ أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ سَيَتْرَكُونَ الطَّعَامَ الشَّهَى وَيَحْنُونَ لِلْأَطْعَمَةِ الرَّدِئَةِ. . . وَكَانَهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَيَّامَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ الَّتِي عَاشَوْهَا أَيَّامَ فِرْعَوْنَ.

وَلِذَا قَالَ لَهُمْ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ﴿٢﴾.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَهْبَطُوا مِصْرًا﴾﴾ (٣) وَالْمَعْنَى: أَنْ أَهْبَطُوا

(١) سورة البقرة: الآية: (٦١).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٦١).

مصرًا من الأمصار لا (مصر فرعون) لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم: هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز المال، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه^(١).

قصة الحجر

الذي أخذ ثياب موسى (عليه السلام)

كان موسى عليه السلام شديد الحياء، والحياء خلق كريم، وكان رسولنا ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، ومدح الرسول ﷺ الحياء، فقال فيه: «الحياء خير كله»^(٢).

وكان يجوز لبنى إسرائيل أن يغتسل رجالهم عراة، ينظر أحدهم إلى الآخر،... ولشدة حياء موسى كان يغتسل وحده، ولا يُبدي شيئًا من عورته ولا جسده.

وقد أشاع عنه بعض الجهال الذين لا يسلم من أذاهم أحد، حتى الرسل والأنبياء، فزعموا كذبًا وزورًا أن سبب

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٦١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) واللفظ له.

استتار موسى عنهم وجود عيب في جسده يخفيه .
ولا شك أن هذا القول آذى موسى عليه السلام ، والله
لا يرضى الأذى لرسوله ، وهذه المقالة تضعف الثقة فيمن
بعثه الله رسولا ، فالرسل في أعين الناس ونظرهم يجب
أن يمثلوا الأتموزج الكامل ، الذي لا يخدشه شيء ، لا في
خلقه ، ولا خلقه .

وقد شاء الله أن يبرأ موسى مما افتراه عليه المفترون ،
ورماه به الجاهلون ، فقد ذهب موسى عليه السلام يوماً
يغتسل وحده كما هي عادته ، ووضع ثيابه على حجر ،
فلما فرغ من غسله ، وجاء ليأخذ ثيابه ، طار الحجر بثيابه ،
وفرَّ بها ، والحجر ليس به القدرة على الحركة وال الطيران ،
فهو جماد ، ولكن الله جعله يطير بطريقة لا نعلمها وذلك
لحكمة يريدناها ، وهي تبرئة موسى مما تُسب إليه .

وأذهلت المفاجأة موسى عليه السلام ، فجرى وراء
الحجر يناديه ، ويقول : ثوبى يا حجر ، ثوبى يا حجر ،
والحجر يمضى بثيابه ، وهي صورة طريفة ، فموسى النبي
الكريم ، والرجل الحبي الوقور ، يجري عريانا وراء حجر

طائر بثيابه، حتى إذا بلغ الحجر مجمعاً من مجامع بني إسرائيل ورأوا موسى سليماً معافى لا عيب فيه، وزالت بذلك الفرية التي رماها بها الجاهلون، وقف الحجر، وتناول موسى ثيابه ولبسها ثم أخذ عصاه وأقبل على الحجر يضربه ضرب الغاضب على الإنسان المتمرد العاق الظالم. كان موسى يعلم أنه حجر، ولكنه فعل فعلاً لا تفعله الحجارة، ففعل معه فعلاً لا يفعل بالحجارة، فضربه ضرب المؤدب، ومن العجب أن عصا موسى، وهى من خشب أثرت فى الحجر الصلد القاسى، وتركت به ندوباً بعدد الضربات التى نالها من موسى، وفى العادة أن العصى لا تؤثر فى الحجارة، فالحجر أقسى من العصا، وفى كثير من الأحيان تكسر العصا إن ضربت بها حجراً، ويسلم الحجر، ولكن عصا موسى من نوع آخر من العصى جعل الله فيها كثيراً من الخصائص، ومن ذلك أنها أثرت فى الحجر وأحدثت به ستة ندوب أو سبعة^(١).

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ٩٣ ، ٩٤).

وحان وقت الرحيل

ولكل بداية نهاية . . ومهما عاش الإنسان فلا بُد من تلك اللحظة التي يلتقى الإنسان فيها ربه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (١)، ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٢).
بل لقد قال الحق (جل وعلا) لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣). وقال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٤).**

* وهنا تنتهى قصة سيدنا موسى (عليه السلام) مع بنى إسرائيل وتأتى اللحظة الحاسمة التى يرحل فيها موسى (عليه السلام) من الدنيا للقاء ربه (جل وعلا).

* **عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:** قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقاها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد

(١) سورة الانشقاق: الآية: (٦).

(٢) سورة النجم: الآية: (٤٢).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٣١).

(٤) سورة الانبياء: الآيتان: (٣٤، ٣٥).

فقأ عيني. قال: فردَّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدى فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب.. رب أمتنى من الأرض المقدسة رمية بحجر^(١).

* وفي رواية قال ﷺ: «كان ملك الموت يأتي الناس عياناً، قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه فقأ عينه، فأتى ربه فقال: يا رب.. عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعبت عليه - وفي رواية: لشققت عليه -»

قال له: اذهب إلى عبدى، وقل له فليضع يده على جلد - أو مسك ثور - فله بكل شعرة وارت يده سنة، فأناه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت. قال: فالآن. قال: فشتمه شمة فقبض روحه^(٢).

* وها هو ﷺ يخبر أنه رأى موسى (عليه السلام) وهو يصلى في قبره.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما أُسرى بي

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) واللفظ له.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٠٥٢١)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٣٢٧٩).

مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكتيب الأحمر^(١).
وأما سؤاله الإذناء من الأرض المقدسة، فلشرفها
وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم.

قال بعض العلماء: وإنما سأل الإذناء ولم يسأل نفس بيت
المقدس، لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتن به
الناس. وفى هذا استحباب الدفن فى المواضع الفاضلة،
والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين، والله أعلم^(٢).

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) أن المسلم لا ينبغي عليه أن يشدد على نفسه .. فلقد
رأينا كيف أن الله لما أمر بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة ليأخذوا
جزءاً منها فيضربوا به جسد المقتول ليعرفوا من القاتل .. فلو
أنهم ذبحوا أى بقرة لحصل المقصود ولكنهم شددوا فشدد عليهم.
- (٢) أن بر الوالدين ينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة .. فلقد
رأينا كيف أن هذا الشاب الذى كان باراً بوالده باع البقرة التى كانوا
يبحثون عنها بملء جلدتها ذهباً .. هذا غير ثوابه فى الآخرة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٥ / ١٨٦).

- (٣) أن المسلم ينبغي أن يرد العلم إلى الله لأن الله أعلم بمقادير العباد ولذا عتب الله على موسى (عليه السلام) لما سُئل: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ فقال: لا. *لأنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى*
- (٤) الحرص على الرحلة لطلب العلم من سمات الصادقين في طلب العلم. . . فلقد رحل موسى (عليه السلام) ليطلب العلم من الخضر (عليه السلام). *لأنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى*
- (٥) لا بد لطالب العلم أن يكون متواضعًا مع شيخه لينال بركة علمه وليفوز بحبه وقربه. . . وعلى طالب العلم أن يطلب العلم لآخر لحظة في حياته. *لأنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله تعالى*
- (٦) أن المسلم قد ينسى بعض الأشياء المهمة. . . ويكون ذلك النسيان بسبب الشيطان فهو العدو الذي لا يريد الخير لمسلم أبدًا.
- (٧) أنه قد يرى الإنسان أشياءً عجيبة لكن الله (عز وجل) له فيها حكمة جلية قد تخفى على أعلم الناس وأقربهم إلى الله. . . كما حدث عندما خرق الخضر السفينة وقتل الغلام وبنى الجدار لأهل القرية البخلاء فلما تعجب نبي الله موسى أخبره الخضر بعد ذلك بحكمة الله في تلك

الأمور التي علمها من الله (جل وعلا) من خلال الوحي .
 (٨) أن الله يحفظ الأبناء بصلاح الآباء فلقد رأينا
 كيف قام موسى والخضر (عليهما السلام) ببناء جدار
 الغلامين اليتيمين ليحفظا لهما كنزهما وكان السبب في
 ذلك ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (١).

(٩) أن كل من رفض أن يمثل لأمر الله فإن الله (عز
 وجل) يعاقبه في الدنيا والآخرة .. ولقد رأينا كيف أن
 بنى إسرائيل لما رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة
 ليطهروها من دنس هؤلاء الجبارين الذين احتلوا كتب
 الله عليهم التيه أربعين سنة يتيهون في الأرض لا يدرون
 إلى أين يذهبون ولا كيف يخرجون من التيه .

(١٠) إن الله يدافع عن الذين آمنوا .. ولقد رأينا
 كيف سخر الله (عز وجل) الحجر ليأخذ ثياب موسى
 (عليه السلام) ليمر أمام بنى إسرائيل فيرون جسده سليماً
 ليس فيه عيوب وينتهى بذلك كذبهم فقد كانوا يزعمون أن
 موسى (عليه السلام) به عيوب في جسده .

(١) سورة الكهف: الآية (٨٢).

قصة يوشع بن نون (عليه السلام)

كان ياما كان . . .
كان هناك فتى صغير يعيش مع نبي الله موسى (عليه السلام)، وفي يوم من الأيام قام نبي الله موسى خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أى الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فقال له: بلى، لى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أى رب ومن لى به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله فى مكثل، حيثما فقدت الحوت فهو ثم، وأخذ حوتاً فجعله فى مكثل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون . . .^(١)

* فكان هذا الفتى هو يوشع بن نون الذى صحب موسى عليه السلام فى تلك الرحلة المباركة لطلب العلم. . وكان موسى (عليه السلام) يُعده ويربيه ويعلمه ففاز يوشع (عليه السلام) بصحبته وجنى الثمرات الكثيرة من ورائها.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٤٠١) أحاديث الأنبياء: ٧٣ (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) (٤٢) (٤٣) (٤٤) (٤٥) (٤٦) (٤٧) (٤٨) (٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) (٥٣) (٥٤) (٥٥) (٥٦) (٥٧) (٥٨) (٥٩) (٦٠) (٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) (٧٦) (٧٧) (٧٨) (٧٩) (٨٠) (٨١) (٨٢) (٨٣) (٨٤) (٨٥) (٨٦) (٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) (٩١) (٩٢) (٩٣) (٩٤) (٩٥) (٩٦) (٩٧) (٩٨) (٩٩) (١٠٠)

بنو إسرائيل ينقضون العهد

مع موسى (عليه السلام)

كان الله قد أمر موسى أن يُجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نُقباء، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾^(١).

وهكذا نرى العهد مشروطًا بميثاق أخذه الله عليهم، أن يقاتلوا ولا يفروا، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله كلهم. ولكن كعهد اليهود دائمًا... خَوْنَةٌ، وأصحاب مصالح، لا يوفون بعهد الله أبدًا، فقد أنكروا، وغيروا، ورفضوا الوفاء بالعهد، وكذبوا الأنبياء وهم يعلمون^(٢).

* لقد رفضوا أن يدخلوا مع نبي الله موسى (عليه السلام) لما أراد أن يحرر بيت المقدس من أيدي الجبابرة.

(١) سورة المائدة: الآية: (١٢).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٣٧).

يوشع يتولى الحكم والنبوة

بعد موسى (عليهما السلام)

* توفي هارون (عليه السلام) ثم توفي موسى (عليه السلام) بعده بثلاث سنوات وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام، نبياً خليفته عن موسى بن عمران ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب... فلما انقضت المدة، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقى منهم ويسائر الجيل الثانى، فقصده بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر^(١).

النبى ﷺ يصف لنا كيف فتح يوشع

(عليه السلام) بيت المقدس

* ولقد وصف النبى ﷺ لنا وصفاً دقيقاً عن كيفية فتح يوشع (عليه السلام) لبيت المقدس.

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦).

* لقد حرص نبي الله يوشع عند انطلاقته لفتح المدينة التي يقصدها على أن يكون جيشه قويًا متماسكًا، ولذلك أخرج من جيشه المقاتلين الذين قد يكونون سبيًا في الهزيمة، لانشغال قلوبهم إنشغالاً كبيراً بمسائل الدنيا التي لا يستطيعون التخلص من أعمال قلوبهم وعقولهم بشأنها، فقد استثنى ثلاثة أصناف من المقاتلين وأمرهم بعدم الخروج معه.

الصنف الأول: الذي عقد نكاحه، ولم يدخل بزواجه، ولا شك أن هذا الصنف يكون متعلقاً قلبه بزوجه أشد التعلق، وبخاصة إذا كان في مرحلة الشباب.

والصنف الثاني: المشغول ببناء لم يكمل بناءه بعد.

والثالث: الذي اشترى غنماً أو نوقاً حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تُنتج.

إن المبدأ الذي اعتمده هذا النبي يدل على أنه قائد فذ، صاحب نظرية في قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذي يكون به النصر، .. إن الجيوش لا تنتصر بكثرة عددها، بل بالتنوع التي تقاوم، فالنوعية أهم من العدد والكمية.

ولذا أخرج من جيشه المشغولي القلوب، الذين يكونون

فى أرض المعركة وقلوبهم معلقة بالزوجة التى سيدخل بها، أو البناء الذى سيسكنه، أو الماشية والأنعام التى ستلد وتنتج^(١).

يوشع (عليه السلام) يخاطب الشمس

خرج يوشع بجيشه متجهاً إلى القرية التى يريد غزوها، فدنا من القرية فى عصر ذلك اليوم، ومعنى ذلك أن فرصته فى فتح المدينة ليست قوية، لأن القتال فى الليل ليس سهلاً، وقد يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخول الليل يعنى دخول يوم السبت، والقتال مُحَرَّم على بنى إسرائيل فى يوم السبت، ومعنى ذلك أنه سيعود عن القرية قبل فتحها، وهذا سيعطى أهل القرية فرصة لتقوية جيشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجه يوشع إلى الشمس



مخاطباً لها قائلاً: إنك مأمورة، وأنا مأمور، ثم دعا ربه قائلاً: اللهم احبسها علينا، ... واستجاب

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٥).

الله دعاءه، فأخّر الغروب حتى تم النصر^(١).

* وفي ذلك يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «ما حُبست الشمس

على بشر قط إلا على يوشع بن نون ليألى سار إلى بيت المقدس»^(٢).

من تواضع لله رفعه الله

قال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله».

* فإنه لما دخل يوشع (عليه السلام) فاتحاً منتصراً أمر

بنى إسرائيل أن يدخلوا مدينة بيت المقدس سجداً - أى:

ركعاً متواضعين - شاكرين الله عز وجل على ما منّ به

عليهم من الفتح العظيم الذى كان الله وعدهم إياه، وأن

يقولوا حال دخولهم: (حِطَّة) أى: حُطّ عنا خطايانا التى

سلفت، من نكولنا الذى تقدم منا.

* ولهذا دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها

وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، ثم لما دخلها

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٦).

(٢) صحيح: رواه الخطيب البغدادي وأحمد عن أبي هريرة وصححه الألباني في

صحيح الجامع (٥٦١٢).

اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر.
وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً
وفعلًا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم
يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة.

الجزاء من جنس العمل

ولم تكن هذه الجريمة هي أول جرائم بنى إسرائيل ولا
آخر جرائمهم، فقد عذبوا رسلهم كثيراً بعد موسى (عليه
السلام)، وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قراطيس يُدون
بعضها ويخفون أكثرها، وامتد هذا اللعب إلى العقيدة،
وأخبر الله سبحانه عنهم بهذا فقال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا
اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرَاطِيسَ
تُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ
ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١).

عاد بنو إسرائيل إلى ظلمهم لأنفسهم، اعتقدوا أنهم

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩١).

شعب الله المختار، وتصوروا انطلاقًا من هذا الاعتقاد أن من حقهم ارتكاب أى شيء وكل شيء، وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد كتابهم إلى أنبيائهم، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وقست قلوبهم حتى عميت، وتناول عليهم الزمن فقالوا: قلوبنا غُلف، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)

تسليط الملوك الجبارين عليهم

فسلط الله عز وجل عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين، يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عز وجل أعداءهم عليهم ومكّن لهم من رقابهم وأموالهم. وكان معهم تابوت الميثاق، وهو تابوت يضم بقية ما ترك موسى وهارون، ويقال: إنه هذا التابوت كان يضم ما بقى من ألواح التوراة التى أنزلت على موسى (عليه السلام)

(١) سورة النساء: الآية: (١٥٥).

ونجت من يد الظالمين منهم والمفترين، وكان لهذا التابوت بركة تمتد إلى حياتهم وحروبهم، فكان وجود التابوت بينهم في الحرب، يمدّهم بالسكينة والثبات، ويدفعهم إلى النصر، فلما ظلموا أنفسهم ورُفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم، وهكذا ضاع منهم تابوت العهد، وضاع في حرب من حروبهم التي هُزموا فيها. ^(١)
وهنا.. مات نبي الله يوشع بن نون، ذلك القائد الفذ الرباني الذي استطاع بالإخلاص أن يقود بني إسرائيل إلى نصر كان عزيزاً أن يحققوه. ^(٢)

وحان وقت الرحيل

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة. ^(٣)

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٣٩ ، ٢٤٠) باختصار.

(٢) قصص الانبياء (ص: ٤٩٠).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) إذا أردنا أن ننشئ أولادنا نشأة طيبة فلا بد أن نجعلهم في صحبة الصالحين من أهل العلم ليربهم تربية إيمانية تجعلهم بعد ذلك رجالاً صالحين ينفع الله بهم البلاد والعباد.

فقد رأينا كيف تربي نبي الله يوشع بين يدي نبي الله موسى (عليهما السلام) فكان بعد ذلك نبياً خليفة على بنى إسرائيل .

(٢) أن قائد الجيش لا بد أن يبحث عن الجندي الذي يريد أن يبذل نفسه وماله لله . . أما الجندي الذي ينشغل بحطام الدنيا فإنه يكون نقطة ضعف في الجيش وقد يكون من أسباب الهزيمة ولذلك اشترط عليهم يوشع (عليه السلام) ألا يخرج معه أحد مشغول بشيء من الدنيا .

(٣) أن اليقين والثقة في الله من أعظم أسباب النصر، فقد رأينا كيف أن يوشع (عليه السلام) نظر إلى الشمس بكل يقين وتوكل وثقة في الله وسأل الله أن يحبس له الشمس فلا تغرب حتى يفتح بيت المقدس فحبس الله له

الشمس حتى فتح بيت المقدس . (عز وجل)

(٤) أن الله (عز وجل) يؤيد الأنبياء بالمعجزات التي

تعينهم على تبليغ دعوتهم ونشر دين الحق بين الناس . .

فنحن نعلم أن حبس الشمس بلا غروب ليس أمراً عادياً

بل كان معجزة من الله لنبيه يوشع (عليه السلام) .

(٥) أن من تواضع لله رفعه الله (جل وعلا) .

فقد رأينا كيف أن يوشع (عليه السلام) لما دخل فاتحاً

منتصراً أمر بني إسرائيل أن يدخلوا مدينة بيت المقدس

سُجداً متواضعين شاكرين لله (جل وعلا) .

(٦) أن البغى والظلم والكبر والخروج عن أمر الله

سبب جلب سخط الله وعذابه فقد رأينا كيف أن بني

إسرائيل لما بغوا وتكبروا وظلموا وقتلوا الأنبياء سلط الله

عليهم قسوة الملوك الجبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم .

قصة داود (عليه السلام)

كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، وكانوا لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان. وكان ذلك موروثاً خلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام. فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قُتل. فأخذوها فحبسوها فى بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن

يرزقها غلاماً، فاستجاب الله لها، ووهبها غلاماً، فسمته شمویل أى: سمع الله دعائى ومنهم من يقول: شمعون وهو بمعناه، فأنبته الله نبأً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل^(١).

* وكان قد حكم بنى إسرائيل ملك ظالم اسمه جالوت، ولما زاد ظلمه وكثر طغيانه، ويش بنو إسرائيل من صلاحه، طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم قائداً ليقاتلوا الملك الظالم، فقال لهم النبی: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا﴾^(٢) أى: وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٣) أى: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم^(٤).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/٤١١).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٤٦).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (١/٤١١، ٤١٢).

الله يصطفى طالوت ملكاً

فأوحى الله إليه أنه قد بعث طالوت ملكاً على بنى إسرائيل ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ (١).

فتعجب الناس وقالوا: كيف يكون ملكاً علينا وهو ليس من أبناء أسرة يهوذا التي يخرج منها الملوك.

فأخبرهم أن الأمر ليس بيده وإنما هو اختيار الله (جل وعلا) وكذلك فإن الله زاده بسطة في العلم والجسم فقد أعطاه الله العلم والقوة.

فقالوا له: وما هي آية ملكه؟ - أي علامة ملكه -.

فقال لهم نبيهم: آية ذلك أنه سيرجع لكم التابوت تحمله الملائكة مرة أخرى بعد أن ضاع منكم سنوات طويلة.

آية ملكه أن يأتيكم التابوت

* ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ (٢) أي علامة ملكه

واصطفائه عليكم ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ (٣) أي يرد الله

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٤٦).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٤٨).

إليكُم التابوت الذي أخذ منكم، وهو صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (١) أى: فى التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهى عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التى كُتبت فيها التوراة تحمله الملائكة.

* جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢) أى: إن فى نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر (٣).

ابتلاء وتمحيص

وتجهز طالوت لحرب جالوت وجنوده وأخذ الجيش وخرج لملاقاة جالوت .. فلما سار الجيش مسافات طويلة

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٢٤٨).

(٣) صفوة التفاسير (١/ ١٥٧ ، ١٥٨) بتصرف.

أحسوا بالعطش فأراد طالوت أن يختبرهم فأخبرهم أنهم سيمرون بعد قليل على نهر بين الأردن وفلسطين اسمه نهر الشريعة فمن شرب من النهر حتى يرتوى فليذهب ولا يجاهد معنا لأننا نريد رجالاً يتحملون الجوع والعطش ويصبرون على الجهاد في سبيل الله . . وأما من أخذ شربة يسيرة يبل بها ريقه فلا بأس بذلك .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ (١)

* فشرب أكثر الجنود ولم يصبروا على العطش وخرجوا من الجيش ولم يبق إلا القليل . . فقد كان عدد الجيش ثمانين ألفاً فشربوا جميعاً ولم يبق منهم إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فقط لكنهم جميعاً من الصابرين الأقوياء الشجعان .

* وهنا أصبح عدد الجيش قليلاً جداً وكان جيش العدو كبيراً فأحس بعض أفراد الجيش الذين صبروا مع طالوت أنهم أضعف بكثير من جالوت وجيشه وقالوا:

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٤٩).

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ ^(١).

لكن الفئة القليلة الثابتة أيقنوا أن النصر ليس بالعدد والعتاد وإنما النصر من عند الله (جل وعلا) فقالوا لطالوت: امض لسبيلك فإننا - إن شاء الله - سوف نتصر عليهم ولو كان عدونا قليلاً ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٢).

داود (عليه السلام) يقتل جالوت

والتقى الجيشان .. جيش الإيمان وعلى رأسه طالوت .. وجيش الطغيان وعلى رأسه جالوت. فما كان من الفئة القليلة المؤمنة التي ثبتت مع طالوت إلا أن توجهوا بالدعاء إلى فاطر السماوات والأرض طالبين منه أن يرزقهم الصبر والثبات والنصر على الأعداء. **قال تعالى:** ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣).

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٢٤٩).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٠).

* وهنا برز جالوت الملك الظالم وهو يلبس دروعه الحديدية ومعه سلاحه وبدأ يطلب منهم أن يُخرجوا له رجلاً يبارزه فخاف كل الجنود الذين كانوا مع طالوت.

* وهنا برز من جيش طالوت غلام صغير كان يرى الغنم اسمه داود (عليه السلام) وكان مؤمناً بالله وكان يعلم يقيناً أن القوة ليست هي قوة السلاح أو الجسد وإنما هي قوة الإيمان واليقين والثقة في الله (جل وعلا).

* وكان طالوت الملك قد وعد أفراد الجيش أن من استطاع منهم أن يقتل جالوت فإنه سيجعله قائداً على الجيش ويزوجه ابنته.

ولم يكن داود يهتم كثيراً لهذا الإغراء، كان يريد أن يقتل جالوت؛ لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله، وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت.

وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعة (وهو نبله يستخدمها الرعاة) وتقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع، وسخر من داود وأهانته وضحك منه ومن فقره وضعفه، ووضع داود حجراً قوياً في مقلاعة وطوح به في الهواء وأطلق الحجر،

فأصاب جالوت فقتله، وكانت مفاجأة مذهلة للجيشين. وبدأت المعركة وانتصر جيش طالوت على جيش جالوت، بعد أن استغفر الجيش كله الله، ودعوه سبحانه وتوسلوا إليه وذلوا له، فنصرهم وقهر عدوهم (١).

وأصبح داود (عليه السلام)

ملكاً لبني إسرائيل

وكما قلنا: إن طالوت كان قد وعد داود (عليه السلام) إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويُشركه في أمره فلما قتل داود جالوت وفَّى له طالوت بما وعده وجعله قائداً على الجيش .. ثم أصبح داود (عليه السلام) بعد ذلك ملكاً على بني إسرائيل فجمع الله له بين الملك والنبوة.

شكره وعبادته لله (جل وعلا)

كان داود (عليه السلام) جميل الخلق والخلق وله قلب طاهر نقي، جمع الله له بين الملك والنبوة.

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٤٤).

قصص الأنبياء للأطفال

وكان الله (عز وجل) قد أنزل عليه كتاباً مقدساً وهو (الزبور) . . وكان كثير الذكر والتسبيح والعبادة والصلاة وكان ورعاً تقياً

كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي^(١)

* وكان (عليه السلام) يقوم الليل ويصوم نصف الدهر كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام حيث قال: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»^(٢)

* وقال عليه السلام: «كان داود أعبد البشر»^(٣)

صاحب الصوت الجميل

وكان داود (عليه السلام) قد أنعم الله عليه بصوت في

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧)

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩)

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٤٩٠) وحسنه العلامة الآلباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٤٥٣)

غاية الحُسْن والجمال فكان إذا قرأ بصوته الجميل في الزبور سمعته الجبال والطيور فتُسبح معه في الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١).

﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (٢).

كان الله تعالى قد وهب داود - عليه الصلاة والسلام - من الصوت الجميل ما لم يُعطه أحدًا بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجع بترجيعه ويردد، ويُسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تحييه وتسبح معه، كلما سبَّح بكرة وعشيًا.

وقال عبد الله بن عامر: أعطى داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحد قط، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى إن الأنهار لتقف.



(١) سورة الأنبياء: الآية: (٧٩).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٠).

خفف الله عليه قراءة القرآن

فكان مع جمال صوته الذى وهبه الله إياه . . كان يقرأ الزبور بسرعة لا تخطر على قلب بشر وذلك لأن الله (عز وجل) خففه عليه .

❖ قال ﷺ: «خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده»^(١) . - والمقصود بالقرآن هنا: الزبور - .

بكاءؤه (عليه السلام)

إنه داود البكاء الأوب الذى ما أكل طعاماً إلا بلله بدموعه، وما شرب قدحاً إلا مزجه بدموعه، . . داود - عليه الصلاة والسلام - الذى كان يقول: أوه . . من عذاب الله، أوه قبل ألا تنفع أوه، يا رب! إني لا أستطيع حرّ شمسك فكيف أستطيع حر نارك؟ يا رب! إني لا أستطيع سماع صوت رحمتك - وهو الرعد- فكيف أستطيع سماع صوت غضبك؟

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٤١٧) .

داود (عليه السلام) .. وصناعة الدروع

وفى ذلك العصر كانت الحروب كثيرة، وكانت الدروع الحديدية التى يصنعها صُنَّاع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حراً يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاتل كما يريد، فقام داود عليه السلام بصناعة نوعية جديدة من الدروع، درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة، وتحمى جسده من السيوف والفؤوس والخناجر، أفضل من الدروع الموجودة أيامها، ... لقد ألان الله لداود الحديد: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

كانت يده تغوص فى الحديد فيقطعه ويشكله فى قطع صغيرة يصلها ببعضها البعض، ليصنعه دروعاً خفيفة غير مرهقة جعلت جيشه ينتصر بفضل الله فى كل المعارك التى خاضها، وكان يصنع الدروع ويبيعها، ليعيش من ثمنها. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٢) (٣).

(١) سورة سبأ: الآيتان: (١٠، ١١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٠).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٤٥).

وكان يستغنى بثمر الدروع التي يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين، فقيل: إنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم، يتصدق بثلاثها ويشتري بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يومياً إلى أن يعمل غيرها (١).

وشددنا ملكه

قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾ (٢).
لقد جعل الله ملكه قوياً بكثرة العدد والعدد وأمدّه بالنصر والتأييد وجعله منصوراً على أعدائه دائماً حتى أن أعداءه كانوا يخافون منه في وقت الحرب بل وفي وقت السلم.
وفوق ذلك فقد أعطاه الله (جل وعلا) الحكمة.
أي: النبوة والكلام الطيب الذي يحض على مكارم الأخلاق والآداب. . وكذلك أتاه فصل الخطاب فكان يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ولذلك كان يقضى بين الناس ويحكم بينهم بالعدل.

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٢٦).

(٢) سورة ص: الآية (٢٠).

* فكان داود (عليه السلام) يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسيحاً لله في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث

لقد كان داود (عليه السلام) يجلس بين الناس فيذكرهم بالله (جل وعلا) ويحل لهم مشاكلهم ويقضى بينهم في الخصومات التي تحدث بينهم.

* وذات يوم كان يجلس في مجلسه وجاءه بعض الناس ليحكم بينهم في خصومة حدثت بينهم.. فتعالوا بنا لنرى كيف قضى فيها نبي الله داود (عليه السلام)، ثم قضى فيها ابنه سليمان (عليه السلام) بحكم آخر فوافق داود على حكمه.

* فتعالوا بنا لنعرف هذه القصة:

أقبلت غنم ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأفسدت الزرع، وأتت عليه، فاحتكم أصحاب المزرعة

إلى دود قائلين: يا نبي الله! إنا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء، فقال داود لأصحاب الغنم: أحق ما يقول هؤلاء؟ قالوا: نعم، فقال لأصحاب المزرعة كم تقدرون ثمناً لزرعكم؟ فذكروا له الثمن فقال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمناً لأغنامكم؟ فقدروه بثمان ما، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم.

ولكن ابنه سليمان كان حاضراً يشهد هذه المحاكمة فابتدر أباه قائلاً: لى رأى فى هذه القضية، وهو أن يدفع أصحاب الغنم أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فيستفيع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوى الزرع، فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم، فرضى الجميع بهذا الحكم، وقال داود: وقفت يا بنى بهذا الحكم، وحكم بما أفتى به سليمان، وهذا ما أشار إليه القرآن: ﴿وداود

وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾ .

وهذه قضية أخرى

وفى يوم من الأيام كان داود (عليه السلام) جالساً فى محرابه يتعبد ويصلى وفجأة فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه، ففزع منهما. فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ (٣) . . وجئنا للتقاضى أمامك ﴿فاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (٤) .

قال أحد الرجلين: لا تخف يا سيدى، بينى وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق.

سأل داود عليه السلام: ما القضية؟

قال الرجل الأول: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ﴾ (٥) .

(١) سورة الأنبياء: الآيةان: (٧٨، ٧٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٣٢٥ ، ٣٢٦) بتصرف.

(٣)، (٤) سورة ص: الآية: (٢٢).

(٥) سورة ص: الآية: (٢٣).

وقال داود عليه السلام بغير أن يسمع رأى الطرف الآخر، وحجته: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ (١) وإن كثيراً من الشركاء يظلم بعضهم بعضاً إلا الذين آمنوا، فحكم بظلم الطرف الآخر دون أن يسمع منه. وفوجئ داود عليه السلام باختفاء الرجلين من أمامه، اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت في الجو، وأدرك داود عليه السلام أن الرجلين ملكان أرسلهما الله إليه ليُعَلِّمَاهُ درساً، فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعاً، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق،... وخرَّ داود راکعاً، وسجد لله، واستغفر ربه. ﴿وَضَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢)(٣).

وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب

وظل داود يستغفر ربه (جل وعلا) حتى غفر الله له وأثنى عليه في قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ

(١) سورة ص: الآية: (٢٤).

(٢) سورة ص: الآية: (٢٤).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٤٧).

وَحُسْن مَّآبٍ ﴿١﴾. وَتِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ الَّتِي نُنَزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ

* ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ (٢) يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول الله: يا داود! مَجْدُنِي اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا، فيقول: وكيف وقد سلبته مني؟ فيقول: إني أردته عليك اليوم. قال: فيرفع داود صوته الجميل ليزداد نعيم أهل الجنان. كما كان أعبد الناس في الدنيا، وكما كان يمجده في الدنيا، فكذا اليوم يمجده على منبر من نور مع نعيم القرب والزلفى.

وَتِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ الَّتِي نُنَزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ
وَفَاة دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَام)

* قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أي رب! .. من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أي رب! .. كم عمره؟ قال: ستون عاماً قال: أي رب! .. زد في عمره قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام

(١)، (٢) سورة ص: الآية: (٢٥).

فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة^(١).

*** وما هي قصة وفاته (عليه السلام):**

*** لقد خرج داود في ذلك اليوم من داره كما كان يخرج في كل يوم، وكان فيه غيرة شديدة، ولذا فإن الأبواب تُقفل بعد خروجه، فلا يدخل على أهله بعد خروجه أحد، فلما خرج في ذلك اليوم أقبلت امرأته تطلع على دارها، وتتفقد أحوالها، فوجدت رجلاً قائماً في وسط الدار، فعجبت من أمره، وكيفية دخوله، مع أن الدار مغلقة أبوابها بإحكام وسألت أهل منزلها وخدمها عن كيفية دخوله الدار، وخشيت من غضب داود إذا رجع فوجد رجلاً في داره.**

فلم يمض وقت طويل حتى جاء داود... والرجل على حاله في الدار غير خائف... وعادة الرجال أن يفرعوا من مقابلة الملوك، ويحذروا من الدخول عليهم في منازلهم.

وسأل داود ذلك الرجل عن نفسه، فوصف نفسه وصفاً

(١) قصص الأنبياء (ص: ٥٤٤).

عرفه به داود، فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا أُمْنَع من الحجاب، فعرفه داود بنعته نفسه، وقال: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه. وأخبرنا نبينا ﷺ أنه لما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِّغَ من تجهيزه طلعت عليه الشمس، فأمر سليمان الطير أن تظله بأجنحتها، فأظلته وأظلت مُشيعيه، فكان لا ينفذ إلى المشيعين شيء من أشعة الشمس، حتى أظلمت الأرض، عند ذلك أمر سليمان الطير أن تقبض أجنحتها، وقد أراهم الرسول ﷺ مُمثلاً بيديه كيف قبضت الطيور بأجنحتها، كما أخبرهم أن الصقور الطويلة الجناح، وهى التى سماها الرسول ﷺ بالمُضْرَحِيَّة، غلبت غيرها فى التظليل على داود فى ذلك اليوم^(١).

(الملك: ١٧٤) .

وقال: يا داود، ما الذى لا يهاب الملوك؟ * * * فقال: لا أهاب الملوك، ولا أُمْنَع من الحجاب، فعرفه داود بنعته نفسه، وقال: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبضت روحه. وأخبرنا نبينا ﷺ أنه لما غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِّغَ من تجهيزه طلعت عليه الشمس، فأمر سليمان الطير أن تظله بأجنحتها، فأظلته وأظلت مُشيعيه، فكان لا ينفذ إلى المشيعين شيء من أشعة الشمس، حتى أظلمت الأرض، عند ذلك أمر سليمان الطير أن تقبض أجنحتها، وقد أراهم الرسول ﷺ مُمثلاً بيديه كيف قبضت الطيور بأجنحتها، كما أخبرهم أن الصقور الطويلة الجناح، وهى التى سماها الرسول ﷺ بالمُضْرَحِيَّة، غلبت غيرها فى التظليل على داود فى ذلك اليوم^(١).

(١) صحيح الفصص النبوى (ص: ١٤١).

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) أن المؤمن إذا وعد وعداً فلا بد أن يفي بعهده.
- (٢) أن الله يصطفى من يشاء من عباده . . فقد رأينا كيف أن الله اصطفى طالوت من بين هؤلاء الناس جميعاً ليكون ملكاً عليهم . . وزاده بسطة في العلم والجسم.
- (٣) أن العبرة في الجهاد ليس بكثرة الجنود ولكن بنوعيتهم فقد يكون العدد كبيراً ولا يثبتوا بل يفروا من أرض الشرف والجهاد . . وقد يكون العدد قليلاً ويثبتوا ولا يفروا . . ولذلك اختبر طالوت جنوده قبل أن يخوض المعركة . . لهذا فارتبطوا بقطعة ماء فمشوا بها فمضى الجميع إلا من بقي معه . . فثبتوا معه . . فلهذا كانوا من المؤمنين.
- (٤) أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد وإنما بقوة الإيمان والعقيدة . . ومن ثم فإن النصر من عند الله وحده (جل وعلا).
- (٥) من عاش على طاعة الله فإن الله يحبه ويلقى محبته في الكون كله . . فقد رأينا كيف كان الكون كله يحب داود (عليه السلام).
- (٦) أن العبد لا بد أن يستعمل نعم الله عليه في كل

ما ينفعه في دينه ودنياه . . وقد رأينا كيف كان داود (عليه السلام) يبذل كل جهده في الصيام والقيام والتسبيح وصناعة الدروع وغير ذلك مما ينفعه في دينه ودنياه .

(٧) أن القاضي لا ينبغي أن يحكم بين اثنين إلا إذا استمع لهما حتى يستطيع أن يحكم بالعدل دون ميل إلى الآخر .

(٨) عليك أن تقبل الحق والنصح من أى إنسان ولو كان أصغر منك سنًا فقد قبل داود حكم سليمان رغم صغر سنه (عليهما السلام) .

(٩) المسلم لا بد أن يكون غيوراً على نسائه كما كان داود (عليه السلام) غيوراً على نسائه .

(١٠) أن الله يكرم العبد الصالح عند موته فقد رأينا كيف ظللت الطير فوق داود (عليه السلام) عند موته حتى لا تؤذيه الشمس .



قصة سليمان (عليه السلام)

وتعالوا بنا لتتعرف على نبي الله سليمان (عليه السلام) قبل أن نبدأ في سرد قصته المباركة.

هو سليمان بن داود من سبط يهوذا بن يعقوب، وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما داود فقد أعطاه الله الزبور كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(١)، وجمع له سبحانه وتعالى بين النبوة والملك، وأعطاه خيرى الدنيا والآخرة، فكان نبياً ملكاً كما كان ولده سليمان عليه السلام.

وقد كان نبي الله سليمان عليه السلام عظيم الحكمة، ولذلك يسميه أهل الكتاب «سليمان الحكيم» ولا يلقبونه بالنبي أصلاً.

قال مجاهد: ملك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان ابن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان، وبختنصر.

(١) سورة الإسراء: الآية: (٥٥).

وورث سليمان داود

(عليهما السلام)

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١).

أى: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال، لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخصه بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» (٢) وفي لفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم.



(١) سورة النمل: الآية: (١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٨).

بعض الأشياء التي سخرها الله لنبيه سليمان (عليه السلام)

لقد طلب سليمان (عليه السلام) من الله (جل و علا) أن يهب له ملكاً لا يكون لأحد من بعده أبداً فاستجاب الله له ووهبه ملكاً لم يعطه لأحد من بعده .
* ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(١).

فها هو (عليه السلام) يسأل الله (عز وجل) ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر وقد أعطاه الله ذلك كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه السلام .

أولاً: معرفة لغة الطيور والحيوانات:

قال تعالى حاكياً عنه أنه قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ ﴾^(٢) يعنى : أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويُعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها .
﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٣) أى : من كل ما يحتاج الملك

(١) سورة ص: الآية: (٣٥).

(٢) سورة النمل: الآية: (١٦).

(٣) سورة النمل: الآية: (١٦).

إليه من العدد والآلات والجنود والجيش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١) أى: من بارئ البريات وخالق الأرض والسماوات.

ثانياً: تسخير الجن لسليمان (عليه السلام):

ومن بين تلك النعم التى أنعم الله بها على نبيه سليمان (عليه السلام) تسخير الجن . . قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ (٣).

أى: منهم ما هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار، يستخرجون ما فيها من

(١) سورة النمل: الآية: (١٦).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٢).

(٣) سورة ص: الآية: (٣٧).

اللائي والجواهر والأشياء النفيسة، التي لا توجد إلا فيها. ﴿وآخرين مقرئين في الأصْفَادِ﴾^(١) أى: موثوقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

*** وقال تعالى:** ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(٢)

أى: سخر له الجن فدانوا له يسخرهم بإذن الله لما يشاء من عمل البنايات. هذا يعني أن الجن يعملون بغير علم من ربهم والجن ولد إبليس، كما أن الإنسان من ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾^(٣) أى: ومن

يعدل من الجن عن أمرنا له ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤) وهو الحريق. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ

(١) سورة ص: الآية: (٣٨).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٢).

(٣)، (٤) سورة سبأ: الآية: (١٢).

مُحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ^(١) أما المحارب فهو المساجد وأما التماثيل فهي الصور وكانت من نحاس وقيل: من طين وزجاج.

وقوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾^(٢)

الجواب هي الأحواض، والقُدور الراسيات أي: الثابتات لا تتحرك لعظمها^(٣).

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(٤) أي: وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكرًا له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ﴾^(٥) أي: وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه^(٦).

ثالثًا: تسخير الريح لسليمان (عليه السلام):

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

لما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له

(١)، (٢) سورة سبأ: الآية: (١٣).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٥٢٧/٣).

(٤)، (٥) سورة سبأ: الآية: (١٣).

(٦) الفرطبي (٢٧٧ / ١٤).

الريح، يسير على متنها حيث أراد^(١).

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا...﴾^(٢)

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَرَوْاحَهَا شَهْرًا...﴾^(٣)

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٤) أي: حيث أراد من أي البلاد، كان له بساط مُرَكَّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح

(١) روضة المحبين (ص: ٤٤٣).

(٢) سورة الانبياء: الآية: (٨١).

(٣) سورة سبا: الآية: (١٢).

(٤) سورة ص: الآية: (٣٦).

فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإذا أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعه في أى مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس^(١).

رابعاً: إسالة النحاس لسليمان (عليه السلام):

ومن بين النعم التي أنعم الله (عز وجل) بها على نبيه سليمان (عليه السلام) تلك النعمة التي ذكرها في قوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾^(٢).

أى: وأذننا له النحاس حتى كان يجرى كأنه عين ماء متدفقة من الأرض.

قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، . . . آية باهرة، ومعجزة ظاهرة.

خامساً: إعطاء جيشاً من الجن والإنس والطير:

لقد أخبر الحق (جل وعلا) عن الملك العظيم الذى وهبه

(١) قصص الأنبياء (ص: ٤٦٢).

(٢) سورة ميثا: الآية: (١٢).

لنبيه الكريم سليمان (عليه السلام) فقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(١).

أى: جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له فى مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان فى أبهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: فهم يكفون ويمنعون عن التقدم بين يديه^(٢).

سادساً: آتاه الله العلم والحكمة:

فلقد آتاه الله العلم والحكمة فكان فى غاية الفطنة والذكاء. وما هى قصة عجيبة تدل على فطنة وذكاء نبي الله سليمان (عليه السلام).

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتا، فقال:

(١) سورة النمل: الآية: (١٧).

(٢) الطبرى (١٩ / ٨٨).

اثنوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل برحمتك الله، هو ابنها، ففضى به للصغرى^(١).

* وقعت هذه القصة في عهد نبي الله داود عليه السلام، فقد تحاكت إليه امرأتان، ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا في الولد الآخر، كل واحدة تدعى أنه ولدها، فاجتهد نبي الله داود في الحكم بينهما، فأداه اجتهداه بالحكم به للكبرى بدلائل استدل بها على ذلك.

فلما خرجتا على نبي الله سليمان رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطى كل واحدة منهما نصفًا، وبذا يعدل بينهما في الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان جاد وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا ظهر رد فعل كل واحدة منهما، فالأم الحقيقية، وهي الصغرى جزعت من الحكم؛ لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للآخرى، لأن في ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته، أما الأخرى التي لا تربطها

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٢٧) أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٢٠) الأفضية.

بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذي أظهره سليمان، فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، على الرغم من إقرارها به للآخرى.

مروره على وادى النمل

وها هو (عليه السلام) يمر على وادى النمل ومعه هذا الموكب العظيم من الجن والإنس والطيور.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨).

لقد سار الموكب. موكب سليمان من الجن والإنس والطيور فى ترتيب ونظام، يجمع آخره على أوله، تضم صفوفه، وتتلاءم خطاه. حتى إذا أتوا على وادٍ كثير النمل، قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى

(١) سورة النمل: الآية: (١٨).

(٢) واذكر هنا قصة لطيفة وهى أنه: اعترض رجل الخليفة المأمون العباسى واستوقفه ليعرض عليه مسأله، فلم يقف له، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! إن الله استوقف سليمان بن داود عليهما السلام لنملة ليستمع إليهما، وما أنا عند الله بأحق من النملة وما أنت عند الله بأعظم من سليمان، فقال له المأمون: صدقت، ووقف، وسمع منه، وقضى حاجته.

الوادي - ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تنوع فيها الوظائف، وتؤدي كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راقٍ وإدراك عالٍ - قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التي تفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها. قالت للنمل: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ (١) كي ﴿لَا يَحْطَمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) بكم. فأدرك سليمان ما قالت النملة وهشَّ له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، وبمضمون ما قالت.

وانشرح صدره لإدراكه. فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك. وأن يفهم عنها النمل فيطيع! أدرك سليمان هذا ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (٣) ..

وسرعان ما هزته هذه المشاهدة، وردَّت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة، وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه؛ واتجه إلى ربه في

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (١٨).

(٣) سورة النمل: الآية: (١٩).

إنابة يتوسل إليه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ (١).

﴿رَبِّ﴾ .. بهذا النداء القريب المباشر المتصل ..
﴿أَوْزِعْنِي﴾ اجمعني كلِّي .. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وقلبي وخواطري وكلماتي وعباراتي، وأعمالی وتوجهاتي اجمعني كلِّي .. اجمع طاقاتي كلها أولها على آخرها وآخرها على أولها لتكون كلها في شكر نعمتك على وعلى والدي.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ (٢) .. فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويوفقه على شكر نعمته، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه. وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله.

﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣) .. أدخلني برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح،

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (١٩).

فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل^(١) .

قصة سليمان (عليه السلام) مع الهدهد

وفى يوم من الأيام أراد سليمان (عليه السلام) أن يتفقد أحوال الجيش وإذا به يفاجأ بغياب الهدهد . . وقد كان سليمان (عليه السلام) يستخدم الهدهد فى البحث عن الماء فقد أودع الله فى الهدهد قوة وقدرة عجيبة وهى أنه يستطيع أن يرى الماء الذى يوجد تحت الأرض بمسافات كبيرة فإذا رآها أمر سليمان جنوده من الشياطين فحفروا فى نفس المكان حتى يستخرجوا الماء الذى يحتاجون إليه . لكن الهدهد فى هذا اليوم بالذات لم يجده سليمان (عليه السلام) فى مكانه الذى أمره أن يبقى فيه ﴿وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾^(٢) . وغضب سليمان (عليه السلام) غضباً شديداً ، فقال :

(١) الظلال (٥ / ٢٦٣٦) .

(٢) سورة النمل : الآية : (٢٠) .

﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾^(١).

ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضى في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) أى: حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذه عنه. ويسدل الستار على هذا المشهد الأول في القصة ويحضر الهدهد . . . ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان^(٣).

وجاء الهدهد من سبأ نبياً عجيب

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٤) أى: غاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها وكان الهدهد فى قمة الذكاء ولذلك فإنه لما عاد وعلم أن سليمان (عليه السلام) قد غضب عليه فأراد أن يبدأ حديثه معه بمفاجأة تغطي على موضوع غيبته وتضمن إصغاء الملك له فقال له:

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٢١).

(٣) الظلال (٥ / ٢٦٣٨).

(٤) سورة النمل: الآية: (٢٢).

﴿ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾^(١) .

﴿ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾^(٢) أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾^(٣) أى : بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن . . . ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾^(٤) وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وكانت بارض يقال لها: مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل . . . والله أعلم .

﴿ وَأَوْتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٥) أى : ما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾^(٦) هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللالى تجلس عليه، ولها ستمائة امرأة تلى الخدمة .
* ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٧) .

أى : وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾^(٨) أى :

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل : الآية : (٢٢) .

(٤) سورة النمل : الآية : (٢٢) .

(٥)، (٦) سورة النمل : الآية : (٢٣) .

(٧)، (٨) سورة النمل : الآية : (٢٤) .

حَسَنَ لَهُمْ إِبْلِيسُ عِبَادَتَهُمُ الشَّمْسُ وَسَجُودُهُمْ لَهَا فَن دُونِ
 اللّهِ ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾^(١) أَى: فَنَعَهُمْ بِسَبَبِ هَذَا
 الضَّلَالِ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(٢)
 أَى: فَهُمْ بِسَبَبِ إِغْوَاءِ الشَّيْطَانِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى اللّهِ
 وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ قَالَ الْهَدَّهِدُ فَتَعَجَّبًا: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِي
 يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) أَى: أَيْسَجِدُونَ
 لِلشَّمْسِ وَلَا يَسْجُدُونَ لِلّهِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، الَّذِي يَعْلَمُ
 الْخَفَايَا وَيَعْلَمُ كُلَّ فُخْبٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ؟
 ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾^(٤) أَى: وَيَعْلَمُ السِّرَّ
 وَالْعَلَنَ، مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ



الْعَظِيمِ﴾^(٥) أَى: وَهُوَ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ
 بِالْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، رَبُّ الْعَرْشِ
 الْكَرِيمِ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالسَّجُودِ،
 وَخَصَّ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٢٤).

(٣) سورة النمل: الآية: (٢٥).

(٤) سورة النمل: الآية: (٢٥).

(٥) سورة النمل: الآية: (٢٦).

المخلوقات، ... وإلى هنا انتهى كلام الهدهد (١).
ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه، ولا
يستخفه النبا العظيم الذي جاءه به.
إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته. شأن النبي
العاقل والملك الحازم: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا
يرجعون (٢).

ولا يعلن في هذا الموقف محتوى الكتاب، فيظل ما
فيه مغلقاً كالكتاب نفسه، حتى يُفتح ويُعلن هناك وتُعرض
المفاجأة في موعدها المناسب!



ويُسدل الستار على هذا المشهد ليُرفع
فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب،
وهي تستشير الملأ من قومها في هذا
الأمر الخطير (٣).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٤٠٧).

(٢) سورة النمل: الأيتان: (٢٧، ٢٨).

(٣) الظلال (٥/ ٢٦٣٩) يتصرف.

الهدد يذهب بكتاب سليمان (عليه السلام)

فحمل الهدد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألقاه بقصرها في «مأرب» فطرح الكتاب أمامها، فتلقفته وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (١).

أى: لا تستكبروا عن طاعتي وامتنثال أوامري ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أى: وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة.

لقد حمل الهدد الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ثم توقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن الكتاب (٢).

بلقيس تستشير وزراءها وأكابر دولتها

لما وصل كتاب سليمان (عليه السلام) إلى بلقيس ملكة سبأ قررت بلقيس عقد جلسة طارئة مع وزرائها وأكابر

(١) سورة النمل: الآيتان: (٣٠ ، ٣١).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٣).

دولتها لترى رأيهم في هذا الكتاب وماذا تصنع .
 جلست بلقيس على عرشها المزخرف بالذهب والجواهر
 واللائي وجلس حولها أكابر قومها وفتحت لهم كتاب
 سليمان (عليه السلام) وهي في غاية الخوف والاضطراب
 وقرأت عليهم مضمون الكتاب .
 ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ
 سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي
 مُسْلِمِينَ﴾ (١) .

هذا هو نص خطاب الملك سليمان عليه السلام لملكة سبأ .
 إنه يأمرها في خطابه أن تأتيه ومن معها مسلمين ،
 هكذا مباشرة ، إنه يتجاوز أمر عبادتهم للشمس ، ولا
 يناقشهم في فساد عقيدتهم ، ولا يحاول إقناعهم بشيء
 الآن ، إنما يأمر فحسب ، أليس مؤيداً بقوة تسند الحق الذي
 يؤمن به؟ بلى . عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم . . وفوراً .
 كان هذا كله واضحاً من لهجة الخطاب القصيرة القوية
 المهذبة في نفس الوقت . .

(١) سورة النمل : الآيات : (٢٩ - ٣١) .

طرحَت الملكة على رؤساء قومها الرسالة، وكانت عاقلة تشاورهم في جميع الأمور: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ﴾ (١).

كان رد فعل الملأ وهم رؤساء قومها التحدى، أثارت الرسالة بلهجتها القوية المهذبة غرور القوم، وإحساسهم بالقوة، أدركوا أن هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْرِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٢).

اغتروا بقوتهم وظنوا أن الأمر تحدُّ للقوة والاستطاعة، وظنوا أن هذا ما تسألهم عنه؛ فطمأنوها أن بأسهم شديد. أراد رؤساء قومها أن يقولوا: نحن على استعداد للحرب،... ومن العجب أن تجد المرأة تستشيرهم، ولكنك تجد من تعود الخضوع والخنوع والذل والمهانة لا يستطيع أن يحكم رأيه، فإنهم في النهاية يقولون: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ (٣).

(١) سورة النمل: الآية: (٣٢).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٣).

﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(١)، إنه والله العجب من هؤلاء الذين رُؤِضُوا على الذل فلم يعودوا يأنفون منه بل يطلبونه .

ويبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها، فإن رسالة سليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استغفرتها للحرب .

فكرت الملكة طويلاً في رسالة سليمان عليه السلام، كان اسمه مجهولاً لديها، لم تسمع به من قبل، وبالتالي كانت تجهل كل شيء عن قوته، ربما يكون قريباً إلى الحد الذي يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتها .

ونظرت الملكة حولها فرأت ضعف من حولها حتى آثروا الذل: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾^(٢) ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(٣)، ورأت كذلك تقدم شعبها وثرائه، وخشيت على هذا الثراء والتقدم والترف الذي تعيش ويعيشون فيه من الغزو، ورجّحت الحكمة في نفسها على التهور، وقررت أن تلجأ إلى اللين، وترسل إليه بهدية، فإن قَبِلَ الهدية فهو ملك يريد ثروات الدنيا، وكأنها كانت تريد أن تمتحن سليمان وتعرف مراده .

وقدرت في نفسها أنه ربما يكون طامعاً قد سمع عن

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٣) .

ثراء المملكة فطمع فيها، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشتري السلام منه بهدية،... قدرت في نفسها أيضاً أن إرسالها بهدية إليه، سيمكّن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته، وسيكون رسلها عيوناً في مملكته، يرجعون بأخبار قومه وجيشه، وفي ضوء هذه المعلومات، سيكون تقدير موقفها الحقيقي منه ممكناً.

أخفت الملكة ما يدور في نفسها، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى استكشاف نيات الملك سليمان، عن طريق إرسال هدية إليه، انتصرت الملكة للرأى الذى يقضى بالانتظار والترقب، وأقنعت رؤساء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتاً؛ لأن الملوك إذا دخلوا قرية انقلب أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضاً للهوان والذل.

واقنعت رؤساء قومها حين لوحّت الملكة بما يتهددهم من أخطار: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾.

(١) سورة النمل: الآية: (٣٤ ، ٣٥).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٥٥ ، ٢٥٦).

وصول رسل بلقيس

بهدية سليمان (عليه السلام)

وأرسلت بلقيس رسلها بهدية قيمة إلى سليمان (عليه السلام) وجاءت الأخبار إلى سليمان (عليه السلام) بأن بلقيس قد أرسلت إليه رسلها بهدية قيمة فعلم سليمان (عليه السلام) بذكائه وفطنته أن هذه الملكة أرسلت رجالها ليعرفوا مدى قوته وقوة جيشه الذي معه لينقلوا تلك الأخبار إلى بلقيس فتقرر بعدها موقفها بشأنه إذا كانت ستأتى مسلمة أم أنها ستحاربه . وهكذا لا يستطيع إنسان مهما بلغت درجة ذكائه أن يغلب نبياً من الأنبياء فهم جميعاً أصحاب فطنة وذكاء ومعهم فوق ذلك الوحي الإلهي .

* وعلى الفور نادى سليمان (عليه السلام) على أفراد الجيش ليجتمع ويحتشد فيكون سبباً في إلقاء الرعب في قلوبهم .

* ودخل رسل بلقيس ومعهم الهدية القيمة وسط غابة كثيفة من الجيش المدجج بالسلاح . . ونظروا إلى مملكة سليمان (عليه السلام) فعلموا أن ملك بلقيس لا يساوى شيئاً أمام ملك

سليمان (عليه السلام) حتى إنهم لما رأوا ذلك احتقروا هدية بلقيس وفكروا أن يرجعوا بها مرة أخرى مع أنها هدية ثمينة. * بل فوجئوا بأن في الجيش نموراً وأسوداً وطيوراً وأدركوا أنهم أمام جيش لا يستطيع أى جيش أن يقف أو يصمد أمامه.

* وفى تلك اللحظة قاموا وقدموا لسليمان (عليه السلام) هدية الملكة بلقيس على استحياء شديد. * ثم أخبروه بأنهم يرفضون الخضوع له والدخول فى الإسلام ولكنهم أيضاً لا يريدون القتال . . وأن هذه الهدية علامة صلح بينهم وأنهم يودون أن يقبلها.

* فنظر سليمان (عليه السلام) إلى هذه الهدية بغضب وقال: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (١).

﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ (٢) أتقدمون لى هذا العرض التافه الرخيص؟ ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ (٣) لقد آتانى من المال خيراً مما لديكم ولقد آتانى ما هو خير من المال على

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٦).

الإطلاق: العلم والنبوة، وتسخير الجن والطير، فما عاد شيء من عرض الأرض يُفرحني ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾^(١) وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعنى أهل الأرض، الذين لا يتصلون بالله، ولا يتلقون هداياه! **ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد:** ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾^(٢) بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا﴾^{(٣)(٤)}. **أى:** فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٥) عليهم الصغار والعار والدمار. **ويُسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قُضى الأمر وانتهى الكلام في هذا الشأن.**

(١) سورة النمل: الآية: (٣٦).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٧).

(٤) الظلال (٥) / (٢٦٤٠).

(٥) سورة النمل: الآية: (٣٧).

احضار عرش بلقيس

فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرتة شيئاً... وبعثت إليه: إني قادمة إليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب ولؤلؤ وزبرجد فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض وأوصت بحفظه ثم ذهبت إلى سليمان في اثني عشر ألفاً - قيل: من ملوك اليمن - وكانت الجن تأتي لسليمان بأخبار بلقيس كل يوم وليلة حتى إذا قربت جمع من عنده من الجن والإنس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(١) فكره أن يأخذه بعد إسلامهم قبل أن تحرم عليه دماؤهم وأموالهم ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾^(٢) أى: مارء منهم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾^(٣) أى: من مجلسك أى من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ

(١) سورة النمل: الآية: (٣٨).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٩).

لَقَوَى أُمِينَ ﴿١﴾ أى: قوى على حملة أمين على ما فيه من الجواهر فأراد سليمان أعجل من ذلك إظهاراً لعظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذى لم يعط أحد من قبله ولا يكون لأحد من بعد، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن الإتيان بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه أمر خارق عظيم لاسيما وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿٢﴾ وهو آصف كاتب سليمان وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ﴿٣﴾ فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٤﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ ﴿٥﴾ أى: فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده فى هذه المدة القريية من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفه عين ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ﴿٦﴾ أى: هذا من فضل الله على وفضله على عباده

(١) سورة النمل: الآية: (٣٩).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٥)، (٦) سورة النمل: الآية: (٤٠).

- ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (١)
 أى: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢)
 أى: غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين (٣).

من تواضع لله رفعه الله (جل وعلا)

لقد كانت المسافة بين مجلس سليمان (عليه السلام) في فلسطين وبين عرش ملكة سبأ في اليمن تُقدر بآلاف الأميال ومع ذلك جيء بالعرش في غمضة عين .. فيا ترى كيف كان رد فعل نبي الله سليمان (عليه السلام).
 إنه لم يفرح بقدرته ولم يشمخ بهذا الإنجاز الكبير وإنما تواضع لربه (جل وعلا) ونسب الفضل إليه (جل جلاله) وشكره على تلك النعمة العظيمة.
 ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤).

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦).

(٤) سورة النمل: الآية: (٤٠).

مفاجأة ضخمة لبليقيس

نظر سليمان (عليه السلام) إلى عرش بليقيس ثم أمر بتغيير بعض معالمه وإجراء بعض التعديلات عليه ليتمكن بليقيس حين تأتي ويرى هل ستعرف عرشها أم أنها لن تستطيع أن تعرفه بعد إجراء تلك التعديلات.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ (١).

وقفت بليقيس تنظر وتتأمل عرشها بعد إجراء هذه التعديلات عليه وهي مترددة في أن تقول هو عرشها أو تقول: ليس هو عرشها.

فكانت في غاية الذكاء فردت ردًا ذكيًا ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ (٢). وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها تركته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلُهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٣) وصدّها ما كانت تعبّد من دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤) أي: ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٤٢).

(٣) سورة النمل: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا
لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك^(١).

وها هي تعلن إسلامها لرب العالمين

وأمر سليمان جنوده أن يبنوا قصرًا رائعًا يبهر الأبصار
ويذهب العقول لتعرف بلقيس أن ملكها لا يساوى أى
شئ أمام ملك سليمان المؤيد من الله (جل وعلا).

اختار سليمان (عليه السلام) مكانًا رائعًا على البحر
وأمر جنوده ببناء القصر فى هذا المكان بحيث يقع معظم
القصر داخل مياه البحر.

وأمر أن تكون أرضية القصر من الزجاج الصلب
الشفاف بحيث يسير السائر فوقه فيرى الأسماك ودواب
البحر تسير وتسبح تحت قدميه.

* وتم بناء القصر بإتقان عجيب حتى أن السائر فوق
الزجاج لم يعرف أنه زجاج.

* فلما جاءت بلقيس أمرت بدخول الصرح وسليمان

(١) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦) بتصرف.

جالس على سريريه فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) (٢).

* لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء. وظهر كأنه لُجة - ماء كثير - فلما قيل لها: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة، فكشفت عن ساقها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها: ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ !
أى: قصر مُملَّس من زجاج شفاف.

ووقفت الملكة مذهوثة أمام هذه العجائب التي تُعجز البشر، وتدل على أن سليمان مُسخرٌ له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره. معلنة إسلامها ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ (٣) لا لسليمان. ولكن ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤).

لقد اهتدى قلبها واستنار. فعرفت أن الإسلام لله ليس

(١) سورة النمل: الآية: (٤٤).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦).

(٣)، (٤) سورة النمل: الآية: (٤٤).

استسلامًا لأحد من خلقه، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين. ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة... ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله، لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله رب العالمين... على قدم المساواة (٢).

✽ لقد وقفت منبهرة أمام أرضية القصر البلورية الشفافة التي تسبح تحتها الأسماك، اعترفت بلقيس بظلمها لنفسها وأسلمت ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)، وتابعها قومها على الإسلام.

أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض، وأحد أنبياء الله الكرام، وهكذا قادها الانبهار إلى تحطيم الغرور والاستسلام لله رب العالمين.

(١) سورة النمل: الآية: (٤٤).

(٢) الظلال (٥/ ٢٦٤٣).

(٣) سورة النمل: الآية: (٤٤).

قصة سليمان (عليه السلام) مع الخيل

كان سليمان (عليه السلام) يحب الصلاة حباً جماً . .
ولا عجب في ذلك فكل الأنبياء كانوا يحبون الصلاة حتى
إن نبينا ﷺ كان يقول: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).
وكان سليمان (عليه السلام) يحب الخيل كثيراً وكان
يُعدها للجهاد في سبيل الله وكان يحب من الخيل
(الصافنات) وهي: التي تقف على ثلاث قوائم وطرف
حافر الرابعة وهي من علامات خفته وكريم أصله وهي
من أجود أنواع الخيول وأسرعها.

* وفي يوم من الأيام بدأ استعراض هذه الخيول
الجميلة أمام سليمان (عليه السلام) وكان ذلك قرب وقت
العصر فأخذ ينظر إليها ويستمتع برؤيتها وهي تمشي أمامه
في خفة ورشاقة حتى شغله النظر إلى الخيول عن صلاة
العصر فحزن سليمان (عليه السلام) حزناً شديداً على
فوات وقت صلاة العصر مع أنه لم يتعمد تركها بل تركها
نسياناً منه (عليه السلام).

(١) حسن: رواه النسائي (٣٩٤٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في
المشكاة (٥٢٦١).



فأمر الجنود بأن يردوا
إليه الخيول مرة أخرى
وقال: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ
مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ﴾ (١).

* **قالوا:** إنه أخذ
يمسح عليها ويستغفر الله

(جل وعلا) على فوات وقت صلاة العصر.

* **وقال آخرون:** إنه ذبحها كلها، وقال: والله لا
تشغليني أبداً عن عبادة ربي..

* **فإن تعجبت يا بُنى لماذا ذبحها؟! أقول لك:** إنه كان
جائزاً في شريعة سليمان (عليه السلام) ذبح الخيل
وأكلها.. وهو هنا ذبحها تقرباً إلى الله (عز وجل) لأنها
شغلته عن صلاة العصر ولذلك لما فعل ذلك أبدله الله
خيراً منها فسخر له الريح عاصفة تجرى بأمره إلى أى
مكان يريد.

(١) سورة ص: الآية: (٣٣).

نبي الله سليمان يرزق بنصف إنسان

ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة . . سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري، وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت له نصف إنسان» فقال رسول الله ﷺ: «لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل».

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته»^(١). وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(٢).

(١) دركاً لحاجته: دركاً أي: لحاقاً، أي: كان سبب إدراكه لها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٢٠)، ومسلم (١٦٥٤).

وهذا هو تفسير

فتنة سليمان (عليه السلام)

قال الإمام الشنقيطي - رحمه الله - تعليقاً على هذا الحديث:

فإذا علمت هذا، فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بين معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً...﴾^(١).

وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: «إن شاء الله»
وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة (نصف إنسان) وأن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي ألقى على كرسيه بعد موته... وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً...﴾^(٢) الآية، فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾^(٣) الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسى سليمان، وطرده سليمان من ملكه، حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه، إلى آخر القصة، لا يخفى أنه باطل لا

(١)، (٢)، (٣) سورة ص: الآية: (٣٤).

أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهو من الإسرائيليات.

سليمان (عليه السلام) ..

وتجديد بيت المقدس

ولقد قام سليمان (عليه السلام) بتجديد بناء بيت المقدس امتثالاً لأمر الله (عز وجل) .. وكان ذلك بعد توليه الملك بأربع سنوات وأنفق في سبيل ذلك أموالاً كثيرة وانتهى من بنائه بعد سبع سنين وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أي: مدينة القدس.

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلافاً ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة سأل حكمة يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها»^(١).

(١) صحيح: رواه النسائي (٦٩٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٠٩٠).

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١).

وقد سبق أن ذكرنا تلك القصة في ثنايا قصة داود (عليه السلام).

* وأما الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده فلقد سخر الله له الريح والجن وعلمه منطق الطير.

وحان وقت الرحيل

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (٢).

لقد عاش سليمان (عليه السلام) حياة كريمة فكان مثلاً رائعاً للعباد الشاكر والحاكم العادل والنبي المجاهد. إنه قمة تتجلى في صورة نبي كريم من أنبياء الله (جل وعلا).

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: (٧٨ ، ٧٩).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٤).

* ولكن لا بد لكل بداية من نهاية فقد حانت اللحظة التي سيخرج فيها سليمان (عليه السلام) من الدنيا ليلقى ربه (عز وجل) ويلحق بالأنبياء والمرسلين في جنات النعيم.

* لقد جاء موته منسجماً مع حياته الفريدة فكان موته فريداً كحياته.

فلقد كان الجن يعملون لسليمان (عليه السلام) طوال حياته . . . وفي يوم من الأيام أمرهم بعملٍ شاقٍ وكان واقفاً متكئاً على عصاه ومات وهو متكئ على تلك العصا ولم يعلم الجن بموته فظلوا سنة كاملة يعملون أمامه لا يفترون لأنه مات وهو ينظر إليهم فلما رآه الجن ظنوا أنه يصلى واستمروا في عملهم تلك الفترة الطويلة.

فلما جاءت دابة الأرض (الأرصة) وأكلت العصا سقط سليمان (عليه السلام) على الأرض بعدما اختل توازنه فأسرع الناس إليه وأسرع الجن إليه وعند ذلك أدركوا أنه قد مات منذ زمن بعيد ولو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان (عليه السلام) حي.

فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون عليهم

ولو أنهم يطلعون على الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (١).

* الدروس المستفادة من القصة:

- (١) أن صلاح الآباء يرثه الأبناء فقد ورث سليمان من أبيه داود (عليهما السلام) العلم والحكمة والفهم والدين.
- (٢) أن العبد إذا أنعم الله عليه بنعمة فلا بد أن يستعملها في طاعة الله وأن يشكر الله عليها . . فأهل الشكر في مزيد.
- (٣) أن العبد المسلم إذا دعا لنفسه فلا بد أن يحرص كل الحرص على الدعاء لوالديه . . وذلك من كمال البر بالوالدين.
- (٤) أن المسلم لا بد أن يتحرك لنصرة دين الله ولدعوة الناس إلى الله (جل وعلا) فهذا هو الهدهد تحرك لنصرة دين الله فهل أنت أقل مكانة من الهدهد.
- (٥) أن المسلم لا يعاقب أحداً إلا بعد أن يسمع عذره فلعلة يكون معذوراً فلا ينبغي أن يظلمه . . ولقد رأينا

(١) سورة سبا: الآية: (١٤).

كيف أن سليمان (عليه السلام) لم يعاقب الهدهد على غيابه وانتظر حتى يسمع منه فلما استمع إليه عذره. (٢٦) أن الأنبياء لا يعلمون الغيب على الإطلاق وإنما يعرفون بعض الغيبات التي يُطلعهم الله عليها. فعلى الرغم من أن المسافة التي كانت بين سليمان (عليه السلام) وبلقيس ملكة سبأ (قصيرة) ومع ذلك لم يعلم بخبرها وخبر قومها إلا من الهدهد. مع أن الله سخر له الجن والريح. فهذا دليل واضح على أن الأنبياء - عليهم السلام - لا يعلمون الغيب فكيف يزعم أناس أن الولي الفلاني يعلم الغيب؟! - والله وحده هو الذي يعلم أوليائه - . فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً (٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً (٢٨)، بل قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (٢٩).

(١) سورة الجن: الآيات: (٢٦ - ٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٧) أنه لا بد من دعوة الأمم الكافرة قبل محاربتها ولذلك أرسل سليمان (عليه السلام) كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ ليدعوها هي وقومها إلى الإسلام ولم يذهب بجيشه لمحاربتها لأن الأصل هو الدعوة وليس الحرب.

(٨) أن الشورى بين الناس تجعل الرأي صائباً سديداً وهذا من بركة الألفة والتعاون على البر والتقوى . . وقد أمر الله (جل وعلا) سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ فقال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (١).

(٩) أنه قد يوجد في النساء امرأة أعقل وأفضل من كثير من الرجال . . ولقد رأينا كيف كانت بلقيس امرأة عاقلة بل كانت أعقل من وزرائها وأكابر قومها الذين كانوا يظنون أن الحل في المواجهة والقتال.

(١٠) أن الملوك - في الغالب - إذا تمكنوا من بلد أفسدوا فيها وجعلوا ملوكها أذل الناس.

(١١) أن المسلم لا يتاجر بدينه ولا يقبل الرشوة أبداً . . فقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) رفض

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

هدية بلقيس لأنها كانت في مقابل السكوت على المنكر الأكبر الذي ترتكبه هي وقومها وهو عبادتهم للشمس من دون الله (جل وعلا).

(١٢) أن الله أعطى الجن قدرات فائقة في سرعة الانتقال والتشكل في صور مختلفة لكنهم مع ذلك لا يعلمون الغيب ولا يملكون لإنسان نفعاً ولا ضرراً.

(١٣) أن المسلم إذا حدث له أمر يحبه فلا بد أن ينسب الفضل لله (جل وعلا) ولا يغتر أو يصيبه شيء من الكبر والغرور. . فقد رأينا سليمان (عليه السلام) لما جيء له بالعرش ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾^(١).

(١٤) أن هدف المسلم هو تعبيد الناس لرب الناس ولذلك لما أسلمت بلقيس وقومها فرح بذلك سليمان (عليه السلام).

(١٥) أن المسلم يحزن إذا شغله أى شيء عن طاعة الله (جل وعلا) . . ولقد رأينا كيف حزن سليمان (عليه السلام) عندما شغلته الخيل عن صلاة العصر.

(١) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(١٦) أن المسلم إذا أراد أن يفعل شيئاً فلا بد أن يقدم مشيئة الله (جل وعلا) . . فلقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) لما قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن ولد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله . . فلم تلد منهن إلا امرأة ولدت له نصف إنسان .

(١٧) أن الجن لا يعلمون الغيب . . فقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) قد مات أمام الجن ولم يعلموا بموته إلا بعد سنة عندما أكلت الأرضة عصاه فسقط أمامهم ميتاً (عليه السلام).

وإذا كان الله تعالى لا يعلم الغيب، فكيف يمكن للإنسان أن يعلم الغيب؟
* * * * *

فإذا كان الله تعالى لا يعلم الغيب، فكيف يمكن للإنسان أن يعلم الغيب؟
* * * * *

وإذا كان الله تعالى لا يعلم الغيب، فكيف يمكن للإنسان أن يعلم الغيب؟

قصة إيلياس (عليه السلام)

كان ياما كان ..
 كان هناك نبي كريم من أنبياء الله (جل وعلا) اسمه
 إيلياس وهو أحد أنبياء بني إسرائيل . . وهو إيلياس بن
 ياسين من نسل هارون أخى موسى (عليهما السلام).
 * أرسله الله نبياً إلى أهل مدينة تُسمى (بعلبك) غربى
 دمشق وكان أهل هذه المدينة يعبدون من دون الله صنماً
 اسمه (بعل).
 * فأخذ إيلياس (عليه السلام) يدعوهم إلى التوحيد
 مستنكراً عبادتهم لهذا الصنم الذى يُسمى (بعل).
قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
 أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١)﴾.
 كيف تعبدون هذا الصنم الذى لا ينفع ولا يضر ولا يسمع
 ولا يبصر ولا يتكلم ولا يسمع الدعاء ولا يستجيب لكم
 وتركون الخالق العظيم (جل وعلا) الذى خلقكم ورزقكم.

(١) سورة الصافات: الآيات: (١٢٣ - ١٢٥).

* دعاهم إلى التوحيد وإلى عبادة الخالق (جل وعلا) فكذبوه ورفضوا نعمة التوحيد وأصروا على كفرهم وعنادهم.

* ثم أخذ يذكرهم مرة أخرى بأنه لا يدعوهم إلى دين غريب بل إنه يدعوهم إلى الدين الذي كان عليه آبائهم وأجدادهم وهو الإيمان والتوحيد فقال لهم: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١).

ولكنهم أصروا أيضاً على كفرهم وعنادهم ورفضوا أن يتركوا عبادة الأصنام.

* وعندما رأوا إصرار سيدنا إلياس (عليه السلام) على الدعوة إلى الله عز وجل حاولوا أن يقتلوه، فهرب منهم واختفى في كهف بالجبل، ويقال: إن الغريبان كانت تحمل إليه طعامه حتى لا يموت جوعاً.

* فلما أصر قوم إلياس على كفرهم وعنادهم توعدّهم الله بالعذاب في الدنيا والآخرة فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (٢).

(١) سورة الصافات: الآية: (١٢٦).

(٢) سورة الصافات: الآية: (١٢٧).

ولكن الله استثنى منهم من آمن مع إلياس فقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).
ومدح الله نبيه إلياس عليه السلام في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

لقد أعد الله سبحانه وتعالى له ثوابًا في الدنيا وهو أن الناس ستذكره دائمًا بالخير وهم يقرؤون القرآن، أما في الآخرة فهو في أعلى مكانة مع الرسل والأنبياء.

(١) سورة الصافات: الآية (١٢٨).

(٢) سورة الصافات: الآيات (١٢٩ - ١٣٢).

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) أن المؤمن مشغول بدعوة الناس إلى عبادة رب العالمين (جل وعلا) ولذا فإنه يغار إذا وجد إنساناً يعبد غير الله . . ولذلك فإنه يسرع إلى دعوته لعبادة الله وتوحيده وترك ما يعبد من دون الله من تلك الآلهة المزعومة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.
- (٢) أن أعداء الدين يحاولون إيذاء الدعاة المخلصين . . كما حاول قوم إلياس أن يقتلوه لما دعاهم إلى التوحيد والإيمان . . لكن الله يحفظ الأنبياء وورثة الأنبياء من الدعاة والعلماء ويدبر لهم أمرهم ويحفظهم من كيد أعدائهم.
- (٣) أن الله (عز وجل) أعد لعباده المؤمنين ثواباً عظيماً في الدنيا بأن يجعل لهم ذكراً حسناً بين الناس . . وأعد لهم ثواباً أعظم في الآخرة بالنعيم المقيم في جنته التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قصة اليسع (عليه السلام)

كان ياما كان ..

كان هناك نبي من أنبياء الله (عز وجل) اسمه اليسع (عليه السلام) آتاه الله النبوة بعد نبي الله إلياس (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلأ فضلتنا على العالمين﴾ (١).

* قام نبي الله اليسع (عليه السلام) بدعوة الناس من حوله إلى الإيمان والتوحيد وإلى عبادة الله (جل وعلا) .. وكان ذلك بعد موت نبي الله إلياس (عليه السلام).

* ولقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة فقتلوا من قتلوا من الأنبياء وشردوا المؤمنين فأخذ اليسع (عليه السلام) يعظهم ويخوفهم من عذاب الله (جل وعلا) ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته.

(١) سورة الأنعام: الآية: (٨٦).

* وتمر الأيام ويموت نبي الله اليسع (عليه السلام) ..
فسلط الله (عز وجل) على بنى إسرائيل من يسومهم سوء
العذاب جزاءً على ما فعلوه.

* ولقد أثنى الله (جل وعلا) على نبي الله اليسع فقال
تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ
الْأَخْيَارِ﴾ (١).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن كل نبي ما جاء إلا ليدعو الناس إلى التوحيد
وإلى عبادة الخالق (جل وعلا).

(٢) أنه لا يخلو زمان من نبي يدعو الناس ويدلهم
على طريق الجنة ليفوزوا في دنياهم وآخرتهم.

(٣) أنه لما كان نبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء وليس
هناك نبي بعده جعل الله علماء هذه الأمة هم ورثة الأنبياء
يُبلغون شرع الله وسنة رسول الله ﷺ للأمة بل وللأمم
من حولنا.



(١) سورة ص: الآية: (٤٨).

قصة زكريا ويحيى (عليهما السلام)

كان ياما كان .. .
كان في بنى إسرائيل في قديم الزمان نبي كريم اسمه
زكريا (عليه السلام) وكان يعيش وحده مع زوجته في
فلسطين فلم يكن عندهما ولد رغم أنهما تقدما في السن
ومع ذلك لم ييأس سيدنا زكريا (عليه السلام) من رحمة
الله (جل وعلا) بل كان يدعو دائما بأن يرزقه الله الأولاد
وكان عنده ثقة ويقين في الله (جل وعلا).
وكان زكريا (عليه السلام) يعمل نجاراً فكان يأكل من كسب
يده كما كان جده داود (عليه السلام) يعمل ويأكل من عمل يده.

ميلاد مريم

* وكان في نفس المكان والزمان الذي يعيش فيه نبي
الله زكريا (عليه السلام) كان هناك عالم جليل يصلى
بالناس اسمه عمران.
وكانت زوجة عمران - ذلك العالم الكبير - لا تلد

وكانت أيضاً تشتهي أن يرزقها الله الولد .
 وفي يوم من الأيام بينما كانت امرأة عمران تسير في
 الحدائق وجدت طائراً جميلاً يطعم ابنه الطائر الصغير
 الجميل طعاماً في فمه ويسقيه ويأخذه تحت جناحه خوفاً
 عليه من البرد . . فأحسست في تلك اللحظة بالحنين
 الشديد إلى الولد لتفعل معه مثلما يفعل هذا الطائر بابنه .
 فسقطت دمعة من عينيها وتوجهت إلى الله (عز
 وجل) وسألته أن يرزقها ولداً صالحاً ونذرت أن يكون
 خادماً لبیت المقدس : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
 لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١)
 فاستجاب الله لها وحملت وامتلاً قلبها بالسعادة
 والفرح والسرور ونذرت ما في بطنها محرراً لعبادة الله
 ولخدمة بيت الله (جل وعلا) .
 * وتمر الأيام ويموت زوجها عمران ذلكم العالم الإمام
 الجليل ويترك زوجته وهي حامل .
 وجاء موعد الولادة . . ووضعت امرأة عمران وهي

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٥) - تأييد قصصنا

تسمنى أن يكون المولود ذكراً ليعمل بيت المقدس لأن الإناث لا تخدم بيت المقدس وإنما كان يخدمه الذكور. ولكن كانت المفاجأة التي أدخلت الحزن على قلبها أن المولودة كانت أنثى فحزنت امرأة عمران حزناً شديداً وجلست تفكر. هل تصلح هذه الأنثى لخدمة بيت المقدس؟! هل تصلح هذه الأنثى أن توهب لله وتكون بذلك قد وفّت بنذرهما؟! وفى نهاية الأمر قررت أن تفي بنذرهما لله على الرغم من أن الذكر ليس كالأنثى.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ (١).

الله يحفظ مريم

وذريتها من الشيطان الرجيم

لقد سمع الله (عز وجل) دعاء امرأة عمران واستجاب لها ورزقها بمولودة جميلة طاهرة. فلما رأت امرأة

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٦).

عمران ذلك أرادت أن تسأل الله المزيد من فضله ورحمته فلجأت إلى الله أن يعصم ابنتها مريم وذريتها من كيد الشيطان فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا (١)﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣)﴾ (٢).

زكريا (عليه السلام) يكفل مريم

ولما كان عمران ذلكم العالم الجليل والد مريم قد مات وهى فى بطن أمها فقد أراد علماء وشيوخ ذلك الزمان أن يربوا مريم ويكفلوها. - وكان كل واحد منهم حريص كل الحرص على أن ينال هذا الشرف وذلك بأن يكفل ابنة شيخهم وعالمهم

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

الجليل وإمامهم عمران. **فكانت له نعمة** . **فكانت له نعمة** . **فكانت له نعمة** .
فقام زكريا (عليه السلام) وقال: أنا أكفلها لأنها قريتي
 فزوجتي خالتها وأنا نبي هذه الأمة فأنا أولى الناس بها .
فقال العلماء والشيوخ: ولماذا لا يكفلها أحدنا؟ فنحن
 أيضاً نحرص على الفوز بهذا الأجر والثواب .
 * وفي النهاية اتفقوا جميعاً على إجراء قرعة يتم من
 خلالها اختيار من يكفل مريم . . . فمن وقعت عليه القرعة
 فهو الذي سيكفلها ويربها ويكون له شرف خدمتها حتى
 تكبر وتخدم بيت المقدس وتتفرغ لعبادة الله (جل وعلا) .
 * وتمت القرعة . . . وذلك بأنهم جاؤوا بمريم ووضعوها
 وهي مولودة صغيرة على الأرض ووضعوا إلى جوارها أقلام
 الذين يرغبون في كفالتها ثم أحضروا طفلاً صغيراً وأمروه أن
 يختار قلماً من تلك الأقلام الموضوعة بجوار مريم . فما كان
 من الطفل إلا أنه أخرج قلم زكريا (عليه السلام) .
 * فاعترض العلماء والشيوخ وقالوا: نريد أن تكون
 القرعة ثلاث مرات .
 فوافق نبي الله زكريا (عليه السلام) .

* وقاموا بإجراء القرعة الثانية وذلك بأن حفر كل واحد منهم اسمه على قلم خشبي وقالوا: نُلقي أقلامنا في النهر فمن سار قلمه ضد التيار وحده فهو الذي سيكفل مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١).

* وألقوا أقلامهم في النهر فسارت كل الأقلام مع التيار ما عدا قلم زكريا (عليه السلام) فقد سار قلمه وحده ضد التيار. ومع ذلك لم يقتنعوا وأصروا أن يعملوا القرعة للمرة الثالثة.

وبالفعل أجروا القرعة للمرة الثالثة وقالوا: في هذه المرة الأخيرة سنُلقي أقلامنا في النهر فمن سار قلمه مع التيار وحده يكفل مريم.

وألقوا الأقلام فسارت كل الأقلام ضد التيار ما عدا قلم زكريا (عليه السلام) فقد سار قلمه مع التيار. وهنا فقط وافقوا على أن يعطوا مريم لزكريا (عليه السلام) ليكفلها.

* فأخذها زكريا (عليه السلام) ليربها ويعلمها ويكرمها وهذا من سعادتها، لتقتبس من هذا النبي الكريم

(١) سورة آل عمران: الآية (٤٤). (عليه السلام) هذا هو نبي الله

العلم النافع والعمل الصالح. **ثم** أصبح بعد ذلك لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد. محراب تتعبد فيه لله (جل وعلا) فقد أخذت الصلاة والعبادة والذكر كل وقتها.

كرامة الله لمريم

أخذ زكريا (عليه السلام) بعد أن كفل مريم ابنة عمران - يلاحظ تلك العناية الربانية لمريم، ويرى كرامة الله لها، كرامة من الله لمريم الصالحة التي تقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، فقد كانت مريم كريمة على الله، إذ اصطفاه الله واختارها على نساء العالمين، وكانت أمّاً لنبي جاء ميلاده معجزة كخلق آدم (عليه السلام).

*** كان لمريم - عليها السلام - محراب خاص تتعبد فيه، وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلاً، تقضى وقتها كله في عبادة وصلاة، فقد وصلت الصلاة بالمناجاة، والذكر بالشكر والحمد لله عندما تقوم من الليل وأطراف النهار.**

*** وباعتبار كفالة زكريا لها، كان يزورها في المحراب،**

وهذا شيء طبيعي، لكن شيئاً ما كان يُلفت انتباهه ويحرك وجدانه، ويجعله أمام شيء مدهش، إذ كان يجد عند مريم رزقاً من الله، . . . والعجيب في ذلك أن زكريا كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف، ويجد فاكهة الصيف في الشتاء^(١)، . . . حقاً إنه لشيء مدهش.

* لم ير ذلك المنظر مرة واحدة، بل تكرر ذلك مرات ومرات، وتكرر المشهد أمام زكريا، عندئذ سألها: من أين يأتيك هذا الرزق؟ وتجب مريم: من عند الله.

وهذا ما ذكرته الآية الكريمة في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢)(٣).

الكمال (٢٩٩/١).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).
(٣) نساء الأنبياء (ص: ١٨٦، ١٨٧).
* * *

تاقت نفس زكريا عليه السلام إلى الولد

في هذه اللحظة تحركت في نفس زكريا (عليه السلام) تلك الرغبة القوية في أن يرزقه الله الذرية الصالحة . . وذلك لما رأى تلك الكرامات التي أكرم الله بها مريم (عليها السلام).

في هذا الوقت كان زكريا (عليه السلام) شيخاً كبيراً قد وهن عظمه وضعف وشاب شعره وأحس أنه قد اقترب أجله وكانت زوجته وهي خالة مريم عجوزاً مثله لم تلد قبل ذلك لأنها كانت عقيماً . . ولكن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

* وجاءت اللحظة الحاسمة . . فقد دخل زكريا (عليه السلام) على مريم في صباح ذلك اليوم فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها، فسألها زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾^(١)؟

فقالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١﴾ .

فكانت الاستجابة الفورية من فاطر السماوات والأرض الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

كان حرص زكريا

على الولد من أجل الدين

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢) .

ولم يكن هدف زكريا (عليه السلام) من دعائه عَرَضَ الحياة الدنيا وإنما كان هدفه من دعائه أن يكرمه الله بولد صالح يرث النبوة من بعده، ويحفظ أمر الدين الذي هو من عند الله، وهذا الدين هو تراث آبائه وأجداده من الأنبياء، فقد كان زكريا (عليه السلام) من ذرية يعقوب عليه السلام .

* ولقد أخبر الحق (جل وعلا) عن هذا المشهد الجليل في كتابه فقال: ﴿كَهَيْعَصَ (١) ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٨) .

(٢) سورة الانبياء: الآية: (٨٩) .

الرَّأْسُ شَيْئًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ
وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)(١).

البشرى بيحيى (عليه السلام)

* لقد كان زكريا (عليه السلام) يخشى أن يضل الناس
من بعده إذا لم يبعث الله فيهم نبياً فأخذ يدعو بكل
صدق وإخلاص أن يرزقه الله ولداً صالحاً يرث النبوة من
بعده ليأخذ بأيدي الناس إلى طاعة الله (جل وعلا).
ثم ترسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى...
فالرب ينادى عبده من الملائكة: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ (٣)..
ويُعجل له البشرى: ﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ﴾ (٤) ويغمره بالعطف
فيختار له اسم الغلام الذي بشره به: ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ (٥). وهو
اسم فذَّ غير مسبوق: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٦)(٧).

(١) سورة مريم: الآيات: (١ - ٦).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٧٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٦).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة مريم: الآية: (٧).

(٧) الظلال (٤/ ٢٣٠٢).

فوجئ زكريا بهذه البشـرى، أن يكون له ولد لا شـيـه له أو مثـيل من قبل، أحس زكريا من فرط الفرح باضطراب، تساءل من موضع الدهشة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (١).

أدهشه أن ينجب وهو شيخ كبير وامرأته عجوز عقيم لا تلد. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٢).

أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ، وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى، كل شيء يريد أن يأمره أن يكون فيكون، وقد خلق الله زكريا نفسه من قبل ولم يكن له وجود، وكل شيء يخلقه الله عز وجل بمجرد المشيئة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣) (٤).

وتأتى البشارة فى الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ

(١) سورة مريم: الآية: (٨).

(٢) سورة مريم: الآية: (٩).

(٣) سورة يس: الآية: (٨٢).

(٤) ابن الإسلام (ص: ٢٧٥).

الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب^(١) أى: خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي فى محراب عبادته أى: محل ومجلس صلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَشْرُكَ بِحَيِّى﴾^(٢) أى: بولد من صلبك اسمه يحيى مُصدقاً بكلمة من الله^(٣) أى: بعيسى ابن مريم إذ هو أول من صدق به وعلى سنته ومنهاجه. ﴿وَسَيِّدًا﴾^(٤) أى: سيداً فى العلم والحلم والعبادة والخلق^(٥). ﴿وَحَصُورًا﴾^(٦) أى: يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٧) هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه السلام بعد البشارة بولادته وهى أعلى من الأولى.

العلامة على وجود الحمل

واستجابة الدعاء

* بعد أن بشرت الملائكة زكريا - عليه السلام -

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨).

(٦)، (٧) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

بغلام، طلب من الله تعالى أن يجعل له دليلاً وعلامة على وجود الحمل فى بطن زوجته، ولم يكن هذا الطلب من قبيل عدم الثقة بوعد الله عز وجل، فحاشا لذكرى النبی التقي النقي أن يكون كذلك، وهو من أعرف الناس بالله عز وجل، لكن ذلك من قبيل الطمأنينة القلبية والاستقرار النفسى، لكى يبادر إلى الشكر ويتعجل السرور، إذ الحمل لا يظهر فى بدايته فأراد معرفته أول وجوده.

* مرة أخرى استجاب الله عز وجل لطلب ذكرى . .
 وصدر الأمر العلوى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾^(١)، إن علامة ذلك أنك يا ذكرى لا تستطيع التكلم إلى الناس ثلاثة أيام بلياليهن، وأنت صحيح ليس بك خرس ولا علة، اعتقل لسان ذكرى من غير مرض ولا علة، وذلك كما ذكر الله عز وجل فى آية آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٢).

(١) سورة مريم: الآية: (١٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٤١).

* إن زكريا - عليه السلام - مع ذلك لم ينقطع لسانه عن الذكر والتسبيح، وهو دليل على أنه كان في غاية السلامة والقدرة على النطق إلا أنه يُعتقل لسانه عند التكلم مع الناس، وهذه هي العلامة (١).

* وأعطى الله زكريا العلامة، وأمره بالذكر والتسبيح، واطمأنت نفس زكريا، وخرج من المحراب الذي بُشِّر فيه ببيحيى، فأوحى إلى من حوله من العباد والناس بإشارة خفيفة سريعة باليد أو بالرأس بالذكر والتسبيح موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة، كما ذكر الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٢)، فقد كان زكريا - عليه السلام - في منزلة عالية عندهم وهو خيرهم وإمامهم، وعالمهم ونبيهم (٣).

إنهم كانوا يسارعون في الخيرات

ولقد وضَّح الحق (جل وعلا) سبب إجابته لزكريا

(١) انظر: تفسير الماوردي (٥١٨/٢)، وتفسير ابن كثير (١٠٧/٣).

(٢) سورة مريم: الآية: (١١).

(٣) نساء الأنبياء (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(عليه السلام) فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١).

فقد كان زكريا (عليه السلام) يسارع إلى فعل كل الخيرات ولم يتأخر أبداً عن أى طاعة تُقرّبه من الله (جل وعلا) . . وكان كثير الدعاء فى السر والعلن وفى الرخاء والشدة وكان فى غاية الخشوع لله (جل وعلا).

فأكرمه الله بولد صالح . . وهو يحيى (عليه السلام) فقد كان له سمات وصفات خاصة لم تكن لأحد من قبله أبداً وكان باراً بوالديه . . ففرح به زكريا (عليه السلام) ورباه على الإيمان والتوحيد وحب الدعوة إلى الله حتى أصبح يحيى (عليه السلام) نبياً كريماً وآتاه الله الحكم صبياً.

* أما زكريا (عليه السلام) فقد ظل عابداً لله داعياً إليه (سبحانه وتعالى) حتى حضرته الوفاة وخرج من هذه الدنيا ليلحق بالأنبياء والمرسلين فى جنات النعيم.

* أما عن سبب وفاته فلم نقف على رواية صحيحة توضح سبب وفاته إلا أنه وردت روايات كثيرة ضعيفة أنه مات مقتولاً على يد جنود الملك الظالم فى ذلك الوقت - فالله أعلم -.

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٩٠).

المؤهلات التي تزود بها يحيى (عليه السلام)

لقد شهد الله (جل وعلا) أنه لما خلق يحيى (عليه السلام) لم يجعل له من قبل شبيهاً ولا مثيلاً .. فلقد فضله الله بفضائل وصفات فريدة وجليلة فقال تعالى:

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾^(١) .

* ﴿وَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٢) .

* ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾^(٣) أى: تعطف الله عليه بالرحمة والمحبة والحنان فكما أن الله أعطى الخضر علماً من لدنه فكذلك أعطى يحيى حناناً من لدنه .

وقيل: أن الله أعطاه الحنان والرحمة بالناس حتى يدعوهم إلى الله ويخلصهم من الكفر والشرك .

* ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾^(٤) .

(١) سورة مريم: الآية: (٧) .

(٢) سورة مريم: الآية: (١٢) .

(٣) سورة مريم: الآية: (١٣) .

(٤) سورة مريم: الآية: (١٤) .

* ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١).

هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، يفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها! * وكذلك إذا مات وفارق هذه الدنيا وسكن قبره فإنها تكون لحظة عصبية وأما النقلة الثالثة فهي حينما يُنفخ في الصور نفخة البعث فيخرج من قبره للقاء الله يوم القيامة. ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما يكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٢).

* ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٣).

* ﴿وَسَيِّدًا﴾ (٤) أى: سيِّداً في العلم والحلم والعبادة.

* ﴿وَحَصُورًا﴾ (٥) أى: يحبس نفسه عن الشهوات ولا

(١)، (٢) سورة مريم: الآية: (١٥).

(٣)، (٤)، (٥) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

يقرب النساء مع قدرته على ذلك خوفاً من الله (جل وعلا).

* ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١). وكلمة حيلة رحيمة بالإنسان.

فكانت هذه هي المؤهلات التي أكرم الله بها يحيى (عليه السلام) ليكون نبياً من خيرة الأنبياء.

رحمة الله على يحيى وكنة حيلة رحيمة بالإنسان فكمب هذا رحيمة

طفولة يحيى (عليه السلام)

وُلد يحيى عليه السلام، وكان ميلاده معجزة، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يشك الشيخ من الذرية، وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا عليه السلام.

وُلد يحيى عليه السلام فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال، كان معظم الأطفال يمارسون اللهو، أما هو فكان جاداً طوال الوقت، كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات، وكان يحيى يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها، وحناناً عليها، ويبقى هو بغير طعام، أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها.

وكلما كبر يحيى عليه السلام في السن زاد النور في

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام، وكان يحيى عليه السلام يحب القراءة، وكان يقرأ في العلم من طفولته، فلما صار صبياً ناداه ربه عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (١).

أوحى الله سبحانه وتعالى ليحيى عليه السلام وهو صبي أن يأخذ الكتاب بقوة، بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام، كتاب الشريعة، رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبي، كان أعلم الناس وأشدّهم حكمة في زمانه، درس الشريعة دراسة كاملة، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبي، كان يحكم بين الناس، ويبين لهم أسرار الدين، ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطأ.

وكبر يحيى فزاد علمه، وزادت رحمته، وزاد حنانه بوالديه، والناس، والمخلوقات، والطيور، والأشجار، حتى عمّ حنانه الدنيا وملأها بالرحمة، كان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يدعو الله لهم، ولم يكن هناك إنسان يكره يحيى أو يتمنى له الضرر، كان محبوباً

(١) سورة مريم: الآية (١٢).

لحنانه وزكاته وتقواه وعلمه وفضله، ثم زاد يحيى عليه السلام على ذلك بالعبادة ^(١).

زهدي يحيى (عليه السلام)

ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟

إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعامًا إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معاشهم.

* وعن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال: يا بني .. أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرت قائم تبكي فيه؟ فقال: يا أبت .. ألسنت أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين. فقال له: ابك يا بني .. فبكيا جميعاً ^(٢).

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٧٨ ، ٢٧٩) بتصرف.

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٦٠٥).

إن الله أمر يحيى بخمس كلمات

وها هو يحيى (عليه السلام) يحمل أمانة هذا الدين ويبلغ دعوة الله (عز وجل) للناس من حوله.

عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أنا أبلغهن. فقال: يا أخى .. إني أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد الناس على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق - فضة - أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك! وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم

يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. الله تبارك وتعالى
وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. الله
وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، ومثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل^(١).

بيان سبب قتل يحيى (عليه السلام)

* وهكذا ظل يحيى بعد موت أبيه زكريا (عليهما السلام) عبداً خاشعاً لله داعياً إلى الله (جل وعلا) بكل لين ورحمة وحنان حتى أحبه الناس جميعاً.

(١) رواه أحمد (١٦٧١٨) والترمذي (٢٨٦٣) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٢٤).

*** ولكن كما قال النبي ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء» (١).**

فقد مات نبي الله يحيى (عليه السلام) مقتولاً . . .
 لكن كيف مات مقتولاً؟ . . . سأقص عليكم قصة قتله .

*** كان هناك في هذا الزمان ملك ظالم طاغية قاسى القلب .**
 وكان الفساد منتشرًا فى قصره وكان يغار من نبي الله
 يحيى (عليه السلام) لأنه كان محبوبًا من الناس فى الوقت
 الذى كان الناس فيه يكرهون هذا الملك الظالم .

وكان هذا الملك يريد الزواج من ابنة أخيه لأنها كانت فى
 غاية الحسن والجمال . . وكانت هى الأخرى تريد الزواج
 منه رغم أنه عمها ولا يجوز لها أن تتزوجه ولكنها كانت
 تطمع فى الثروة والملك ، فأراد هذا الملك أن يأخذ الإذن من
 يحيى (عليه السلام) لهذا الزواج المحرم فذهب يستفتى يحيى
 (عليه السلام) ويُغريه بالأموال ليفتيه بأن زواجه من ابنة أخيه
 حلال فرفض يحيى (عليه السلام) وأعلن أمام الناس جميعًا
 أن زواج الملك من ابنة أخيه حرام .

فغضب الملك غضبًا شديدًا وامتنع عن الزواج حتى لا

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٦٥٣٩)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى
 صحيح الجامع (٩٩٦).

يُفضح أمام الناس .
 أما الفتاة فكانت لا تزال تريد أن تتزوج من عمها
 طمعاً في الملك والثروة فذهبت إلى الملك بعدما تزينت له
 وفتنته حتى تعلق بها وأصرَّ على الزواج منها . . وهنا
 رفضت وقالت له : إن أردت أن أوافق على الزواج فائتني
 برأس يحيى مهراً لى وإلا فلن أوافق على الزواج .
 فأرسل الملك جنوده فدخلوا على يحيى (عليه السلام)
 وهو يصلى فى المحراب فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها
 على صحن للملك فقام الملك وقدم الصحن هدية لابنة
 أخيه فوافقت على الزواج فتزوجها فى الحرام .
 * وهكذا مات يحيى (عليه السلام) مقتولاً ليلحق بأبيه
 ويسائر الأنبياء فى جنات النعيم .

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) أن المسلم لا ييأس من رحمة الله . . فقد رأينا كيف أن
 الله (عز وجل) رزق امرأة عمران الولد بعد عمرٍ طويل . .
 ورزق زكريا يحيى (عليهما السلام) بعدما كبر سنُّه وشاب رأسه .
- (٢) أننا ينبغي أن نستعمل نعم الله فى طاعته وخدمة دينه . .

فقد رأينا كيف أن امرأة عمران بمجرد أن استجاب الله دعاءها وحملت نذرت ما في بطنها لعبادة الله ولخدمة بيت المقدس .

(٣) أن المسلم لا بد أن يرضى بقضاء الله ليفوز برضوان الله في الدنيا والآخرة . . . فقد رأينا كيف أن امرأة عمران لما ولدت أنثى وكانت تتمنى أن تلد ذكراً ليخدم بيت المقدس فأكرمها الله بصدق نيتها بأن اصطفى ابنها مريم وجعل من نسلها عيسى (عليه السلام) .

(٤) أن المؤمنين يجب أن يتنافسوا في فعل الخيرات . . . فقد رأينا كيف تنافس زكريا (عليه السلام) مع العلماء فيمن يكفل مريم حتى عملوا القرعة وكانت من نصيب زكريا (عليه السلام) .

(٥) كرامات الأولياء ثابتة لأهل السنة، ومن كرامة الله لمريم أن يكون عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف .

(٦) أن العبد المؤمن ليس له إلا الله (جل وعلا) فإذا أراد شيئاً من أمور الدنيا والآخرة فعليه أن يفزع إلى الله ويسأله وحده كل ما يريد . . . وليكن على ثقة ويقين من أن الله سوف يستجيب دعاءه .

(٧) أن من أخلص لله وكان مسارعاً في طاعة الله فإن الله يستجيب دعاءه أكثر من غيره ممن يتكاسلون عن طاعة الله . . فقد قال تعالى عن زكريا (عليه السلام) وزوجه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١).

(٨) أن النشأة الطيبة لها أثر عظيم في تربية الأولاد . . فقد رأينا كيف أن يحيى لما نشأ في بيت أبيه زكريا (عليهما السلام) كان مثلاً حياً للصبي العابد الخاشع لله (جل وعلا) حتى أكرمه الله (عز وجل) وقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (٢).

(٩) أن الدعوة الرحيمة يفتح الله بها القلوب ولذلك كان الناس يحبون يحيى (عليه السلام) لأن دعوته كانت رحيمة .
(١٠) أن أشد الناس بلاءً الأنبياء . . فقد رأينا كيف قُتل زكريا ويحيى (عليهما السلام) في سبيل العقيدة وفي سبيل تبليغ شرع الله وعدم المجاملة في دين الله (جل وعلا).

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٩٠).

(٢) سورة مريم: الآية: (١٢).

قصة عيسى (عليه السلام)

كان ياما كان . . .
كان هناك رجل عالم جليل يصلى بالناس اسمه عمران . .
وكان يعيش فى فلسطين فى زمان سيدنا زكريا (عليه السلام).
وكانت زوجة عمران لا تلد وكانت تشتهى أن يرزقها
الله الولد.
وفى يوم من الأيام وجدت طائراً يطعم ابنه الصغير فى
فمه فأحست بالحنين الشديد إلى الولد فتوجهت إلى الله (جل
وعلا) بالدعاء بأن يرزقها الله ولداً ليخدم بيت المقدس
فاستجاب الله لها وحملت وامتلاً قلبها بالسعادة والفرح
والسرور . . ونذرت ما فى بطنها محرراً لخدمة بيت المقدس.
* وتمر الأيام ويموت زوجها عمران ذلكم العالم
الجليل ويترك زوجته وهى حامل.
* وجاء موعد الولادة . . ووضعت امرأة عمران ما فى
بطنها وكانت أنثى فحزنت لأنها كانت تتمنى أن يكون المولود
ذكراً ليخدم بيت المقدس ولكنها قررت أن تفى بنذرها لله.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾^(١).

- كانت المولودة هي مريم أم عيسى (عليهما السلام).
* خافت امرأة عمران على ابنتها مريم فتوجهت إلى الله أن يحفظها هي وذريتها من الشيطان الرجيم.

ولذلك جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^{(٢)(٣)}.

* وجعل الله كفالة مريم ورعايتها إلى سيدنا زكريا (عليه السلام) وهو نبي ذلك الزمان وهو زوج خالة مريم.. وكان هذا من سعادتها لتقتبس منه العلم النافع والعمل الصالح.

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢) سورة مريم: الآية: (٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

كرامة ثابتة لمريم

(عليها السلام)

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١).

اتخذ لها زكريا مكاناً شريعاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من خدمة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها في بنى إسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ (٢) فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (٣) أى: رزق رزقنيه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

الله يصطفى مريم على نساء العالمين

لقد كان ميلاد مريم تمهيداً للمعجزة الكبرى حيث سيولد نبي الله عيسى (عليه السلام) من هذه المرأة الطاهرة التقية النقية دون أن يكون له أب كسائر الناس.

*** قال تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

لقد اصطفاها الله واختارها وطهرها من كل الأخلاق الرذيلة وأعطاه كل الصفات الجميلة واصطفاها على نساء العالمين.

إن الله اصطفاها فهي الطاهرة العفيفة التقية .. واصطفاها مرة أخرى لأنها ستنجب للدين عيسى ابن مريم (عليه السلام) ذلكم النبي الرسول الكريم من أولى العزم الخمسة.

*** ثم قالت الملائكة لمريم:** ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٢)، لقد طلبوا منها أن تزيد من خشوعها وركوعها وسجودها شكراً لله (جل وعلا) على هذا الاصطفاء.

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٤٣).

ميلاد عيسى ابن مريم (عليه السلام)

وها هي قصة ميلاد سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام).
*** قال تعالى:** ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١).

لقد قامت مريم واعتزلت أهلها وأقاربها في مكان شرقي بيت المقدس من أجل أن تتفرغ لعبادة الله (جل وعلا) فقد كانت كثيرة العبادة.

*** فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٢)،** لما أرادت أن تتفرغ للعبادة جعلت بينها وبين قومها سترًا وحاجزًا فأرسل الله إليها جبريل (عليه السلام) وهي في المحراب وحدها فجاءها في صورة شاب أبيض الوجه في غاية الحسن والجمال فخافت منه مريم، وقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (٣).

لقد فرغت مريم منه وقالت: إني أحتمي وألتجئ إلى الله منك فإن كنت تقياً فاتركني في حالي ولا تقترب

(١) سورة مريم: الآية: (١٦).

(٢) سورة مريم: الآية: (١٧).

(٣) سورة مريم: الآية: (١٨).

منى ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (١) .
 أراد جبريل (عليه السلام) أن يُطمئن قلبها فأخبرها أنه ملك
 أرسله الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًا طاهرًا من الذنوب .
 * فاطمأنت مريم لكنها فجأة تذكرت ما قاله : ﴿ لِأَهَبَ
 لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٢) !!

كيف سيحدث ذلك وهي الطاهرة التي لم تتزوج بعد
 ولم يمسسها بشر .
 كيف تنجب بغير زواج ؟!
 قالت لجبريل (عليه السلام) : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
 يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ (٣) .

فأراد جبريل (عليه السلام) أن يُطمئن قلبها فقال لها :
 ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ
 أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (٤) .

إنه أمر سهل ميسور على الخالق (جل وعلا) فالله هو
 الذى أمر بأن يُخلق عيسى من أم بلا أب ليكون معجزة

(١)، (٢) سورة مريم: الآية: (١٩) .

(٣) سورة مريم: الآية: (٢٠) .

(٤) سورة مريم: الآية: (٢١) .

ورحمة من الله لبنى إسرائيل .
ثم إن الأمر انتهى ، فما دام الله أمر بذلك فليس هناك
أى مجال للمناقشة . . . إن الله إذا أمر بشيء فلا بد من
تنفيذه على الوجه الذى أراده الله .

* ولماذا تعجبين . . فلقد خلق الله آدم (عليه السلام)
من غير أب ولا أم وخلق حواء من آدم فهى قد خلقت
من ذكر بغير أنثى ، وسيخلق ابنك من أم بلا أب وخلق
الناس جميعاً من أب وأم حتى يعلم الناس قدرة الخالق
(جل وعلا) وعظيم سلطانه .

وهكذا اطمأن قلب مريم (عليها السلام)

لقد استقبلت مريم كلمات جبريل (عليه السلام) بكل
رضا واستسلام لأمر الله (جل وعلا) .

* وعاد جبريل (عليه السلام) يتحدث مرة أخرى
ليخبرها بتفاصيل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم (عليه
السلام) فقال لها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةِ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٥) وَيُكَلِّمُ

الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين» (١).

سبحان الله!!!.. لقد عرفت اسم ابنها قبل أن تحمله في بطنها.. بل وعرفت أنه سيكون وجيهاً في الدنيا والآخرة، وسيكون من المقربين إلى الله بل وإلى الناس من حوله.. وعرفت أيضاً أنه سيكلم الناس وهو طفل صغير وسيكلم وهو رجل كبير.

وحملت مريم بعيسى (عليهما السلام)

وهنا.. انتهى الحوار بين جبريل (عليه السلام) وبين مريم العذراء وقبل أن تنطق مريم كلمة أخرى نفخ جبريل (عليه السلام) في جيب مريم (٢) فدخلت النفخة في جوفها فحملت فوراً بعيسى (عليه السلام).

* ومرت الأيام ثقيلة على مريم.. فهي تفكر ماذا ستقول للناس وهي التي حملت بغير زواج.

* كان حملها يختلف تماماً عن حمل سائر النساء.. فهي لم تشعر بثقل ولا بمرض ولم ترتفع بطنها كسائر النساء بل كان حملها به نعمة طيبة.

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (٤٥، ٤٦).

(٢) الجيب: هو شق الثوب الذي يكون في الصدر.

وحان وقت الولادة

ومرت الأيام بسرعة وهي تعاني من الآلام النفسية الشديدة فهي تفكر فيما تُخبئه لها الأيام وماذا سيقول الناس عنها.

اقتربت ساعة الولادة وأحست مريم بآلم الولادة فخرجت من القرية وذهبت إلى مكان بعيد يمتلئ بالشجر والنخل . . إنه مكان لا يعرفه أحدٌ غيرها.

ولم يكن أحد يعرف أن مريم حامل وأنها ستلد فقد أغلقت المحراب عليها طوال هذه الشهور والناس يعرفون أنها فرغت نفسها للعبادة فلا يقترب منها أحد حتى لا يسبب لها إزعاجاً.

❖ وجلست مريم تستريح قليلاً تحت جذع نخلة وتفكر فيما سيحدث لها في الأيام القادمة . . وفجأة زادت عليها آلام الولادة.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ (١).

وبدأت لحظات ميلاد المسيح عيسى ابن مريم (عليهما

(١) سورة مريم: الآية: (٢٣).

السلام) والأم في غاية الحزن والاكتئاب .. ماذا سيقول الناس؟ هل يصدق الناس أنى ولدت هذا الطفل دون أن يمسنى بشر؟ .. ظلت تفكر حتى وصل بها الأمر إلى أنها تمت أن تموت قبل أن يتهمها أحد في طهارتها وعفافها.

* ولدت مريم سيدنا عيسى (عليه السلام) .. وفجأة حدث شيء لا يخطر على قلب بشر!! .. يا ترى ما الذى حدث؟

عيسى (عليه السلام) يتكلم وهو طفل رضيع

في هذه اللحظة جاء الثبيت من عند الله وجاءت المعجزة التى لا تخطر على قلب بشر .. لقد أنطق الله عيسى (عليه السلام) فنادى أمه وتكلم معها: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَئِىَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)﴾ (١).

* لم تصدق مريم ما تراه وما تسمعه .. هل هذا

(١) سورة مريم: الآيات: (٢٤ - ٢٦).

معقول ؟ .. طفلى الصغير الذى وُلد منذ دقائق
معدودات ينطق ويتكلم!!
لقد أنطق الله (عز وجل) طفلها عيسى (عليه السلام)
ليكلمها ويطلب منها أن تكف عن حزنها وأن تهز جذع
النخلة ليتساقط عليها التمر والرطب فتأكل وتشبع فإذا
أرادت الماء فقد جعل الله تحتها عينًا تجري فيها المياه
الصافية النقية.

ثم قال لها عيسى (عليه السلام): فإذا رآك أحد من
البشر فقولى له: إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم
اليوم إنسانًا.

* فرحت مريم فرحًا شديدًا وأحست لأول مرة
بالسعادة تملأ قلبها منذ أن حملت بعيسى (عليه السلام) ..
قامت فى سعادة غامرة تهز جذع النخلة وما إن لمست
الجذع حتى وجدت التمر والرطب يتساقط أمامها فأكلت
وشربت ووضعت طفلها فى ملابسها وألصقته بقلبها خوفًا
عليه من نسيم الهواء ثم نامت من شدة التعب والإعياء.

اللحظة الحاسمة

وجاءت اللحظة الحاسمة التي ستعود فيها مريم إلى قومها. يا ترى ماذا ستصنع؟ ماذا سيقولون لها؟ وهل يصدقون بأن الله هو الذى رزقها بهذا الطفل أم أنهم سيوجهون إليها أبشع التهم ويرمونها بأقبح الكلمات؟! * عادت مريم قُرب العصر وكان السوق الكبير الذى يقع فى طريقها إلى المسجد قد امتلأ بالناس الذين فرغوا فى هذه الساعة من البيع والشراء وجلسوا يتكلمون. * وما إن وصلت مريم إلى السوق حتى نظر الناس إليها ولاحظوا أنها تحمل طفلاً وتضمه لصدرها. **فقال أحدهم:** أليست هذه مريم العذراء؟ فما هذا الطفل الذى تحمله؟ فجاء إليها أحد الكهنة وسألها: من هذا الطفل الذى تحمله يا مريم؟

هل هو ابنك؟ وكيف يكون ابنك وأنت لم تتزوجى؟ ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (١). وبدأت الاتهامات تسقط عليها من الناس حولها ومع

(١) سورة مريم: الآية: (٢٨).

ذلك فهي تقف مرفوعة الرأس واثقة في ربها (جل وعلا) أنه سوف يبرؤها من كل هذه الاتهامات. فعلا تبارك وتعالى فلما ضاق الحال اشتد توكلها على الله (جل وعلا) فأشارت بيدها إلى عيسى (عليه السلام). فقالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ (١) فقالوا يا أيها الذين آمنوا سمعوا قولهم

وإذا بعيسى (عليه السلام) ينطق وهو طفل رضيع، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٤) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٥)﴾.

* ما هذا الذي يحدث؟.. طفل رضيع يتكلم!! لقد رأى الناس أمام أعينهم معجزة حقيقية.. طفل جاء بغير أب ثم إنه يتكلم وهو ما زال يرضع.. طفل يقول: إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبياً.. معنى هذا

(١) سورة مريم: الآية: (٢٩).

(٢) سورة مريم: الآيات: (٣٠ - ٣٣).

الكلام أن ملكهم سيزول ولن يكون لهم أى قدر ولا مكانة عندما يكبر هذا الطفل .

لن يستطيع وقتها أحد منهم أن يبيع الغفران للناس .

* وأحس كهنة اليهود بأن ميلاد هذا الطفل الصغير سيكون مأساة بالنسبة لهم لأن حياتهم قائمة على الغش والخداع والسرقة .

وإن مجيء عيسى (عليه السلام) سيكون سبباً فى عودة الناس إلى دين الله (جل وعلا) . . . وهذا معناه إعدام كهنة اليهود الموجودين فى هذا الوقت .

فاختلف الأحزاب من بينهم

قال الله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

* ومع أن الله (عز وجل) أنطق عيسى (عليه السلام) وهو طفل رضيع وعلموا أن مريم هى الطاهرة العفيفة . . ومع ذلك اختلف الناس فى شأن مريم وشأن ابنها عيسى (عليه السلام) .

(١) سورة مريم: الآية: (٣٧) . ينسب (١٦٦٦) قريشاً من بني عبد مناف .

* فمنهم من قال إنه جاء من الحرام - عيادًا بالله - .
 ومنهم من قال: أن عيسى هو الله .
 ومنهم من قال: إنه ابن الله .
 وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله ، وابن أمته
 وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون .
 * عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد
 أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن
 عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة
 حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» (١) .

نشأة عيسى (عليه السلام)

نشأ عيسى (عليه السلام) كما ينشأ كثير من الأطفال
 إلا أنه قد ظهرت عليه بوادر النبوغ والذكاء والتدين وبدأت
 عليه مظاهر نبوته .
 فكان وهو يلعب مع أقرانه وأصحابه كان يُنبئهم بما
 يأكلون وما يدخرون في بيوتهم . . . وكان إذا ذهب إلى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨) .

مُعَلِّمُ الْقَرْيَةِ يَجْلِسُ إِلَيْهِ وَيَسْتَمِعُ إِلَى حَدِيثِهِ فِي جِدِّ
وَاهْتِمَامٍ . . . وَكَانَ مُقْبِلًا عَلَى الْعِلْمِ بِكُلِّ جَوَارِحِهِ .
ثُمَّ يَرْحَلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ مَعَ أُمِّهِ وَكَانَ بَارًّا بِهَا .

نُبُوَّتُهُ (عَلَيْهِ السَّلَام)

وَلَمَّا بَلَغَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ هَبَطَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ،
فَكَانَ ذَلِكَ بَدْءَ الرِّسَالَةِ ، وَفَاتِحَةَ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ فَأَخَذَ يُؤْذِنُ
فِي النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى مُتَابَعَتِهِ وَيَسْعَى فِي أَنْ
يَرُدَّ الْيَهُودَ عَنْ زِيغِهِمْ ، وَيَصُدِّهِمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ ، فَقَدْ
انْحَرَفُوا عَنِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمَةِ ، وَحَرَفُوا شَرِيعَةَ مُوسَى
السَّمِحَةِ ، وَجَعَلُوا هَمَّهُمْ جَمْعَ الْمَالِ ؛ فَصَارُوا يَحْرُضُونَ
الْفُقَرَاءَ وَالْمُحْتَاجِينَ عَلَى أَنْ يَقْدَمُوا لِلْهَيْكَلِ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ
نَذِيرٍ ، لِيَسِيلَ الذَّهَبُ إِلَى جُيُوبِهِمْ ، وَيَتَدَفَّقَ فِي خَزَائِنِهِمْ ،
وَإِنْ كَانَ مِنْ يَحْرُضُونَهُمْ فِي أَمْسٍ حَاجَةً إِلَى الْمَالِ يَعُولُونَ
بِهِ آبَاءَهُمْ وَيَرْبُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَرُونَ بِهِ أَجْسَامَهُمْ .
وَكَانَ مِنَ الْيَهُودِ طَائِفَةٌ أَنْكَرُوا الْقِيَامَةَ ، وَاسْتَبَعَدُوا

فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويُبرئ الأكمه^(١)،
والأبرص^(٢)، ويحيى الموتى بإذن الله^(٣). *لما دعا قومه الله*

بعض معجزات عيسى (عليه السلام)

لما كبر سيدنا عيسى (عليه السلام) ونزل عليه الوحي
وأعطاه الله الإنجيل وكان قد بلغ من العمر ثلاثين سنة وأظهر
الله على يديه المعجزات فكان من بين تلك المعجزات:

* ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^(٤) أى: فى أضعف
الأحوال وأقواها بكلام واحد.

* ﴿يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٥).

* ﴿أَخْلَقَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٦).

وكذلك كان يفعل، ... يصور من الطين شكل طير

(١) الأكمه: مَنْ ولد أعمى، أو من فقد بصره.

(٢) الأبرص: البرص: بياض يظهر فى الجسد لعلته. *لما دعا قومه الله*

(٣) قصص القرآن (ص: ٢٨٩ ، ٢٩٠) بتصرف.

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٦).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (٤٨).

(٦) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله.

* ﴿أَبْرَأُ الْأَكْمَهَ﴾^(١) وهو مَنْ وُلِدَ أَعْمَى، فيمسح على عينيه أمامهم فيبصر.

* ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾^(٢) وهو المَرَضُ الذي يصيب الجلد فيجعل لونه أبيض، فيمسح على جسمه فيعود سليماً.

* ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) أى: أُحْيِي بعض الموتى لا بقدرتى ولكن بمشيئة الله وقدرته.

* ﴿أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(٤) كان يخبر الشخص بما أكل وما ادَّخَر في بيته.

* ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٥) جاء عيسى عليه السلام

ليخفف عن بنى إسرائيل بإباحة بعض الأمور التي حرمتها التوراة عليهم عقاباً لهم.

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

(٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (٥٠).

* وهناك معجزة المائدة التي سأذكرها لكم بالتفصيل

فيما يلي.

الحواريون أتباع عيسى

(عليه السلام)

ومع كل هذه المعجزات التي أيده الله بها والتي تدل على أنه نبي كريم أرسله الله (عز وجل) إليهم . . إلا أن بنى إسرائيل كفروا ورفضوا الإيمان بأن عيسى رسول الله .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي

إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

(٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾

لما أحس عيسى (عليه السلام) أنهم لن يؤمنوا سألهم وقال

لهم: هل أنتم مسلمون؟ . . فما آمن له إلا الحواريون.

وكان عدد الحواريين اثني عشر رجلاً.



(١) سورة آل عمران: الأيتان: (٥٢، ٥٣).

ذكر خبر المائدة

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١)﴾.

* ومضمون ذلك أنه لما آمن الحواريون مع عيسى (عليه السلام) كان التردد لا يزال موجوداً في نفوسهم .. ومن أجل أن يقطع عليهم هذا التردد أمرهم عيسى (عليه السلام) بأن يصوموا ثلاثين يوماً ليستبين له صدقهم ولكي تطهر نفوسهم .. فاستجابوا له وصاموا ثلاثين يوماً.

فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم، وتكون لهم عيداً يفطرون

(١) سورة المائدة: الآيات: (١١٢ - ١١٥).

عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم، لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل . فقال ربه عليه السلام : فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مُصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يُجابوا إلى ما طلبوا .

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة . فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : «بسم الله خير الرازقين» ، فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة .

ويقال: وخل ، ويقال : ورُمَّان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً .

قال الله كوني فكانت .

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى نأكل . فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف .

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك، فرُفعت بالكلية ومُسَخ الذين تكلموا في ذلك خنازير^(١) .

لكن الله سبحانه وتعالى حذرهم من الكفر بعد هذه الآية التي جاءت تلبية لطلبهم، وتوعّد من يكفر منهم بعد هذه المعجزة بعذاب شديد لا يعذبه لأحد آخر من

(١) قصص الأنبياء (ص ٦٦٢ ، ٦٦٣).

العالمين، ... قال تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وصار يوم نزول المائدة عيداً للحواريين.

وظلوا على إيمانهم وتصديقهم لعيسى عليه السلام، إلا رجلاً واحداً كفر بعد رفع عيسى عليه السلام.

عيسى (عليه السلام)

يبشرهم برسولنا محمد ﷺ

وها هو عيسى (عليه السلام) يبشرهم بخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ الذي يأتي من بعده.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» (٣).

(١) سورة المائدة: الآية: (١١٥).

(٢) سورة الصف: الآية: (٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢١٧٥٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٥٤٥).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عز وجل حاكياً عن المسيح عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (٢).

رفع عيسى (عليه السلام) إلى السماء

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ اذْكُرْ مَا كُنْتَ تَعْمَلُ فَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله: ﴿وَبُكَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى

(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

(٢) سورة الصف: الآية: (٦).

(٣) سورة آل عمران: الآيتان: (٥٤ ، ٥٥).

ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً (١٥٨) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴿١﴾

وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يُبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشهد طيرانه بإذن الله عز وجل إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها، وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى لا يسكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يُقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان

(١) سورة النساء: الآيات: (١٥٦ - ١٥٩).

وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب لنائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام، وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصره هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقى عليه شبيهى وهو رفيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفُتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء، وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصُّلْبَ مِنْ خَلْقِ الْمَلَأِ﴾

مُتَوَفِّيكَ^(١) وَرَافِعُكَ إِلَى^(٢) . . . فلما رُفِعَ خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سبوا فى صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى فى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ^(٣)﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا^(٤)﴾ أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^{(٥)(٦)}﴾.

ظل الحواريون يدعون بالسر إلى الله، ويُعلمون الناس الدين فى السر، وظل النصارى على التوحيد أكثر من مائتى سنة، ثم آمن أحد ملوك الروم واسمه قسطنطين، وأدخل الشراكيات فى دين النصارى.

يقول ابن عباس: اختلف النصارى ثلاث فرق، فقالت

(١) الوفاة هنا: بمعنى النوم - بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

جُرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ سورة الأنعام: الآية: (٦٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٥٥).

(٣)، (٤) سورة النساء: الآية: (١٥٧).

(٥) سورة النساء: الآية: (١٥٨).

(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٣ ، ٥٧٤) باختصار.

طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وقالت طائفة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وقالت طائفة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام مطموساً حتى بعث الله محمداً ﷺ فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١)(٢).

نزول عيسى (عليه السلام)

في آخر الزمان

وفي آخر الزمان عندما يظهر المسيح الدجال الذي يملأ الأرض فساداً والذي حذرنا منه نبينا محمد ﷺ . . . فينزل عيسى (عليه السلام) عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ويكون نزوله على المؤمنين الثابتين على الحق من المسلمين فيصلي خلف أميرهم ثم يبحث عن المسيح الدجال ليقتله.

(١) سورة الصف: الآية: (١٤).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٩٠).

هلاك الدجال على يديه

يكون هلاك الدجال على يدى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أن الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعمُّ فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عبادُ الله المؤمنون، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُد)^(١)، فإذا رآه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى عليه السلام: «إن لى فيك ضربة لن تفوتنى»، فيتداركه عيسى، فيقتله بحرْبته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودى خلفى، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود^(٢).

(١) (لُد): بلدة فى فلسطين قرب بيت المقدس. انظر: «معجم البلدان» (١٥/٥).

(٢) انظر: «النهاية فى الفتن والملاحم» (١/ ١٢٨، ١٢٩)، تحقيق د. طه رينى.

* ثم يأتي عيسى (عليه السلام) إلى قوم قد عصمهم الله من فتنة المسيح الدجال فيمسح وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم في الجنة .

هالك يأجوج ومأجوج

في عهد عيسى (عليه السلام)

يأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبي الترك . . ويافث من أولاد نوح (عليه السلام) .
وأما عن صفتهم فهم يشبهون أبناء جنسهم من الترك المغولي .
وهم من المفسدين في الأرض فلو خرجوا لأفسدوا في الأرض ولما استطاع إنسان أن يجد طعاماً أو شراباً لأنهم يأكلون ويشربون كل شيء ولا يتركوا شيئاً لأحد من البشر .
* وقد استطاع ذو القرنين أن يبني سداً بين الجبلين وأن يتركهم محبوسين في هذا المكان إلى أن يشاء الله أن يخرجوا من هذا السد فيخرجون في زمن عيسى (عليه السلام) حينما ينزل في آخر الزمان .

* وأما عن كيفية هلاكهم فإن الله سيوحى إلى عيسى

(عليه السلام) أن يأخذ المؤمنين إلى جبل الطور ليختبئوا من يأجوج ومأجوج ثم يرسل الله عليهم النغف - والنغف عبارة عن دود يكون في أنوف الإبل والغنم - فيأكل النغف في رأسهم بعدما يدخل من الأنف فيموتون جميعاً فتصبح الأرض منتنة من ريحهم فيلجأ عيسى (عليه السلام) إلى الله ليظهر الأرض منهم فيرسل الله طيراً في ضخامة الإبل فتحملهم بعيداً ثم يرسل الله المطر فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة اللامعة . . فيخرج عيسى (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين ويحمدون الله على أنه نجاهم من هؤلاء المفسدين .

بماذا يحكم عيسى (عليه السلام)؟

يحكم بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ، فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وبقى إلى قيام الساعة، لا يُنسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة، ومجدداً لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ .

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبينا أعظم الأنبياء،
وأخر مجدديها نبي على ملة رسول الله وشريعته، بل آخر
صحابي نبي.

انتشار الأمن وظهور البركات

في عهده (عليه السلام)

ولأن الكون كله قد أسلم واستسلم لله - جل وعلا - فإن
الإنسان كلما ازداد طاعة لله كلما سخر الله له الكون كله.
ولذلك فعند نزول عيسى - عليه السلام - يعلم الناس
أن نزوله علامة على قُرب القيامة فينشغل الناس جميعاً
بالعبادات والطاعات فيأمر الله الأرض أن تُخرج بركتها
ويأمر السماء أن تُنزل بركتها فيفيض المال ولا يجد من
يأخذه وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد.
* بل وينتشر الأمان بين الناس وبين الدواب
والمخلوقات كلها.
حتى ترتع وتلعب الأسود مع الإبل والنمور مع البقر

والذئاب مع الغنم ويلعب الأطفال بالحيات فلا تضرهم .
 * وتنتشر البركات لدرجة أن المجموعة من الرجال
 يأكلون رمانة واحدة فلا يستطيعون أن يكملوها . .
 والحلاب من اللبن يكفي قبيلة كاملة .
 فتكون هذه السنوات من أجمل وأسعد السنوات التي
 يعيشها الإنسان على كوكب الأرض .

وإن من أهل الكتاب

إلا ليؤمنن به قبل موته

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
 الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(١) .

ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى
 أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وهذا القول هو الحق، لأنه
 المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من
 قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى

(١) سورة النساء: الآية: (١٥٩) .

الجهلة في ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعنى: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان - بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف.

* ثم يمكث عيسى (عليه السلام) سبع سنين .. يذهب خلالها لحج بيت الله الحرام.

قال عليه السلام: «ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته»^(١).

* ثم يموت عيسى (عليه السلام) ويصلى عليه المسلمون ويدفن في الأرض المقدسة.

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٠).

مشهد من مشاهد

يوم القيامة

ويخبرنا المولى عز وجل بحوار لم يقع بعد.

هو حوار مع عيسى عليه السلام يوم القيامة فيقول:
﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ؟﴾ (١) !

يقول عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ
مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا
فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ
أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ
تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).



(١) سورة المائدة: الآية: (١١٦).

(٢) سورة المائدة: الآيات: (١١٦ - ١١٨).

* الدروس المستفادة من القصة :

- (١) الله يصطفى ويختار من عباده من يشاء . . فلقد رأينا كيف أن الله (عز وجل) اصطفى مريم على نساء العالمين .
- (٢) أن العبد لا بد أن يقابل نعم الله بالشكر . . فإن الله لما اصطفى مريم على نساء العالمين قيل لها بعدها مباشرة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (١) شكراً لله على هذا الاصطفاء .
- (٣) الله قادر على كل شيء . . ولقد رأينا كيف أن الله جعل مريم تنجب نبي الله عيسى (عليه السلام) بغير أب .
- (٤) جواز تمنى الموت عند خوف الفتنة في الدين . . فلقد رأينا كيف أن مريم لما حملت بعيسى (عليه السلام) تمتت الموت خوفاً من أن يظن الناس بها شراً في دينها .
- (٥) أن قدرة الله لا تحدّها حدود . . فلقد أنطق الله عيسى ابن مريم (عليه السلام) وهو طفل رضيع ليبرئ أمه أمام قومها .

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٣).

(٦) الأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل، بل هو سنة كونية لا بد منها، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يرزق مريم الطعام دون هز الجذع، ولكنه الأخذ بالأسباب.

(٧) من كرامة الله لمريم مطاوعة جذع النخلة لها، فلو اجتمع رجال أشداء لهز جذع النخلة ما طاوعتهم، فكيف بامرأة ضعيفة في مخاض الولادة.

(٨) اليهود أهل بُهت وكذب وزور، هم أحرص الناس على الدنيا وشهواتها، وفي سبيلها يقتلون الأنبياء، ويكذبون الرسل^(١).

(٩) أتباع الأنبياء دائماً هم أقل الناس عدداً لكنهم هم الفائزون المفلحون في الدنيا والآخرة.

(١٠) إن معجزات كل نبي لا بد أن تتناسب مع أهل ذلك الزمان.

(١١) إن عيسى (عليه السلام) رُفِعَ حياً وأنه لم يُصلب وسيُنزل في آخر الزمان ليقتل الدجال ويكسر

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٩٢).

الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام
وسوف تكثر البركة في عهده. **(١٢)** إن أسلم طريقة للنجاة من الفتنة أن تباعد عنها
وتهرب منها، وقد قال النبي ﷺ: «من سمع بالدجال
فليأمن عنه»^(١). أي: يبتعد عنه. **(١٣)** إن الأنبياء بشرٌ يموتون كما يموت البشر بل
ويتعرضون للسخرية والاستهزاء والإيذاء كما يتعرض
البشر ولكنهم يصبرون ويحتسبون ولا يغيظون لأنفسهم
ولأنما غضبهم لله (جل وعلا).



هنا ينتهي كتاب قصص الأنبياء. نسجعه الله
وسوف نلتقى قريباً مع قصة حياة النبي محمد ﷺ.

عمود ممدود

(١) صحيح سنن أبي داود (٤٣١٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في
صحيح الجامع (٦٣٠١).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
قصص الأنبياء للأطفال	٩
قصة آدم (عليه السلام)	
خلق آدم (عليه السلام)	١٥
خلق آدم (عليه السلام) من تراب	١٦
إبليس يطيف بآدم (عليه السلام)	١٩
خلق آدم (عليه السلام) في يوم الجمعة	٢٠
صفة آدم (عليه السلام)	٢١
إبليس يرفض السجود لآدم (عليه السلام)	٢٢
لأقعدن لهم صراطك المستقيم	٢٣
وقفه لطيفة	٢٥
وعلم آدم الأسماء كلها	٢٦
يا آدم أنبئهم بأسمائهم	٢٧
كيف خلقت حواء؟	٢٨
اسكن أنت وزوجك الجنة	٢٩

قصص الأنبياء للأطفال

- * فوسوس إليه الشيطان ٣٠
- * الهبوط إلى الأرض ٣٤
- * يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان ٣٥
- * الدروس المستفادة من القصة ٣٦
- * وبدأ الصراع على ظهر الأرض ٣٩

قصة ابني آدم

- * قابيل يتعلم الدفن من الغراب ٤٣
- * قصة وفاة آدم (عليه السلام) ٤٥
- * النبي ﷺ يلتقى بآدم (عليه السلام) في ليلة المعراج ... ٤٩
- * أهل الجنة يدخلونها على صورة آدم (عليه السلام) ٥٠
- * الدروس المستفادة من القصة ٥١

قصة إدريس (عليه السلام)

- * الدروس المستفادة من القصة ٥٩

قصة نوح (عليه السلام)

- * كيف بدأت قصة الشرك ٦٢
- * طوق النجاة ٦٣
- * فصبر جميل ٦٤
- * حرصه على هداية قومه ٦٦
- * إن أجرى إلا على الله ٦٧

قصص الأنبياء للأطفال

- ٦٨ * دعوة إلى التأمل
- ٦٩ * لا يأس ولا قنوط
- ٧٠ * فقلت استغفروا ربكم
- ٧٢ * موقف الملائكة من قومه
- ٧٣ * مساومة مرفوضة
- ٧٦ * وما هم يستعجلون العذاب
- ٧٦ * اتهموه بالضللال
- ٧٧ * ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح
- ٧٩ * صور من عصيانها
- ٧٩ * رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً
- ٨١ * وما هو يصنع سفينة النجاة
- ٨٦ * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر
- ٨٨ * وكتب الله النجاة للمؤمنين
- ٨٩ * يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين
- ٩١ * بُعداً للقوم الظالمين
- ٩٢ * يا نوح إنه ليس من أهلك
- ٩٣ * يا نوح اهبط بسلام
- ٩٤ * وصية نوح (عليه السلام)
- ٩٥ * الدروس المستفادة من القصة

قصة هود (عليه السلام)

- * من هو هود عليه السلام؟ ٩٨
- * حياة الرغد والرفاهية ٩٨
- * اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ١٠٠
- * عناد واستكبار ١٠١
- * إنها دعوة خالصة ١٠٢
- * وما هو يُذكرهم بنعم الله (جل وعلا) ١٠٣
- * وما هو يحضهم على التوبة والاستغفار ١٠٦
- * لم ينتفعوا بأى موعظة ١٠٧
- * وما هم ينكرون البعث ١٠٨
- * ومن يتوكل على الله فهو حسبه ١٠٩
- * وما هم يستعجلون العذاب ١١١
- * وحين وقت الهلاك ١١٢
- * تفاصيل هلاكهم ١١٣
- * نجاة هود (عليه السلام) والمؤمنين ١١٧
- * الدروس المستفادة من القصة ١١٩

قصة صالح (عليه السلام)

- * نبى الله صالح (عليه السلام) يدعوهم إلى التوحيد ١٢٣
- * صالح (عليه السلام) يستمر فى دعوتهم ١٢٥

- * وما هم يطلبون الآيات ١٢٦
- * معجزة تبهر العقول ١٢٧
- * ناقة مباركة ١٢٨
- * وعقروا الناقة ١٢٩
- * وحان وقت الهلاك ١٣٢
- * كيف نزل العذاب على الكافرين ١٣٣
- * وما هو (عليه السلام) يخاطبهم بعد هلاكهم ١٣٥
- * النبي ﷺ يمر بديار ثمود ١٣٥
- * الدروس المستفادة من القصة ١٣٦

قصة إبراهيم وإسماعيل

(عليهما السلام)

- * خليل الرحمن .. صاحب الفطرة النقية ١٣٩
- * دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه ١٤٠
- * دعوة كلها رحمة ١٤٢
- * الاعتزال وثمرته ١٤٧
- * إبراهيم (عليه السلام) يتبرأ من أبيه وقومه ١٤٨
- * دعوة إبراهيم (عليه السلام) لقومه عبادة الأصنام ١٤٨
- * وما هو (عليه السلام) يحطم أصنامهم ١٥٢
- * عادوا فرأوا المفاجأة ١٥٣

قصص الأنبياء للأطفال

- * فرصة عظيمة لإقامة الحجة عليهم ١٥٥
- * ذهبت حُجَّتُهم فلجأوا إلى القوة والسلطان ١٥٧
- * خليل الرحمن يُلقى في النيران ١٥٧
- * ومن يتوكل على الله فهو حسبه ١٥٩
- * قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ١٦٠
- * مناظرته (عليه السلام) مع النمرود ١٦٢
- * وهكذا كان هلاك النمرود ١٦٣
- * قصة إحياء الطير ١٦٤
- * الدروس المستفادة ١٦٦
- * هجرة إبراهيم (عليه السلام) إلى بلاد الشام ١٦٩
- * مناظرته (عليه السلام) مع عبَّاد الكواكب ١٦٩
- * هجرته (عليه السلام) إلى أرض مصر ١٧٣
- * الله يكشف الحجاب لإبراهيم (عليه السلام) ١٧٦
- * العودة إلى أرض فلسطين ١٧٦
- * زواجه (عليه السلام) من هاجر ١٧٧
- * ولادة إسماعيل عليه السلام ١٧٩
- * الهجرة إلى مكة المكرمة ١٨١
- * دعوة مباركة ١٨٣
- * امتثال لقضاء الله (جل وعلا) ١٨٣

- * وأتم الله النعمة على إسماعيل وأمه ١٨٧
- * الدروس المستفادة من القصة ١٨٨
- * قصة الذبيح ١٩٠
- * ستجدني إن شاء الله من الصابرين ١٩١
- * البشرى بإسحاق (عليه السلام) ١٩٣
- * الدروس المستفادة من القصة ١٩٨
- * زواج إسماعيل عليه السلام ٢٠٠
- * قصة بناء البيت ٢٠٤
- * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ٢٠٦
- * وحن وقت الرحيل ٢٠٨
- * الدروس المستفادة من القصة ٢٠٩

قصة لوط (عليه السلام)

- * حقاً .. إنهم قوم سوء ٢١١
- * إنهم أناس يتطهرون!! ٢١٢
- * وها هم يستعجلون العذاب ٢١٤
- * رب انصرني على القوم المفسدين ٢١٥
- * امرأة لوط تدل القوم على أضياف زوجها ٢١٦
- * وجاءه قومه يهرعون إليه ٢١٨
- * لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد ٢١٩

- * الدروس المستفادة من القصة ٢٢٦
- * قصة شعيب (عليه السلام) ٢٢٧
- * دعوة إلى التوحيد ٢٢٩
- * دعوة خالصة ٢٣٠
- * وما هو ينهاتهم عن المنكر ٢٣١
- * عناد واستكبار ٢٣٤
- * فطنة وذكاء ٢٣٥
- * كان عليه السلام قدوة حسنة ٢٣٦
- * حرصه على هدايتهم ٢٣٨
- * يفتح لهم باب التوبة والمغفرة ٢٣٩
- * تهديد ووعد ٢٣٩
- * درس لا ينسى ٢٤١
- * واستمروا في الوعد والتهديد ٢٤٣
- * وما هم يستعجلون نزول العذاب ٢٤٧
- * وما هنا انتهى الحوار ٢٤٩
- * وما هو مشهد نزول العذاب ٢٥٠
- * جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ٢٥٢
- * ويسدل الستار على تلك الأمة ٢٥٣
- * الدروس المستفادة من القصة ٢٥٥

قصة يعقوب ويوسف (عليهما السلام)

- * الرؤيا التي رآها يوسف (عليه السلام) ٢٥٩
- * وكذلك يجتبيك ربك ٢٦١
- * اجتماع طارئ ٢٦٢
- * ها هم يدبرون المؤامرة لقتله ٢٦٣
- * لا تقتلوا يوسف ٢٦٤
- * مراودة مكرة ٢٦٤
- * يوسف (عليه السلام) .. ومحنة الحب ٢٦٦
- * وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ٢٦٨
- * خروجه عليه السلام من الحب ٢٦٩
- * وها هو يُباع لعزير مصر ٢٧١
- * وكذلك نجى المحسنين ٢٧٢
- * امرأة العزيز .. والمحنة الثالثة ٢٧٣
- * لم يهمل يوسف (عليه السلام) بامرأة العزيز ٢٧٤
- * واستبقا الباب ٢٧٦
- * وشهد شاهد من أهلها ٢٧٨
- * وشاع الخبر في المدينة ٢٧٩
- * نساء الأمراء والكبراء يقطعن أيديهن ٢٨٠
- * وها هو (عليه السلام) يدخل السجن ٢٨٣

قصص الأنبياء للأطفال

- * ٢٨٥ ودخل معه السجن فتيان
- * ٢٨٦ كلمة التوحيد قبل أى شيء
- * ٢٨٩ تأويل الرؤيا
- * ٢٩٠ فلبث فى السجن بضع سنين
- * ٢٩١ وهكذا يهيئ الله الأسباب لأولياته
- * ٢٩٦ وظهرت براءة يوسف (عليه السلام)
- * ٢٩٨ امرأة العزيز تعترف ببراءة يوسف (عليه السلام)
- * ٣٠٠ ويصدر الأمر الملكى بالإفراج عنه
- * ٣٠٢ وجاء إخوة يوسف
- * ٣٠٦ عهد وميثاق
- * ٣٠٨ وما هو يخشى عليهم من الحسد
- * ٣١٠ شوق ولقاء
- * ٣١١ فطنة وذكاء
- * ٣١٥ اتهموا يوسف عليه السلام ظلماً وعدواناً
- * ٣١٦ ياله من موقف عصيب
- * ٣١٧ بل سولت لكم أنفسكم أمراً
- * ٣١٩ وابتضت عيناه من الحزن
- * ٣٢٢ وتلاقت القلوب مرة أخرى
- * ٣٢٣ وحان وقت المفاجأة الكبرى

- * معجزة باهرة ٣٢٥
- * إني لأجد ريح يوسف ٣٢٦
- * توبة وندم ٣٢٨
- * اجتماع الأحباب بعد الفُرقة الطويلة ٣٢٩
- * توفي مسلماً وألحقني بالصالحين ٣٣١
- * الدروس المستفادة من القصة ٣٣٢

قصة أيوب (عليه السلام)

- * إنها نعمة الرضا ٣٤٣
- * نعم العبد إنه أواب ٣٤٣
- * وقفة هامة ٣٤٤
- * الزوجة الوفية ٣٤٤
- * حوار بين رجلين ٣٤٦
- * جاء الفرج الإلهي ٣٤٧
- * أيوب (عليه السلام) يُقسم أن يضرب زوجته ٣٤٧
- * وكان الشفاء بإذن الله (جل وعلا) ٣٤٨
- * وآتيناه أهله ومثلهم معهم ٣٥١
- * خفة ظله (عليه السلام) ٣٥١
- * ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ٣٥٢
- * الدروس المستفادة من القصة ٣٥٣

٢٦٢ قصة ذى الكفل (عليه السلام)

* الدروس المستفادة من القصة ٢٥٧

٢٦٣ قصة يونس (عليه السلام)

* توبة قوم يونس (عليه السلام) ٢٥٨

* وها هو (عليه السلام) فى بطن الحوت ٢٦١

* الملائكة تشفع له عند الله (جل وعلا) ٢٦٢

* قصته مع الغلام ٢٦٤

* وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ٢٦٦

* الدروس المستفادة من القصة ٢٦٧

٢٦٤ قصة موسى (عليه السلام)

* إن فرعون علا فى الأرض ٢٧١

* علم أن هلاك ملكه على يد غلام من بنى إسرائيل ٢٧٢

* إنها العناية الإلهية ٢٧٣

* لا تخافى ولا تحزنى ٢٧٣

* موسى (عليه السلام) يصل إلى قصر فرعون ٢٧٥

* أم موسى (عليه السلام) تبكى لفراقه ٢٧٦

* الله (جل وعلا) يرد موسى إلى أمه ٢٧٧

* موسى (عليه السلام) يتربى فى قصر فرعون ٢٧٩

* الدروس المستفادة من القصة ٢٨٠

- * نشأة موسى (عليه السلام) ٣٨١
- * الله يُشرفه بنعمة النبوة والرسالة ٣٨١
- * قصة قتله للرجل القبطى ٣٨٢
- * فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ٣٨٥
- * وجاء رجل من أقصى المدينة ٣٨٧
- * نجاة موسى (عليه السلام) من القتل ٣٨٨
- * فى أرض مدين ٣٨٩
- * هكذا كانت مروءة الرجال ٣٩٠
- * فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ٣٩٢
- * ويستجيب موسى (عليه السلام) لدعوة الرجل الصالح ٣٩٤
- * إن خير من استأجرت القوى الأمين ٣٩٥
- * الدروس المستفادة من القصة ٣٩٦
- * الطريق إلى الوادى المقدس ٣٩٩
- * يا موسى إني أنا الله رب العالمين ٤٠١
- * عصا موسى (عليه السلام) ٤٠٤
- * معجزة اليد ٤٠٦
- * موسى (عليه السلام) يستعد للقاء فرعون ٤٠٧
- * واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى ٤٠٨
- * فقولاً له قولاً لنا ٤١٠

قصص الأنبياء للأطفال

- * لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ٤١١
- * أمام فرعون .. وجهًا لوجه ٤١٢
- * فرعون يجادل موسى (عليه السلام) ٤١٥
- * الداعية الصادق لا يغضب لنفسه أبدًا ٤١٦
- * لم ينتفع فرعون بتلك الآيات ٤١٨
- * موعدكم يوم الزينة ٤٢٠
- * وها هو فرعون يجمع السحرة ٤٢٣
- * في ساحة المواجهة ٤٢٤
- * وهكذا سجد السحرة لفاطر السماوات والأرض ٤٢٦
- * آمنتم له قبل أن آذن لكم!! ٤٢٨
- * البطش والتعذيب .. سلاح من لا حُجة له ٤٢٩
- * استعينوا بالله واصبروا ٤٣١
- * وقال فرعون ذروني أقتل موسى ٤٣٣
- * صار فرعون واعظًا!! ٤٣٤
- * موازين الباطل مقلوبة ٤٣٥
- * مؤمن آل فرعون ٤٣٦
- * وها هو يخوفهم بيوم الأحزاب ٤٣٨
- * وكذلك زين لفرعون سوء عمله ٤٤٠
- * وإن الآخرة هي دار القرار ٤٤١

قصص الأنبياء للأطفال

- ٤٤٢ * ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . . .
- ٤٤٣ * فستذكرون ما أقول لكم . . .
- ٤٤٤ * إقامة الحجة قبل الهلاك . . .
- ٤٥٠ * لم يؤمن معه إلا القليل . . .
- ٤٥٢ * دعاء من القلب . . .
- ٤٥٤ * وجاء الأمر بالخروج ليلاً إلى أرض فلسطين . . .
- ٤٥٦ * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . . .
- ٤٥٨ * موسى (عليه السلام) . . وثقته بربه (جل وعلا) . . .
- ٤٦٠ * غرق فرعون . . فهل من معتبر؟ . . .
- ٤٦٢ * فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية . . .
- ٤٦٤ * آسيا امرأة فرعون . . .
- ٤٦٧ * ماشطة ابنة فرعون . . .
- ٤٦٩ * الدروس المستفادة من هذه القصة . . .
- ٤٧٣ * معاناة موسى (عليه السلام) مع بنى إسرائيل . . .
- ٤٧٤ * اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . . .
- ٤٧٥ * لا بد من الإعداد الصحيح . . .
- ٤٧٧ * موسى (عليه السلام) يطلب رؤية ربه (جل وعلا) . . .
- ٤٧٩ * الله يصطفى موسى (عليه السلام) . . .
- ٤٨١ * قصة موسى (عليه السلام) والسامرى . . .

قصص الأنبياء للأطفال

- * جزاء السامري ٤٨٩
- * وهكذا كانت توبتهم ٤٩٢
- * رفع الجبل فوق بني إسرائيل ٤٩٣
- * واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ٤٩٥
- * البشرى بنبو محمد ﷺ ٤٩٧
- * الدروس المستفادة من القصة ٤٩٨
- * قصة بقرة بني إسرائيل ٥٠١
- * قصة موسى والخضر (عليهما السلام) ٥٠٥
- * الطريق إلى بيت المقدس ٥١٧
- * ذكرهم بالنعمة قبل أن يأمرهم بالتكليف ٥١٨
- * وأنزلنا عليكم المن والسلوى ٥٢١
- * أتعبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ٥٢٣
- * قصة الحجر الذي أخذ ثياب موسى (عليه السلام) ٥٢٥
- * وحان وقت الرحيل ٥٢٨
- * الدروس المستفادة من القصة ٥٣٠

قصة يوشع بن نون (عليه السلام)

- * بنو إسرائيل ينقضون العهد مع موسى (عليه السلام) ٥٣٤
- * يوشع يتولى الحكم والنبوة بعد موسى (عليهما السلام) ٥٣٥
- * النبي ﷺ يصف لنا كيف فتح يوشع (عليه السلام) بيت المقدس ٥٣٥

* يوشع (عليه السلام) يخاطب الشمس ٥٣٧

* من تواضع لله رفعه الله ٥٣٨

* الجزاء من جنس العمل ٥٣٩

* تسليط الملوك الجبارين عليهم ٥٤٠

* وحن وقت الرحيل ٥٤١

* الدروس المستفادة من القصة ٥٤٢

قصة داود (عليه السلام)

* الله يصطفى طالوت ملكًا ٥٤٦

* آية ملكه أن يأتيكم التابوت ٥٤٦

* ابتلاء وتمحيص ٥٤٧

* داود (عليه السلام) يقتل جالوت ٥٤٩

* وأصبح داود (عليه السلام) ملكًا لبني إسرائيل ٥٥١

* شكره وعبادته لله (جل وعلا) ٥٥١

* صاحب الصوت الجميل ٥٥٢

* خفف الله عليه قراءة القرآن ٥٥٤

* بكاؤه (عليه السلام) ٥٥٤

* داود (عليه السلام) وصناعة الدروع ٥٥٥

* وشددنا ملكه ٥٥٦

* وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت ٥٥٧

قصص الأنبياء للأطفال

- * وهذه قضية أخرى ٥٥٩
- * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ٥٦٠
- * وفاة داود (عليه السلام) ٥٦١
- * الدروس المستفادة من القصة ٥٦٤

قصة سليمان (عليه السلام)

- * وورث سليمان داود (عليهما السلام) ٥٦٧
- * بعض الأشياء التي سخرها الله لنبيه سليمان (عليه السلام) ٥٦٨
- * أولاً: معرفة لغة الطيور والحيوانات ٥٦٨
- * ثانياً: تسخير الجن لسليمان (عليه السلام) ٥٦٩
- * ثالثاً: تسخير الريح لسليمان (عليه السلام) ٥٧١
- * رابعاً: إسالة النحاس لسليمان (عليه السلام) ٥٧٣
- * خامساً: إعطاه جيشاً من الجن والإنس والطيور ٥٧٣
- * سادساً: آتاه الله العلم والحكمة ٥٧٤
- * مروره على وادي النمل ٥٧٦
- * قصة سليمان (عليه السلام) مع الهدد ٥٧٩
- * وجاء الهدد من سبيل نبيا عجيب ٥٨٠
- * الهدد يذهب بكتاب سليمان (عليه السلام) ٥٨٤
- * بلقيس تستشير وزراءها وأكابر دولتها ٥٨٤
- * وصول رسل بلقيس بهدية سليمان (عليه السلام) ٥٨٩

* إحضار عرش بلقيس ٥٩٢

* من تواضع لله رفعه الله (جل وعلا) ٥٩٤

* مفاجأة ضخمة لبلقيس ٥٩٥

* وها هي تعلن إسلامها لرب العالمين ٥٩٦

* قصة سليمان (عليه السلام) مع الخيل ٥٩٩

* نبى الله سليمان يُرزق بنصف إنسان ٦٠١

* وهذا هو تفسير فتنة سليمان (عليه السلام) ٦٠٢

* سليمان (عليه السلام) .. وتحديد بيت المقدس ٦٠٣

* وحن وقت الرحيل ٦٠٤

* الدروس المستفادة من القصة ٦٠٦

قصة إيلياس (عليه السلام)

* الدروس المستفادة من القصة ٦١٤

قصة اليسع (عليه السلام)

* الدروس المستفادة من القصة ٦١٦

قصة زكريا ويحيى (عليهما السلام)

* ميلاد مريم ٦١٧

* الله يحفظ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم ٦١٩

* زكريا (عليه السلام) يكفل مريم ٦٢٠

* كرامة الله لمريم ٦٢٣

قصص الأنبياء للأطفال

- * ٦٢٥ تأقت نفس زكريا عليه السلام إلى الولد
- * ٦٢٦ كان حرص زكريا على الولد من أجل الدين
- * ٦٢٧ البشري يحيى (عليه السلام)
- * ٦٢٩ العلامة على وجود الحمل واستجابة الدعاء
- * ٦٣١ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات
- * ٦٣٣ المؤهلات التي تزود بها يحيى (عليه السلام)
- * ٦٣٥ طفولة يحيى (عليه السلام)
- * ٦٣٧ زهد يحيى (عليه السلام)
- * ٦٣٨ إن الله أمر يحيى بخمس كلمات
- * ٦٣٩ بيان سبب قتل يحيى (عليه السلام)
- * ٦٤١ الدروس المستفادة من القصة

قصة عيسى (عليه السلام)

- * ٦٤٦ كرامة ثابتة لمريم (عليها السلام)
- * ٦٤٧ الله يصطفى مريم على نساء العالمين
- * ٦٤٨ ميلاد عيسى ابن مريم (عليه السلام)
- * ٦٥٠ وهكذا اطمأن قلب مريم (عليها السلام)
- * ٦٥١ وحملت مريم بعيسى (عليهما السلام)
- * ٦٥٢ وحن وقت الولادة
- * ٦٥٣ عيسى (عليه السلام) يتكلم وهو طفل رضيع

- * ٦٥٥ اللحظة الخامسة
- * ٦٥٧ فاختلف الأحزاب من بينهم
- * ٦٥٨ نشأة عيسى (عليه السلام)
- * ٦٥٩ نبوته (عليه السلام)
- * ٦٦١ بعض معجزات عيسى (عليه السلام)
- * ٦٦٢ الحواريون أتباع عيسى (عليه السلام)
- * ٦٦٤ ذكر خبر المائدة
- * ٦٦٧ عيسى (عليه السلام) يبشرهم برسولنا محمد ﷺ
- * ٦٦٨ رفع عيسى (عليه السلام) إلى السماء
- * ٦٧٢ نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان
- * ٦٧٣ هلاك الدجال على يديه
- * ٦٧٤ هلاك يأجوج ومأجوج في عهد عيسى (عليه السلام) ..
- * ٦٧٥ بماذا يحكم عيسى (عليه السلام)؟
- * ٦٧٦ انتشار الأمن وظهور البركات في عهده (عليه السلام) ...
- * ٦٧٧ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته
- * ٦٧٩ مشهد من مشاهد يوم القيامة
- * ٦٨٠ الدروس المستفادة من القصة
- * ٦٨٣ الفهرس



